واسيني الأعرج

شرفات بحر الشمال



دار الآداب

واسيني الأعرج

شرفات بحر الشمال

رواية

دار الآداب ـ بيروت

تنبيه و اعتذار

عذرًا، لكلّ الذين يرون شبهًا لهم في أحداث هذه القصّة،
فليس ذلك إلاّ من قبيل الحبّ، الحبّ فقط.

إلى عزيز الذي غادرنا مبكرًا وإلى ناديا التي كانت تشبهه.

أيّتها المهبولة، في كلّ الوجوه أنتِ،
إغلقي أوّلاً هذا الباب العاري، سدّي النوافذ القلقة،
ثمّ...قلّلي من خطايا الكلام واستمعي إليَّ قليلاً.
لقد تعبتُ.
شكرًا لهبلك وغرورك فقد منحاني شهوة لا تعوّض للكتابة
ووهمًا جميلاً اسمه الحبّ.
مثلك اليوم أشتهي أن أكتب داخل الصمت والعزلة،
لأُشفى منك بأدنى قدر ممكن من الخسارة.

يبدو لي أنّي خَسِرتُ موعدي مع الحياة وأشعر اليوم كأنّ هذا منتهاي الذي عليّ أنْ أقبل به.

فانسون فان غوخ ـ رسالة ١٢ ـ ٧ ـ ١٨٩٠ (خمسة عشر يومًا قبل انتحاره)

الفصل الأول

رُوكْيَام لأَحْزَانِ فِتْنَة[1]

-١-

كان اسمها فتنة.

نهايات ديسمبر. منذ عشرين سنة بالضبط كانت هنا، على حافّة هذا الرمل المنسيّ، قبل أن تنطفئ بين موجات بحر الشمال. ما الذي أيقظها فيّ الآن وأنا على عتبة التلاشي؟ شيء ما يدعوني للتفكير فيها بعمق وحزن، شيء ملتبس لا أعرف سرّه سوى أنّ أمطار أمستردام في هذا الوقت بالذات تكون باردة جدًّا.

الآن، كلّ شيء هدأ، ونزل الضباب على مدينة الجزائر للمرّة الأخيرة بعد أن كفّن الشوارع والساحات والحارات الباردة والزوايا الخلفيّة، واستسلمت الروح المثقلة بأيّام ديسمبر الأخيرة.

أنا كذلك أريد أن أرتاح قليلاً وأن أُشفى منكِ بالمنفى وبقليل من شطط الكتابة. لقد تعبت. بالفعل تعبت ولم أعد قادرًا على التحمّل، لقد صرت هشًّا مثل غيمة.

(١) Requiem (جنائزيّة).

ياه؟ ما أصغر العالم. هكذا دفعة واحدة من النسيان إلى مهاوي بحر الشمال البعيد و أخيرًا إلى شمس المحيط الهادي المندّاة بعرق الشجر ورائحة الملح؟ لا؟ لا بدّ أن يكون في الأمر التباس ما.

-٢-

شعرت بانكسار عميق فجر هذا اليوم وأنا ألملم شؤوني الصغيرة، وأنزع للمرّة الأخيرة، من على الحائط المتآكل، صور الوالد وزليخة وأمّي وإطار عزيز المذهّب الذي كدت أنساه في الزاوية لولا تلك الالتفاتة غير المحسوبة واللوحتين اليتيمتين لفان غوخ اللتين أهداهما لي صديقي العشّي، الفنّان الذي هاجر إلى كندا حزينًا: آكلو البطاطا Les mangeurs de pommes de terre" التي رسمها في الحقبة الأكثر سوداويّة، لونها الرّماديّ يشبه الرّماد الحقيقيّ. العشّي كان يجد متعة كبيرة في ترجمة les pommes de terre بما يقابلها حرفيًا باللّغة العربيّة: تفّاح الأرض. يقول أكبر نبتة مظلومة، مثلها مثل الحمار الذي يتحمّل كلّ حماقات البشر وفي النهاية يُهان بعنف. هؤلاء القوم الذين يتوالدون كالجرذان، لا يعرفون ما يأكلون؟ لولا تفّاح الأرض الذي يتنكّرون له، لماتوا جوعًا هم الذين لا يستطيعون شراء التفّاح الحقيقيّ، بل حتّى شمّ رائحته.

سيرتفع شأن البطاطا يومًا وتصير أثمن من التفّاح وسيندم الذين يبيتون عليها ولا يعترفون لها بحقّ الوجود. كلّما رأيت هذه اللّوحة تذكّرت العائلات الجزائريّة التي تتخبّأ وراء الحيطان المخرّمة لتأكل البطاطا وفي الصباح تتنافخ باللّحم والضولما والشطيطحا.

في بلادنا مثل يقول: إلبس مليح لوجه الناس وكلْ الزّبل فلن يراك أحد. ولوحة: الرجل ذو الأذن المبتورة L'homme à l'oreille coupée وهي تجسّد حالة الهستريا التي ألمّت بفان غوخ وهو يواجه أنانيّة صديقه غوغان Gauguin?. كان رأسه محاطًا بضمادة بيضاء، يكزّ بشفتيه اليابستين على غليونه الخشبيّ.

أيّة طاقة خبّأها هذا الرّجل للحظة اليأس الأخيرة لينزع أذنه بدون تردّد ويسلّمها للمومس الوحيدة التي قبلت به في مدينة آرل Arles?. كان مثل الطفل يتحسّس ألم النار للمرّة الأولى ويتعلّم كيف يلعب في حارة الموت، هكذا يبدأ الانتحار الذي نخافه ونشتهيه. نتمرّن على الألم بالبتر والتعذيب الذاتيّ في انتظار الحماقة الكبرى.

وأنا أستعدّ لمغادرة البيت للمرّة الأخيرة، سمعت بعض الزغاريد التي تشبه زغاريد الأيّام الماضية. ذكّرتني بسنوات انتهى صراخها وبقي دمها عالقًا في الذاكرة. لقد عاد القتلة هذا الفجر واستلموا بعض شرايين المدينة وكأنّ شيئًا لم يكن وانزوى الضحايا في بيوتهم يعيشون مشاهدهم الجنائزيّة ويتأمّلون تفاصيل القيامة من وراء زجاج النوافذ الموصدة وهم لا يصدّقون.

باستقامة هشّة، أقف عند عتبة البيت، في يدي حقيبتي التي لم تر النور منذ سبع سنوات.

بياض كلّيّ في رأسي. لم أتذكّر الشّيء الكثير من تاريخي المتواضع سوى وجه عمّي غلام الله وهو ينشد قرآنه الذي قتله، عند مدخل سوق كلوزيل قبل أن يُعثَر عليه مصلوبًا في الزاوية المظلمة التي هجرها بائع الصحف منذ سبع سنوات، وأخي الصغير عزيز الذي مات وهو يبحث بعينيه في المارّة الذين كانوا

يهجرون بسرعة محطّة القطار، عن أمّه لكي تسنده على ركبتها للمرّة الأخيرة ويضع كفّه الطفوليّة على جبهته ليوقف النزيف المتدفّق بغزارة.

عندما أغلقت الباب للمرّة الأخيرة، ولا أدري لماذا أغلقته، لم يعد فيه شيء يذكر ما عدا رائحة التربة والطين والمعادن المحروقة ومواد التلوين، شعرت بقلب صاحب البيت، الحاج الطاهر المسيلي، يهتزّ فرحًا. كان ينتظر بفارغ الصبر قتلي ليستلم بيته، لكن من سوء حظّه أنّ عمري طال أكثر ممّا توقع. قد تكون الصدفة هي التي آزرتني ووقفت ضدّه. منذ عشر سنوات وهو يحاول إخراجي حتّى يئس منّي. يملك داخل العاصمة مساكن عديدة مبثوثة هنا وهناك. كلّها اشتراها بالدّينار الرّمزي. وكلّما تخلّص من مؤجّر أغلق البيت وأعاد ترميمه في انتظار يوم السّعد. في لحظة من اللحظات فكّرت أن أؤدّبه وأفعل ما فعله معه العشّي ليلة سفره إلى كندا. قال لي وأنا أودّعه في المطار:

– الحاج الطاهر بقّار كغيره من البقّارين. ماذا كان سيفعل لو قُتِلنا؟ سيكون أسعد إنسان في المدينة. ليعرف اليوم على الأقلّ أنّنا نحن كذلك نملك طاقة لا حصر لها للأذى. نقلع له الرحمة ديالو بالاك يتعلّم شويه.

ترك البيت لأحد أقاربه في الجيش. في المساء نفسه جاء الرجل بعائلته وقعد هناك على أساس أنّه ضيف. وعندما عرف صاحب البيت اللّعبة، حاول أن يقاضيه ولكنّه بمجرّد أن تأكّد أنه ضابط، بلع الهواء وصمت في انتظار رياح أخرى أكثر دفئًا.

عندما وضعت رجلي على العتبة المؤدّية إلى الساحة العامّة رأيته معلّقًا على شرفة النافذة المواجهة. لم يقل شيئًا ولكني عندما

ابتعدت قليلاً سمعت وقع خطواته وهو يهرول لينقضّ على البيت. منذ أن سمع بسفري وهو يرابط بالقرب من الدار ومن حين لآخر يدخل ليطمئنّ عليّ من أهوال الدنيا التي عادت من جديد. لم يرتح إلاّ عندما سلّمته نسخة من المفاتيح.

– مسافر غدًا إذن.

– وبلا رجعة. هذه البلاد ليست لنا يا عمّي الطاهر. أدركت هذه الحقيقة متأخّرًا ولكني أدركتها على الأقلّ.

– ستخسرك البلاد.

– لا أعتقد . تعرف يا عمّي الطاهر، في هذه البلاد Personne n'est indispensable. فلن تتأثّر لغيابنا. ربما قد تسعد أكثر. فهي اليوم لمن صنعوا فراشها منذ الاستقلال ويرشونها كلّ ليلة لمزيد من العهر والقتل والسقوط.

– سنخسرك نحن على الأقلّ.

– يكثر خيرك. من اليوم تستطيع ترميم بيتك كما تشتهي.

– مش هذا هو المهمّ... ياسين وليدي اسمح لي نطلب منك...

– توقيع وثيقة إخلاء السكن حتى تستطيع دخوله قانونيًا. لا تهتم، فقد فكّرتُ في كلّ شيء.

سلّمته الوثيقة. عبرها بعينيه بسرعة ثمّ انطفأ ليظهر هذا الصباح معلّقًا في الشرفة كالأثاث المتآكل.

البناية التي أسكنها كانت عبارة عن مانيفاكتورة صغيرة لصناعة السجائر والشمّة. في الأصل كان يملكها قبل الاستقلال رجلان: مالطيّ وإسبانيّ وكان هو عاملاً بها ومكلّفًا بالعلاقات مع الدكاكين العربيّة الصغيرة المبثوثة في المدينة. مع فوضى الاستقلال خافا فطلب منهما أن يكتبا له عقد شراكة يستطيع بموجبه الدفاع عن

المانيفاكتورة كملكيّة خاصّة والحفاظ عليها ريثما تستتبّ الأمور ويعودان إلى المصنع. الإسبانيّ وقع وذهب إلى بلاده بينما المالطيّ رفض والتحق بالفيالق الأولى للمنظّمة العسكريّة السريّة O.A.S وقُتل عند باب المانيفكتورة. لا أحد يعرف كيف تمّ ذلك.

بعد سنتين من الاستقلال عاد الإسباني كاميلو Camillo إلى المانيفكتورة فوجدها قد حُوّلت إلى شقق صغيرة وعندما استفسر الأمر ولم يجد من يستمع إليه، استنجد بالقضاء. وظلّ بين مؤسّسات الدولة أكثر من سنة. وذات صباح رآه الناس في أعلى البناية المطلّة على ساحة المعدومين وهو يضع يديه على وجهه ثمّ وهو يتهاوى من الأعلى ويرتطم على الأرض ككيس خرّوب يابس ليُدفن بعدها في مقبرة المسيحيين ويُنسى أمره.

فضّلت أن أنزل الدروج بسرعة وأن لا ألتفت ورائي. عندما نريد أن ننسى دفعة واحدة علينا أن نتعلم كيف نتفادى النظر إلى الخلف حتى لا نُجرّ إلى نقطة البدء. كلّ التفاتة هي محاولة يائسة للبقاء.

تساءلت وأنا أشمّ رائحة البحر المتسرّبة من بين شقوق الشوارع التي تلتقي لتضيق ثمّ فجأة تنفتح على البحر الذي يندفع أمامك بشكل فجائيّ بضبابه وحركة بواخره المتناوبة وصراخات البحّارين والصيّادين القادمة من ناحية الأميراليّة: ترى أيّ موعد ينتظرني اليوم؟ موعد مع امرأة كانت تكبرني بأكثر من عشر سنوات، عرفتْ كيف تصنع من جنونها قدرًا هي وحدها تعرف تبعاته بحثًا عن قسط من الراحة كم اشتاقت إليه، امرأة سرقت بعض راحتي وأوصلني غيابها إلى بوّابات الجنون أم موعدي اليوم سيكون مع قبر معزول وسط كمّ من القبور التي لا تحمل شواهد ولا أسماء؟ أم مع بياض تصطدم أسئلته بالخوف الدائم، كلّما لمسته ازداد

بياضًا ونصاعةً وتلاشيًا؟

أستطيع اليوم أن أقول إني ضيّعت موعدًا حاسمًا مع الحياة، فقد سلكت طريقًا غير الذي كان يجب أن أسلكه. أنا سعيد بهذه المزالق المتكرّرة التي منعتني من الوصول إليك فقد وفّرت لي قدرًا كبيرًا من الشجاعة للكتابة ونحت الريح الساخنة وغمس يدي عميقًا في التربة التي كانت تحضّرها أمّي وزليخة.

وحده الفنّان يملك هذا الحظ وهذه الهشاشة التي لا توصله إلاّ إلى مزيد من الهبل.

– هل تقرأ يا سيّدي؟

أتاني صوتها من بعيد. نبراته هي هي لم تغيّرها السنوات ولا الكآبات المتتالية ولا الصدفة العجيبة التي قادتها نحو بحر الشمال. من أين أبدأ؟ كلّ الحروف صارت غامضة ومرتبكة مثل تمائم المجانين لا تؤدّي إلى بعضها البعض. الكثير منها، من كثرة لمسه وهشاشته، اندثر مخلّفًا وراءه ظلالاً لحروف يمكن أن تُقرأ على أوجه مختلفة. فقد تفكّكت في معظمها وكأنّها أصيبت بنفس الجنون الذي استقرّ في الذاكرة.

كلّما أصبنا بمرض الحبّ اختلّ منطق الأبجديّات الصامتة وحلّ محلّها ضباب نتمنّى أن نضعه كلّه في كمشة يد كالقطن استعدادًا لسجنه في جيب أيّ قميص خفيف، ولكنه يتسرّب من بين الأصابع بهدوء بدون أن نحصل على شيء منه.

– هل تقرأ يا سيدي؟

– لا.

تسرّبت الكلمة منّي باردة كالقلق.

أريد أن أنسى كلّ شيء. لقد ذهب الذين كنت أحبّهم وانطفأوا

واحدًا واحدًا وعاد القتلة إلى المدينة يتسلّلون في الشوارع ويقفون عند مداخل العمارات كما كانوا يفعلون قبل عشر سنوات. هل ننسى عندما نشتهي أن ننسى؟ ما يزال الدم يملأ القلب وعيوننا مثقلة بالمشاهد. الأرض التي عرفتها منذ سنوات، تغيّرت كثيرًا وسقطت تربتها من يدي كورقة محروقة. أجرّب الآن هذه السماء ربما كانت أكثر دفئًا. لقد نسيت أو كدت بأن هناك سماء يمكن أن ندفن فيها بعضًا من الأشواق التي نخاف عليها من العطب.

نحن الآن على ارتفاع عشرة آلاف متر وسرعتنا المتوسّطة تقدّر بتسعمائة كيلومتر في الساعة.

السماء ليست بكل هذا الجفاء الذي تصورته، ما يزال هناك متّسع للشفاء من جراحاتنا. كم تبدو الدنيا واسعة من خارج هذه الرقعة الضيّقة من التراب التي اسمها الجزائر. مساحة صغيرة تحاول أن تحتضن بحرًا، كلّما امتدّت نحوه، زاد اتّساعًا وغموضًا، يتطاحن داخلها القتلة والأبرياء، الباعة والمشترون وتفتح فيها أبواب القضاء الموصدة لتبرئ قاتل أخته وأمّه لأنه شكّ فيهما وتدين بالجرم المشهود امرأة ضُبِطت عند عاشقها، تقاسمه متعة ليلة قبل أن تنطفئ في معابر المدينة المظلمة.

الطائرة غادرت مدرجها منذ أكثر من نصف ساعة.

المدينة التي عذّبتني منذ أكثر من أربعين سنة تبدو الآن مستسلمة تحتي، تتضاءل كغيمة هاربة. كلّ ما كان كبيرًا صار الآن في منتهى الصغر، لعبًا متراصّة بانتظام وأحيانًا في فوضى. الشاطئ الممتدّ في شكل نصف دائري والذي كان مسرحًا للحروب الفائتة والخروج والدخول المستمرّ لأقوام كثيرة، يتضاءل الآن تاركًا مكانه لزرقة بدون حدود وحمرة أرض لا شيء فيها يوحي أنها

مسكونة ببشر يتحابّون وكلّما تذكّروا أنانيّاتهم الصغرى تقاتلوا باستماتة. من هذا الارتفاع، حتى ميترو الجزائر الذي مات قبل أن يرى النور لم يعد هناك أي شيء يوحي بوجوده. مثل حالة البلد، حفر دائم بدون الوصول إلى نهاية النفق. قيل إنّ السّبب هو فائض المياه الجوفيّة بينما على سطح الأرض كان السكّان يموتون عطشًا. سنصل إلى زمن يتقاتل فيه المواطنون السعداء على قطرة ماء. سيهجم الأقوياء والمسلّحون على الآبار والسدود والمسابح لتقاسم مائها واليائسون سينزلون إلى البحر، يشربون ماءه المالح وينتظرون بشغف، تحت قيظ الشمس العسيرة، الموت الذي تأتي به الأمواج المتعاقبة. عندما حكيت قصّة المترو لجاري المهندس، عمّار، كما أتصوّرها، أنّبني كثيرًا مستندًا على يقينيات كان من المستحيل التشكيك فيها: أنا أشتغل بعين المكان وأعرف تفاصيل المشروع، يأسك غير مبرّر، الصعوبات ناتجة عن طبيعة التربة وتجوّفاتها. بعد سنوات جاءني، بوجه منكسر، ليؤكّد لي أن البلاد تنتحر وحكاياتي التي رويتها له حول الماء، ستصير حقيقة: تصوّر؟ قال وهو يبتلع ريقه بصعوبة، مدينة تعوم على الماء وناسها يموتون عطشًا؟ الماء الآن يُضخُّ نحو البحر ليتلف هناك أملاً في تجفيف التربة. إنهم يقتلون المدينة. اليوم كلّما مررت على ميترو العاصمة، تذكّرت كلام المهندس عمّار. لم تعد هناك أية إشارة تحيل إليه. حتى الآليات الضخمة التي تصدّأت مثل أوجه المارّة نُزِعت من أمكنتها ورُدِمت الهوّات الكبيرة وحُوِّلت إلى طريق عام. الشركات التي تعاقبت عليه فشلت نهائيًا في الإنجاز طوال العشر سنوات المنصرمة، قبل أن ترفع التحدّي الشركة الوطنية للمنشآت الفنيّة الكبرى وينكسر أنفها هي بدورها على جدار قلّة الخبرة. بعد

عشر سنوات أخرى من اليأس، عرفتْ حجمها وأدركتْ أنّ الوطنيّة الزائدة لا تبني حائطًا صغيرًا ولا تزفّتُ طريقًا محفورًا. اليوم، وبعد عشرين سنة انتظار، لم يعد الناس يسألون عن الميترو أو حفرة الظلام كما يسمّونها وكأنهم بعد كل هذه المدّة استيقظوا فجأة من الكذبة الكبيرة التي عاشوها.

الكذب في بلادنا ليس استثناء ولكنّه من فرط التكرار صار يشبه الحقيقة، شهوة تستيقظ فينا كلّما شعرنا بالحاجة لراحة البال الوهميّة. عندما يتساءلون فيما بينهم عن الميترو يجيبون بالتمتمة وهزّ الرأس: لو كان فقط جاتْ في الميترو، تهون. البلاد كلّها معطّلة مثل محرّك تعب من كثرة الاستعمال السّيئ له. لقد تواطأ ضدّنا الكذب ونار الفتنة المحسوبة، حتى الله الذي يتباكى في قلوبنا وأسرّتنا ليلاً نهارًا، التزم صفّ القتلة واضعًا رأسه بين ركبتيه حتى لا يرى ما يحدث أمام عينيه المغلقتين.

قبل قليل كانت مدينة الجزائر تمتدّ أفقًا بلا نهاية وتبدو كمدرّجات مسرح يونانيّ، تتسلّق جبل الملك كوكو وتحتها يسرح البحر الواسع كخشبة مسرح تمنح فرص اللعب لعدد لا يحصى من الممثّلين. الآن، كلّ شيء هادئ، ضجيج المدينة انسحب تاركًا متّسعًا أكثر لمحرّكات الطائرة. أبحث بعينيّ عبثًا عن المدينة الأخرى التي كنت أبنيها كلّما زارني عزيز، كان يسمّيها مدينة الأطياف. أشيّدها بالموسيقى والأحاسيس المرهفة والعشق لتمتدّ على مدى خمسين كيلومترًا، من خليج سيدي فرج المترامي الأطراف إلى جميلة–لمدراك Djamila-La Madrague انطفأت الآن من ذاكرتي منذ أن رميتُ لآخر مرّة الزجاجة الواحدة بعد الألف في بحر مدينة الأطياف، تحت قهقهات عزيز وهو يحاول

عبثًا أن يفهم هبلي:

– أنت على يقين أنّ هذه الزجاجة التي ملأتها بالحروف والأبجديّات المبهمة سيوصلها الموج هذه المرّة إلى فتنة؟

– هذه المرّة تختلف عن الألف السابقة. الأعداد عندما تُغلق تموت ولهذا فتحتها بالواحد ولكنّني سأتوقّف هنا حتى أتلقّى ردًا.

– عبث جميل ولكنّك يا حبيبي تحتاج إلى قدر كبير من الحظّ لتجد من يوصل الزجاجة إلى فتنة. في كلّ مرّة تردّد نفس الشيء. آخر مرّة قلت لي: عليّ على الأقلّ أن أغلق العدد حتى لا يبقى مبتورًا. و ها أنت اليوم تفتحه من جديد على عدّ قد لا ينتهي أبدًا.

– وماذا لو تحقّقت الصدفة؟ ألن يكون الأمر مذهلاً؟

– يجب أن تكون هذه الصدفة استثنائيّة.

– ولِمَ لا؟ سحر الصدفة أنّها دائمًا استثنائيّة. أليست الحياة سوى سلسلة من الصدف. يا عزيز خويا، الدنيا لا تمنحنا الشيء الكثير ولهذا نحن في حاجة إلى منح أنفسنا ما نشتهي بواسطة الخيال. الخيال وحده يدفعنا نحو تحمّل موتنا المحتوم لأنّه وسيلتنا الكبيرة للنسيان. حتى هذه المدينة الجميلة التي تسمّيها مدينة الأطياف لا توجد إلاّ في رأسي ورأسك، بكلّ تأكيد سنرحل بها وهي معنا وإذا التقينا في عالم آخر سنطلب من الله أن يمنحنا قدرًا من السحر والوقت لنراها بأضوائها وساحاتها النقيّة وشوارعها المكتظّة بالعشّاق وباراتها ومسارحها. ما يعطينا الرغبة في الحياة هو هذا. ما عدا ذلك، الحياة ليست بكلّ هذه الدهشة.

– يا خويا، والله مانيش عارف وين راح ياخذك هذا السحر.

– ستقول لي حتمًا: إلى الهبل؟ أليس حظًّا أن يكون الإنسان مهبولاً في هذه البلاد؟

ثمّ نقهقه عاليًا ونواصل تدحرجنا على حافّة مدينة الأطياف، نتسلّى بعدِّ رمالها وعندما تنطفئ الشمس، نتقاسم مساحة السماء ونعدُّ النجوم واحدة واحدة.

عزيز لم يكن مخطئًا، هو يعرف أنّ هذا السحر سيقودني حتمًا إلى الهبل. المدينة التي عشقتها، مدينة الأطياف، لم يبق منها اليوم الشيء الكثير، فقد حلّ محلّها ضباب غطّى كلّ شيء حتى الجبال التي بقيت تطلّ برأسها متحدّية ارتفاعات الطائرة. لقد تبعثر الحلم داخل الدم والخيبات اللامتناهية والزحف المستميت للبداوة والإسمنت المسلّح. أبحث عن كلّ سبل النسيان والتيه بعيدًا، إلى أبعد نقطة ممكنة فيّ. إلى عمق القلب، إلى أن ألمس قساوة البياض حيث ينسحب كلّ شيء، المدن، الناس، الجغرافيا، التاريخ، الزمن الذي نعيشه ولا يبقى إلاّ ذلك النور الخاطف الذي يستحيل القبض عليه...

ثم فجأة لا شيء سوى الغيوم الداكنة وتمادي البحر في زرقته وحركته وبقايا هذا اليوم الشتويّ الذي بدأ ينطفئ.

الخيبة تعمي صاحبها. نشتهي شربها ونخافها مثل ماء الحياة، وعندما ندمن عليها، لا تتركنا إلاّ إذا قتلتنا بأبشع شكل وبلا رحمة.

منذ سبع سنوات، منذ أن حلّ علينا الزمن الضيّق الذي فشلت الأسماء في نعته، لم أر هذه السماء. كلّما رفعت رأسي عاليًا، زادت احتمالات سهوي وبالتالي قتلي. نحن في وطن يتساوى فيه السهو بالموت. كلّما فتحنا الباب لاستقبال صباح آخر مُنِح لنا للحياة، تمسح أعيننا المكان مسحًا عامًّا ثم عندما نصير داخل المدينة نبدأ في فحص الخزرات و الالتفاتات الغريبة. نحملها من

شططنا الكثير ثمّ نمضي ونحن نتساءل كالمرضى:

هاه؟ نظرته لم تعجبني، خزرته شينة وحقودة. نظر إليّ، تمتم في أذن صديقته، حاورها بالإشارات ثم انسحبا؟ من يدري، قد يعترضان طريقي في الممرّ المغلق. لنغيّر هذا الطريق. وقد يتقاسمان هما بدورهما نفس الانشغالات ويغيّران الطريق. وتستمرّ الدورة يومًا كاملاً إلى أن نصل البيت مرهقين ونستعدّ للمقاومة حتى نصبح أحياء ونقول للدنيا مرّة أخرى صباح الخير. أن تصبح حيًا ليس أمرًا هيّنًا، عليك أن تبذل مجهودات خارقة ومضاعفة. عندما أصرّ عليّ عزيز أن أخرج، لم أجد ما أقنعه به لأني لم أكن أملك ما أقوله. ليس في الأمر شجاعة أو بطولات خارقة، فأمام الخطر يتساوى جميع البشر، ينسحب كلّ شيء ولا يبقى إلاّ ما نشترك فيه مع الحيوانات. لا بطولة سوى أني فشلت فشلاً ذريعًا في التنصّل عن هذه التربة وتْلَخْخْ (الطين) التي ما تزال عالقة بكفّي أمّي وبأظافر زليخة. قال لي عزيز ذات مرّة، أنت تستدرج الموت مثل الشعراء الغابرين، لا رومانسيّة في الموت يا حبيبي. صحيح، عندما تُقتَلُ سيبكيك الكثيرون، حتى الذين يكرهونك سيلعبون نفس الدور. سيبعث وزير الثقافة والاتّصال ورئيس الحكومة وربما حتى رئيس الجمهوريّة التعازي المختلفة لأمّك ثم فجأة عندما يصمت الكورس الجنائزيّ سيتضاءل اسمك شيئًا فشيئًا ويُغلق كتابك للمرّة الأخيرة. هذه الأرض بدون ذاكرة يا حبيبي. قلتُ لا. للنّاس همومهم. أمّا أنا فلست أفضل من هذا الرمل. بي شهوة للانطفاء على هذه الأرض. عندما خرج الجميع، صمّمت أن أجرّب ماذا يعني أن تظلّ وحيدًا في حفرة تترقّب فقط من يدقّ عليك الباب ليقتلك أو ليقول لك صباح الخير أو ليأخذك من يدك

ويمنحك بعض الدفء ويذهب بك إلى أقرب سينيما أو إلى مسرح المدينة الوحيد أو فقط يجلس معك على حافّة البحر ويقاسمك رؤية الشمس وهي تنسحب لتترك في عينيك دهشة ممزوجة بمرارة الخوف. الجزائريّ هو الكائن الأرضيّ الوحيد الذي يتمنّى لو تظلّ الشمس معلّقة في مكانها طوال السنة وأن لا تغيب أبدًا حتى لا يضطرّ كلّ مساء إلى أن يتحوّل إلى جرذ يبحث له عن أكثر المآوي أمنًا.

صرنا نكتفي بالأفراح الصغيرة لمواجهة الأوجاع التي تحرقنا من الداخل كالحطب اليابس. من فرط إصرارنا على الحياة ما زلنا نتخيّل أنّنا نملك القدرة على الحبّ وعندما يضيق القلب نوسعه قليلاً مثل حقيبة الغريب ولو أدّى بنا ذلك إلى تمزيقه بعض الشيء ليستوعب قدرًا آخر ومزيدًا من الأوهام.

عندما أسألكِ مثل الطفل: فتنة، قولي لي أحبّك. تقولين: أتشكّ. وأكرّر: أريد فقط أن أسمعها. تبتسمين وتتركين عبثك الطفوليّ وتعودين إلى ارتعاشات المحبّ.

– أنت هنا. هنا بالضبط.

ثم تأخذين أصابعي بنعومة وترسمين مكانًا في الصدر، بين النهدين مع ميل خفيف باتّجاه القلب ثم تضغطين، وتتمتمين في أذني.

– هنا. هنا بالضبط. حبيبي، من قال إنّ المرأة تحبّ بقلبها فقط؟ أنت رجل تعشقه العين واللسان ورؤوس الأصابع والقلب لا يعمل في الأخير إلاّ على الاستسلام للدهشة الجميلة، هنا أنتَ في مدافن الروح، أنام فيك وعلى وجهك ولا توقظني إلاّ موسيقى العزلة والحنين إليك.

نحن هكذا، كلّما وضعتنا الدنيا محلّ اختبار، ازددنا تضامنًا مع أوجاعنا والتصقنا أكثر بوهم ننشئه من إحباطاتنا وأشواقنا الضائعة. المؤكّد اليوم خسرتنا الحياة ولم يربحنا هذا الزمن الموحش وبقينا نحن سفنًا ضائعة بين تلاطمات الموج المجنون، لا مرافئ لها.

قلتِ: قلّلْ من الخطايا، قلتُ: كيف وأنتِ أكثر الخطايا التباسًا؟ قلتِ: تعلّم كيف تنسى. وحده النسيان يشفي الذاكرة من أوجاعها القاسية. تصوّر لو حملت الذاكرة كلّ إحباطاتنا لانفجرت. قلتُ: لا وجود للنسيان. هي كلمة للتسلية فقط مثل أيّة لعبة تُعطى للأطفال للتخلّص من شغبهم. نحن لا ننسى عندما نريد ولكنّنا ننسى عندما تشتهي الذاكرة. والذاكرة عندما تشرّع نوافذها للتخلّص من ثقل الجراحات لا تستأذن أحدًا. سبع سنوات وأنا كالفأر أبحث عن أكثر الطرقات ضمانًا للحياة. لا أخرج من المربّع الذي وجدت نفسي محشورًا فيه. أتبضّع من سوق كلوزيل في منتصف النهار، عندما تكون الشوارع غاصّة بالبشر، لا أدري إذا كان مردّ ذلك الخوف من الموت وأنّنا وسط البشر نملك قدرًا من الشجاعة لا نجده في عزلتنا أم هو الخوف من القتل في العزلة التامّة إذ لا نسمع عند النجدة إلاّ رجع أصواتنا التي تخفت وتصير حشرجة كلّما صار الموت قريبًا. وعندما أعود إلى البيت، من مسافة المئة متر، أغلق الباب الحديدي الذي صار يشبه أبواب جميع سكّان هذه المدينة المسجونين وراء قضبان ضيّقت الروح وأفقدت المدينة عفّتها وعفويّتها. في البداية كنت أسخر من سكّان هذه المدينة وأقول كيف يجرؤون على الانتحار بهذه الطريقة الجماعيّة كالحيتان العمياء، قبل أن يدركني الظلّ الذي يتسرّب من الفجوات المفتوحة. في أحيان أخرى، كانوا يبدون لي مثل

الدجاج المهيّأ للذبح والموضوع داخل أقفاص الانتظار. اليوم صرت مثلهم. لم أعد أسأل إلاّ عمّا تخبّئه الوجوه المظلمة. وحتى أستطيع أن أنتهي من إتمام إحدى منحوتاتي عليّ أن أغرق في ماء الزعفران اللّيل كلّه أو بعضه وأستمع إلى موسيقى تقتل وحشيّة المكان، لأنسى أنّ الخطر يرابط عند مدخل البيت بعينين مدوّرتين كعينيّ البومة. وقبل أن أنام، أندفن في الفراش قليلاً، أتذكّر أعمالي المهدّدة بالتلف والتدمير هي الأخرى. أقوم حافي القدمين، أمشي على رؤوس الأصابع حتى لا أوقظ خوفي، أخبّئها تحت السرير أو فوق الخزانات أو ما بين السرير والفراش أو حتى في كيس قمامة للتمويه. كل شيء ممكن عندما تدخل عقليّة الهدم إلى القلب وتصبح جزءًا من دمنا.

أنسى أنّني أنا كذلك كنت في حاجة للاختباء في كمشة ريح ساخنة أو إلى يد طيّبة تضعني داخل خزانة أو في كيس قمامة أخاتل بها القتلة.

– سيّدي...

من أين يأتي هذا الصوت مرّة أخرى. هي بكلّ ملامحها وتفاصيلها. من أين جاءت؟ كيف خرجت من حقول اللوز في أواخر هذا الشتاء المستحيل وهي تحمل على ظهرها كلّ خيبات الدنيا الظالمة؟ كيف تركت قريتها وساحات حارتها التي تكاتف ضدّها الله والطبيعة والناس، وجاءت؟ أهذه أنتِ؟ ياه؟ أين أختبأتِ كلّ هذا الزمن؟ ألم يكن من الممكن أن تأتي على دفعات؟ مجيئك هكذا دفعة واحدة يضيّعني. كدت أنسى هذا الوجه الرائع. تصوّري، أكثر من عشرين سنة. وجهك لم يتغيّر كثيرًا. ملامحك ازدادت تماسكًا وثقة. أنا؟ كما ترين. كبرت. لم

أعد المراهق الذي ورث منك الكمان والفوطة الزرقاء التي تركتِها على حافة البحر والذي ظلّ يتساءل إذا كنتِ قد انتحرتِ أم ركبت سيّارة المرسيديس السوداء؟

– يا سيّدي ها أنا ذي قد عدت مرّة أخرى...

وهل أنتِ ذهبت لتعودي مرّة أخرى؟ لا أنتِ دائمًا هنا في المكان نفسه الذي وضعتِني فيه. هنا، في الصدر، مع ميل خفيف نحو القلب، حيث ما تزال ملامس أصابعك الرقيقة.

يتناهى الآن الى مسمعي صوت فتنة القادم من بعيد، صافيًا كدمعة، يشبه النحيب وندب الغائبين. صوتها يدخل المسام كاللّذة المسروقة.

يحدث أن نشتهي صوتًا أكثر ممّا نشتهي جسدًا. الجسد يموت ويبقى الصوت فينا يذكّرنا في كلّ زوايا المدينة والحارات بمن نحبّ كلّما نسينا.

صوتك يتبعني كالشبهة.

– يا سيّدي، هل تقرأ... الجرائد؟

فتحت عينيّ على صوتها الشهيّ، الصافي كماء الزعفران. رأيت المضيفة بوجهها الطفوليّ تقف عند رأسي بعربتها الصغيرة. ابتسامتها كانت تحمل بعض الاستثناء. ابتسامات المضيفات عادة، من فرط التكرار، صارت متشابهة ومن غير لذّة. ربما كان صوتها هو الاستثناء الوحيد وسط هذا العالم الذي يتكرّر باستمرار.

– الجريدة؟

– لا. شكرًا. أريد أن أنسى. لا أريد أن أعرف ما يدور على تلك الأرض.

– طيّب، كما تريد يا سيّدي. هل تريد أن تشرب شيئًا؟

– هل يمكنني أن أختار؟ بلادنا الطيّبة لا تتيح لنا عادةً فرصًا كبيرة للاختيار. هي تشبه أرضنا. تعطي وتتمنّع كما تشتهي. عوّدتنا على النمطيّة وعلى قبول ما يُختار لنا.

– أنت في الدرجة الأولى يا سيّدي.

– إذن أختار كلّ ما يبعدني أكثر عن هذه الأرض التي فيّ. ويسكي.

ناعمة كانت المضيفة، كوردة الحدائق. كيف تستطيع امرأة جميلة وحيّة أن تتوازن على تربة تدور على عكس دوران الأرض؟ ابتسمتْ مرّة أخرى وهي تحاول أن تقتل أسئلتها في حلقها. رأيت ذلك في عينيها.

انسحبتْ ثم عادت بسرعة لتضع الكأس على الطاولة الصغيرة.

Avec un peu de glace?

- Non, comme ça c'est beaucoup mieux.

– مبروك عليك التكريم الدوليّ الكبير. أنت تشرّف وطنًا بكامله يا سيّدي.

اندهشت من تأكيدها المفاجئ. قوّة المرأة في عفويّة اندفاعها، تهزّنا في اللحظات الأقلّ انتظارًا. لم أجد إلاّ كلمات مرتبكة لا معنى كبيرًا لها:

– لم أفهم جيّدًا؟

– بالصدفة شاهدتك البارحة في القناة الوطنيّة. كنتَ رائعًا يا سيّدي. قلتَ الذي في قلوبنا جميعًا. أنا لست فنّانة. مجرّد مضيفة، أعبر كلّ يوم هذه الكرة الأرضيّة حتّى صرت أعرفها نقطة نقطة من الأعلى، لكنّي أحسّ أنّ على فنّاننا أن يموت أوّلاً أو يُنفى أو أنْ ينتحر لتُقام له بعد ذلك المآدب والولائم ويتذكّر النّاس أنّه موجود. أغلب فنّانينا لم أر وجوههم في التليفزيون إلاّ عندما ماتوا أو قتلوا،

أو... انتحروا. أتساءل أحيانًا إذا لم يكن المسؤولون في هذه البلاد سعداء لذهابهم ولهذا يكرّمونهم للمرّة الأخيرة للتخلّص من عقدة دفينة وربما لنسيانهم دفعة واحدة.

– نحن لا نملك تليفزيونًا وطنيًا بل صندوقًا للعجب كما كان يسمّيه الفنان بوبقرة الله يرحمه، صندوقًا يبثّ صورًا في الفراغ وللفراغ، نلتقطها بالصدفة. أنا لم أقل شيئًا مهمًّا ولكني صفّيت حسابي للمرّة الأخيرة مع كلّ الذين اشتبهت أنّهم كانوا يحبّونني.

– كلامك كان إنسانيًا ودافئًا. لأوّل مرّة أشعر أنّ قناتنا لا تشبه نفسها.

– قبلت الحديث في التليفزيون لأني كنت أبحث عن امرأة خرجت منذ عشرين سنة ولم تعد ولأني أشعر بأني لن أعود إلى هذه البلاد مرّة أخرى. لقد شطب عليّ ناس هذه الأرض حتى قبل أن أضع الخطوة الأولى على سلّم الطائرة.

– لا أدري من أين جاؤوا، ولكنّهم بالفعل هكذا.

– لا يعترفون بك إلاّ عندما يتذكّرك الآخرون، الذين لا نتوقّف عن شتمهم وتحميلهم كلّ انكساراتنا وضعفنا وخسائرنا. يرحّب بك الذين يتمنّون أن يلتقوا بك مرّة واحدة في العمر وينفرك الذين تأكل معهم التراب اليوميّ والخوف وتحترق باللّهب نفسه الذي فيك وفيهم. الخوف هو الذي كشف لي عمق أنانيّة النّاس وحجم ما تساويه في أعينهم عندما يأتيك القتلة في آخر الليل.

- Franchement, hier vous étiez magistral.

- Boof ! Je crois vraiment que je suis, tout simplement, passé à côté de la vie

- C'est la modestie des grands artistes.

– أبدًا. نخطئ طريق الحياة ولهذا نتشبّث بالفنّ. فهو طريقنا

المتبقّي للتحمّل. الفنّ في بلادنا ليس ترفًا، هو الحياة نفسها وإلاّ ما هي الخيارات الموضوعة أمامنا لكي لا نُجنّ؟ في هذا البلد، المجنون هو الكائن الطبيعيّ الوحيد وما عداه خطأ طارئ. في هذا الوطن السعيد، ننتهي يوم أن نفتح أعيننا على الحياة. نحن هكذا دائمًا، نمرّ بجانب الأشياء الجميلة.

ليست هي المرّة الأولى التي أخطئ فيها موعدي مع الحياة، ليس مهمًّا. علينا أن نترك مكرهين هذه الأرض لندرك كم خسرنا ونحن نجانب موعد الذين نحبّهم ونخطئ طريق الذين نشتهيهم. ماذا ربحنا؟ عندما أقرأ كومة الأيّام والسنوات التي مضت، ماذا أجد؟ مرض القلب الذي يتعاظم كلّ يوم، ذهاب عزيز في سنّ مبكرة، لم يتح له القتلة فرصة النوم في حجر أمّه للمرّة الأخيرة، اندثار عمّي غلام الله، مَعْلَمُ المدينة الذي ظلّ طوال السبع سنوات ينشد قرآنه لمن أراد أن يسمعه. انتحار الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم. وقلوب معلّقة على الآتي الذي يكشف كلّ يوم وفي كلّ الأوقات، عن بعض سرّه المخيف.

عندما عاد الجميع إلى أرضهم أريد أن أغادرها. ربّما لأنّي أكثرهم مرضًا بهذه التربة أو أن الهزيمة المقترحة عليّ يصعب تحمّلها وبلعها. أنت تُذبح في اللّيل وفي الفجر تسمع في النشرات الأولى للأخبار من ينصحك، يطلب منك ثم يأمرك أن تستقبل قاتلك بكأس الحليب وطبق التمر الصحراويّ وأن توقظ من تبقّى من نسائك في البيت ليزغردن عليه؟ تصوّر نفسك منتصرًا في حرب تكتشف فيها فجأة، بعد عشر سنوات، أنّك كنت الخاسر الأوحد وأنّ القتلة والآمرين كانوا طوال الزمن الفائت يتفاوضون على أفضل المخارج لتقاسم الغنائم؟

في سلّم الهزائم ثمّة هزيمة لا نملك حيالها الشيء الكثير سوى الاحتراق كالحطبة اليابسة أمامها أو وضعها في الذاكرة وتسيير تفاصيلها بالابتعاد عن مدافنها.

لهذا كلّه أريد أن أنسى.

لا شيء سوى الغيوم الهاربة والزرقة اللامتناهية لبحر لا يشيخ.

الويسكي الساخن يرتق بعض الجروح الصعبة. الكأس الخامسة والنصف ليست كالسابعة، هي الحالة الفاصلة بين الضياع والوعي الملتبس بالحبّ. نرى النّاس. نعرف ملامحهم العامّة ولا نبذل مجهودات كبيرة للتدقيق في تفاصيلهم. أشياء فينا لا تسعفنا. فتنة المهبولة هي التي علّمتني الأسماء كلّها. أسماء كلّ ما حُرّم على الإنسان والنبتات الشهيّة. كانت تعرف كيف تلمس بأناملها الرقيقة، كأسها وشفاه من تعشق وأوتار الكمنجة المشدودة مثلما تشتهي.

لمسات أصابع فتنة كانت مثل لمسات فجر ربيعيّ، دافئة ومؤنسة.

أنا لا أتذكّرها إلاّ في ارتباكاتها وهشاشتها. لا أعرفها إلاّ في حالة تعقّلها وهبلها. لم تتغيّر كثيرًا سوى أنّها تسخر وتضحك بدون حدود.

أجد صعوبة في إعادة ترتيب حياتها. ربّما الويسكي هو السبب. بقدر ما يصفّي الرؤية من كلّ الاختلاطات، يختصر الحياة والمسافات والأشواق والوجوه. كانت تدرس عند أخيها الذي كان أستاذًا بكنسرفتوار بلديّة وهران. هو أستاذها الأوّل في الحياة. فهو الذي علّمها العزف وكيف تضع أناملها الرقيقة على ذراع الكمان.

كانت مولعة به وكنت مولعًا بصوت نرجس. كلّما زارتنا في

البيت لتلتقي بأختي زليخة التي كانت تحبّها وتسمّيها ليخة، أشعر برعشة لذّة تخرج من جلدي. كانت ليخة تجد متعة في قصّ تفاصيل تعلّقي بالمذيعة نرجس التي بدأت بلعبة لتصبح هبلاً حقيقيًا. في جلسات الخلوة عندما تنهمك زليخة في الطين، لمساعدة أمّي في صناعة الأواني الفخّاريّة، تعلّمني فتنة سحر الأصابع. فجأة، معها بدأت أعرف أن للأصابع لغة وعرفت بعدها أنّ أمّي وزليخة كانتا تتقنان اللغة نفسها التي من فرط تكرارها وعزلتها لم يكن أحد ينتبه إليها. حتى المرأة التي خطّت أوشام أمّي في شبابها كانت لها لغة ملغزة مفاتيحها اندفنت مع المرأة الأولى التي شيّدت كلّ هذا المعمار الاستثنائيّ الذي يشبه في هشاشته الحياة ذاتها. و تحكي لي عن أخيها الذي ترك القرية في وقت مبكر بسبب الناس الذين كانوا يسخرون منه لأنّه كان يظلّ معلّقًا على ربابة صنعها من جلد الماعز وخشب الصنوبر وخيوط الصّيد.
اليوم عندما يراه ناس القرية على الشاشة يقود فرقًا عالميّة بكاملها، يفتخرون به ويتباهون أنّه نبت في قريتهم. تحكي لي عن وهران وعن الناس الذين هناك. كنت أستمع إلى صوتها الذي كان يأكل الكلمات والجمل والحروف، لكنّ قلبي كان معلّقًا بصوت المذيعة. كنت بآخر الليل أنا المتعوّد على النوم بعد العشاء مباشرة، أسرق كلّ ما تقوله لأوصله في الصباح إلى أستاذة الإنشاء منتشيًا كديك خرج لتوّه من معركة رابحة، قبل أن أصاب بالمرض نفسه الذي كانت مصابة به المذيعة، مرض حبّ الكلام ورصف الأشواق بين الأحرف. من الاستماع استهوتني اللعبة لكي أصير فاعلاً في برنامجها، فبدأت أكاتبها. بعد الرسالة الخمسين توقّفت لأني لم أتلقّ أي ردّ. لكنّي هذه المرّة واصلت الكتابة لنفسي

وصوتها حاضر في ذاكرتي وقلبي. في الرسالة الألف تعبت فتوقّفت نهائيًا مكتفيًا بالإرث الكبير الذي جمعته من قصّة بدأت بتفصيل صغير لتصبح حالة تمركز يصعب التخلّص منها. بعدها حدثت أشياء أخرى لم أعد أتذكّر إلاّ علاماتها الأولى. كان حبّ فتنة قد سحبني نحو العزلة. لم تكن قريتها البعيدة عنّا بكيلومترين تمنعها من المجيء إلى زليخة ثم الانفصال عنها والبقاء معي، تعلّمني كلام المدينة الذي لم أكن أفهمه، لكن أجمل لحظة عوّدتني عليها هي عندما تضعني داخل صدرها الدافئ. كانت عندما تبدأ درس الموسيقى، تتمتم في أذني القريبة جدًّا من شفتيها: خويا كان يعلّمني هكذا. تأتي بالكمان وتسحبني نحوها ثم تقف ورائي وتضع الآلة القديمة على كتفي وتشدّ على كفّي وأصابعي بقوّة ممدّدة ساعدها الأبيض كشمعة عبر يدي حتى نهاية الكمان ثم تنقر على الأوتار المشدودة بإحكام قبل أن تترك الذراع الرقيق الذي في يدها اليمنى ينزلق على الخيوط، فتأتيني الأصوات الدافئة وكأنها تخرج من بعيد من مكان معزول. إلى اليوم أحسّ بوشوشاتها الطفوليّة وأنفاسها الحارّة على خدّي الأيمن. كنت كلّما حاولت الالتفات لسؤالها، تلامس شفتاي شفتيها أو تكادان. احتضانها لي من الوراء جعلني أحسّ طوال النهار برائحة جسدها العالقة بي. رائحة يمتزج فيها عطر فرنسيّ كانت تضع قليلاً منه في عمق كفّ زليخة كلّما أرادت أن تتعطّر، ورائحة العرق التي كانت تسحبني نحوها أكثر ممّا كانت تنفّرني. أمضي يومًا أو يومين وأنا أتشمّمها فاعلاً كلّ ما بوسعي حتى تظلّ فيّ. أتفادى حتى غسل وجهي صباحًا لولا صياحات زليخة: واش ما تحشمش؟ ولّيت حلوف، ما تغسلش حتى وجهك؟ ليخة كانت

تظنّ ذلك كسلاً منّي ولم أكنْ أخالفها. وحدي كنت أعرف لماذا كنت مصابًا بهذا الخبل.

كانت فتنة منشغلة بالدراسة في وهران وتحلم أن تصير مثل ميمون، أخيها من أبيها. كلّما فتَحتِ الحديث عنه، أشعرُ كأنّها تحكي عن رجل تعشقه. تتكلّم عنه بلهفة وتقول دائمًا إنّها لم تشبع منه وإنّه الرّجل الوحيد الذي تمنّت لو لم يكن من دمها لتعشقه براحة أكبر.

وعندما حدثت الفاجعة لم أر وجه فتنة الذي كنت أعرفه، فقد انسحب نهائيًّا مخلّفًا وراءه بقايا ملامح طفوليّة منكسرة. عرفت لماذا كانت تريد أن تشبع من وجهه. عمر الناس الرائعين في وطننا قصير جدًا. مات ميمون في حادث سيّارة في الطريق الرابط بين وهران والعاصمة بعدما أشرف على إدارة فرقة الأوبرا الوطنيّة بمناسبة ربيع الجزائر الذي عاد بعد غياب طويل. ميمون لم يتزوّج، فقد كان شغوفًا بموسيقاه. فتنة لم تفهم جيّدًا ما حدث وعندما عرفت أنّه لن يعود أبدًا، أصيبت بالدوار ولمّا استيقظت كانت تهذي وترتعش.

بعد فشل أطباء المدينة في مساعدتها، أُدخِلت مقام الوليّ الصالح المطلّ على حافة البحر حتى يشوف في حالها. قال الفقيه وهو يقرأ بعينيه الفازّتين لحمها الطريّ: إربطوها شهرًا على جذع نخلة الوليّ الصالح وستفرج كربتها إذا كانت مؤمنة وتخاف الله. بينما كانت هي تصرخ ذعرًا، كان الفقيه يطمئن الأهل بأن الجنّيّ الأزرق القادم من البحر الميت بدأ يخرج رأسه من قمقمه. ويقول هي الآن لا تحسّ وإنّما الجنّيّ هو الذي يحسّ بالضرب ثم ينظر إلى عمق عينيها الزرقاوين كبحر وينسى نفسه قليلاً قبل أن يعلن

للأهل: إن شاء الله من هنا لنهاية الشهر سيتركها وشأنها، إذا كانت مؤمنة ليعود إلى بحره في المنطقة الفاصلة بين اليهود والعرب. في الليل، عندما يصيران لوحدهما، يحاول أن يهدّئ من خوفها، يبسمل، يحوقل، وعندما لا تسعفه يشدّ وثاقها أكثر. يلمس نهديها، يضغط على الحلمة قبل أن يكمش في كفّه اليابس لحمهما الطريّ فتصرخ هي بأعلى صوتها. يقهقه: وين تروحي منّي يا يماك. جايبك وربّي كبير. ويعاود الكرة حتى تُصاب بالغشاوة قبل أن يرتكن إلى الزاوية ويمارس العادة السرّيّة على جسدها المنهك والمتصلب كصخرة الوديان. وفي الفجر الأوّل تعود إلى صراخها، فيسمعها العابرون نحو طريق السوق، يتأسّفون ويتمتمون: مسكينة، ربّي صابها. الجنّيّ الأزرق الجاي من البحر الميت، في المنطقة الفاصلة بين العرب واليهود، يعذّب المهبولة. كانت كلّما هربت، أُعيدت ثانية وثالثة ورابعة... إلى المقام. بعضهم يحمّلها وفاة أخيها ووالدها الذي لحقه بعد مدّة قصيرة بسكتة قلبيّة وأمّها التي لم يبق لها من البصر إلاّ القليل من كثرة الندب والبكاء.

بعد أسبوع من العذاب، استفاقت فجرًا من غفوتها واشتهت أن تعزف قليلاً. قطعت حبال الربط. عندما خرج الفقيه الذي أمضى الليل كلّه يحاول أن يقبّلها بدون أن يفلح، استحمّت وتعطّرت ومشّطت شعرها الطويل وتركته ينحدر على صدرها كالعروس قبل بدء الزيارة اليوميّة للأهل. عندما وصلوا وجدوها في أحسن حال. همست لأمّها أنّ الوليّ الصالح أنبأها بالخبر العظيم وأنه أوصاها بأن تنهاهم عن الربط. غدًا، إذا كتّفوها فسيُربطون كالأغنام يوم القيامة. مقابل بركته الخارقة، ستقضي بقيّة عمرها في خدمته.

تنظّف مقامه وتعزف له كلّ ما يشتهي سماعه لإراحته من شطط العذاب اليوميّ وثقل الذاكرة.

منذ ذلك اليوم جعلت من مقام الوليّ سكنها الطوعيّ، وقبل الناس شرطها إلاّ الفقيه الذي ظلّ يصرّ على ضرورة تكتيفها لأنّ الجنّيّ البحريّ لم يتبخّر إلاّ جزئيًّا وأنّ الجزء المؤذي فيه ما يزال كما هو ولا حلّ لشفائها إلاّ بالعودة إلى جذع الشجرة المباركة. كلّ فجر كانت تعزف عزفًا جنائزيًّا. يقول سكّان القرية إنّها توقظ الأحياء وتنوّم الأموات وعندما ينتصف الليل تنوّم الأحياء وتوقظ الأموات، وتنام هي قليلاً قبل الاستيقاظ مع الفجر. النّاس ألفوها ولا يعرفون إذا ما كانوا يخافونها أم يحبّونها. حتّى الذين يأتونها بالأكل، يتصدّقون عليها خوفًا من الله ومن الوليّ، يضعونه عند الباب وينسحبون على رؤوس أصابع أرجلهم حتى لا يوقظوا غضبها وعنفها المبطّن. كل ما يُحكى عنها يحكى خفية، فهي تسمع كلّ شيء. الناس يردّدون الكثير من قصصها الخارقة. روحها روح روحانيّة.

كانت عندما تأتي إلى البيت، وتكون أمّي قد ذهبت بصحبة زليخة لحفر التربة، تأخذني إلى الوليّ، تضع في فمي قليلاً من نبتة مُرّة تسمّيها عشبة اللذّة. رائحتها قويّة. تضع رأسي على حجرها ثم تفلّي شعري وتمشّطه. حركات أصابعها تورثني لذّة غريبة. توقفني قبالتها وتعطيني قطرات من ماء الزعفران وتقول لي، إشرب ستشفى من كلّ قنوط ثم تضع في فمي وريقة من عشبة اللذّة. وعندما يصل بها التوهّج إلى أقصاه، تنظر إليّ طويلاً وكأنها تريد أن تحفظ قسمات وجهي. بأصابعها تغمض عينيّ بهدوء وتتمتم: ما تفتحش عينيك، صحّ. أتمتم مثل المأخوذ

بسحر ما: صحّ. ثم أشعر بشفتيها الدافئتين وهما تنزلقان على شفتيّ ثم وهي تمرّر أصابعها على وجهي وتفتح لي عينيّ متمتمة مرة أخرى: ما أشهاك. يا يمّاك لو كان جيت شوية كبير ما نطلّقكش لامرأة أخرى. ثم تخرج كمانها وتبدأ في غزل الحنين الأندلسيّ ورتق الجروح القديمة.

أجدني أتدحرج نحوها أكثر لدرجة الالتصاق بجسدها الذي كنت أحسّ بعض تفاصيله. وعندما تنتهي من عزفها، تفتح رجليها، تسحبني نحوها، تضع الكمان بين يدي وتقول لي إعزف بعد أن تكون قد ضبّطت ذراع الكمان وحدّدت لي حركة يدي. وأحاول بينما هي تضغط عليّ بين رجليها. في البداية كنت أظنّ أنّها تتألّم ولكن مع الزمن تعوّدت على تأوّهاتها وأصبحتُ أعيش معها اللّذة نفسها لدرجة كنت أحيانًا أتساءل إذا لم تكن المهبولة أعقل أهل القرية. أترك نفسي بسهولة أنزلق أكثر بين فخذيها الممتلئتين لأجد نفسي بين نهديها كالورقة. لم أكن أفهم الشيء الكثير سوى تلك اللّذّة الغامضة الآتية من أبعد نقطة في الجسد.

بدأت أفهم قليلاً سحر كلامها: إسمع يا ولد الناس عندما تكون مع امرأة، إمّا أن تسعدها وإمّا روح تلعب على راسك لأنها ستبحث عن غيرك حتى ولو كانت متعلّقة بك. للرجل لذّة واحدة مكملة للتسعة والتسعين التي تملكها المرأة على رأس اللسان وسطح الشفتين ومهوى الأذنين وما وراءهما، في الزاوية المظلّلة ورأس النهدين ودائرة السرّة ورأس البظر ورؤوس الأصابع وتحت الذقن في الانحدار الموصل إلى النهدين وإلى استدارتهما وفي الظهر على سابع فقرة ولحمة احتكاك الفخذين الناعمة... أمّا الرجل فواحدة ضائعة عند حدود الكليتين، من هنا، وتضغط عليّ

من الجانبين وتسحبني باتجاهها، وعليه أن يبحث عنها، قد لا يجدها وقد يجدها بسرعة وينتهي بدون أن يصل إلى عصب اللّذة التي ينشدها لنفسه ولها، ولهذا فالرجل الصحيح هو الذي يسعى لأن يكون مشابهًا للمرأة في سعيها الاستثنائي. عندما تنتهي، تزداد رقّتها ودفؤها وتصبح مثل خيط من الضوء منحدر من السماء، صافية ومشرقة، ويصير كلامها قليلاً ونظراتها هشّة مثل نظرات عصفور.

ثمّ فجأة غابت هي وأمّها. قال العاقلون عنها إنّها ذهبت إلى وهران واستقرّت هناك في بيت أخيها مع العائلة بعد أن شُفيت من حالة الجنّيّ الأزرق التي أصابتها.

خلا الوليّ من حركته الدائبة ورجعتُ أنا إلى برنامج: آخر الليل وإلى صوت نرجس، وإلى كتابة إنشاءاتي ورسائلي التي كنت أخزّنها ولم أشعر بالحاجة إلى بعثها منذ أن ابتلع البريد رسائلي الخمسين الأولى. أقنعت نفسي بأنّ رجلاً غيورًا كان متسلّطًا على رسائلي وكان يتلفها قبل وصولها إلى يد نرجس. كنت أسترشد بالمثل الذي كانت تردّده أمّي دائمًا: الغيرة عمياء. والأعمى يضرب على الزهر. صمّمت أن أكتب وأحتفظ بالكلّ لنفسي.

فتنة خلّفت فراغًا كبيرًا فيَّ. ربّما كانت هي وجه نرجس. في البداية شعر النّاس بغيابها ولكن مع الزمن قبلوا بها واعتبروا ذلك علامة خير. بعضهم قال إنّ الوليّ عشق عينيها فأدخلها معه في عمق القبر والبعض الآخر قال وهو يبحث عن كلّ ما يؤكّد يقينه، أن السنوات العجاف التي حلّت بالقرية جعلتها تغادر المكان نهائيًا. وأكثرهم منطقًا صرّحوا بأن الجنّيّ الأزرق لم يصبر عليها فسحبها نحو أعماق البحر، في المنطقة الفاصلة بين العرب

واليهود بعد أن تخلّص من زوجته. الكلّ أحسّ في أعماقه بخليط من الفرحة والخوف.

كان من الصعب على النّاس نسيانها فقد ارتبط وجودها بالسحر والخرافة والحبّ.

فجأة، في اليوم الذي أقفلت فيه ثماني عشرة سنة، وجدت نفسي في البيت بعد سفرة ساعتين لأحتفل بعيد ميلادي مع أمّي وعزيز. عيد ميلادي الأوّل منذ أن دخلت إلى كلّيّة الفنون الجميلة بوهران، مقتفيًا خطوات ميمون، أخو فتنة ومَثَلي الأعلى. كان صوت نرجس قد توقّف نهائيًا بتوقيف برنامج آخر الليل في اليوم الذي توقّف فيه قلب أختي زليخة عن الخفقان. في فجر يوم الجمعة الأوّل من شهر مارس، وكان نوار اللوز يملأ الأشجار، وخوار الأبقار يتناهى إلى مسمعي من بعيد، هزّني أنين الكمان. ظننتني أحلم. قمت من فراشي فوجدت أمّي جالسة في فراشها تستمع بخوف إلى الصوت. كنت سعيدًا على غير شأن أهل القرية. قلت لأمّي التي ظلّت تؤمن أنّ نحس المهبولة هو الذي بدأ يمسّ كلّ سكّان القرية وأنّ خزرتها القاتلة كانت وراء وفاة زليخة الطيّبة.

– هي يا يمّا، المهبولة رجعت.

– أحجارها تشدّها، عيناها واغرين يا وليدي.

كانت الشمس تبذل قصارى جهدها للخروج من دكنة الغيوم، عندما سمعنا دقًّا على الباب. كنت متأكّدًا من أنّها هي. سبقتني أمّي فتحت الباب. كنت أقف وراءها وهي تحاول عبثًا أن تخبّئني بظهرها عن عينيّ المهبولة.

عندما فُتح الباب، رأيت صوتها قبل أن أراها. كان شبيهًا بصوت نرجس. سبقتْ أمّي إلى التحيّة.

- صباح الخير يمّا ميزار. دنيا هذه يا يمّا. تشتّتنا كحَبِّ الرمّان.
- صباح الخير يا بنتي. هذه هي الدنيا، شي رايح شي جاي.
ثمّ حرّكت رأسها نحوي من بعيد:
- صباح الخير ياسين. ولّيتْ راجل. الله يبعّد عنك العين القبيحة. واش راها زليخة يمّا ميزار؟
تردّدت أمّي لحظة ثم انهمرت دموعها. لم تسأل المهبولة ولكنّها خزرتني طويلاً. لبستني حالة من الاشتهاء و الحزن. رأيت عينيها الشاخصتين فيَّ وجسدها الملفوف في عباءة قبائليّة منكسرة عند الركبتين. تذكّرت حلمي الأخير، هكذا رأيت نرجس في الحلم. كانت بالهيئة نفسها والخزرة نفسها والجسد نفسه.
- هل تبقين كثيرًا في القرية؟
قالتها أمّي وهي تتمنّى في أعماقها أن تسمع ما يرضيها، ما يوحي بأنّ المهبولة لن تبقى إلاّ قليلاً.
- مانيش عارفة يا يمّا ميزار. ما نمشيش إلاّ إذا أطلق الوليّ سراحي. زعافه واعر وأنا ما نحبش نزعفه. جيتْ له لخطر عذّبني في المنام وما قدرتش نصبر عليه يا يمّا.
ثمّ ثبّتت عينيها فيّ طويلاً قبل أن تتركنا وتعود إلى مقام الوليّ. شعرت في خزرتها بدعوة مضمرة مملوءة.
كرّرتْ مرّة أخرى بدون أن تنزل بصرها عنّي:
- ما قدرتش نصبر عليه. الله غالب يا يمّا ميزار.
ثم انسحبتْ بينما كنت أنا قد دخلت إلى الدار بصمت وبقلبي آخر جمل زليخة التي تذكّرتها فجأة وهي تضحك من غبائي.
- المهبولة نعرفها مليح. راها طايحة فيك يا يمّاك. نعرفها. عندما تحبّ رجلاً تأتي به ولو كان يحطّوه في كرش يمّاه.

- يزّي ما تتمسخريش بي. كبيرة عليّ.
- المهبولة، حتى شي ما يمنعها. يا الله عاونّي في طين البؤس هذا وبركة ما تضيع في وقتك وتلعب معاي لعبة الغمّايضة.
كانت أمّي سعيدة عندما أخبرتها بأنّي عائد إلى مسكني الجامعيّ بوهران. لم تسألني، على غير عادتها، لماذا هذا السفر المستعجل وما يزال أمامي يومان. في أعماقي شعرت أنّها كانت سعيدة على غير عادتها لعودتي إلى المدينة.
بعد ظهر اليوم نفسه ودّعت أمّي. خرجت من القرية وأنا لا أعرف أصلاً لماذا جئتها؟ في منتصف الطريق نزلت من الحافلة الذاهبة إلى وهران وانتظرت، على الرصيف المعاكس، الباص الصغير الذي يصل القرية ليلاً. وعدت. كان عزف المهبولة قد بدأ. عند باب الوليّ تردّدت، في النهاية دخلت. لم يبدُ عليها أيّ انزعاج ولا أيّة مفاجأة.
تمتمتْ وهي تضع الكمان القديم جانبًا وتمضغ عشبة اللّذة التي شممت رائحتها القويّة عند مدخل باب الوليّ.
- هذا الكمان لأخي. كانت تملكه ملكة الحوفي، الحاجة طيطمة التلمسانية وهي بدورها ورثته عن أستاذها المعلّم زرّوق الذي هذّب ذوقها وأرهف حسّها بتعليمها العزف على الرباب والبيانو ثم الكمان.
- لم آتِ من أجل هذا.
- أعرف. كنت أنتظرك.
كانت جالسة وسط مقام الوليّ المفتوح على السماء، محاذية لضريحه. ممدّدة رجليها على قشرة لحاف قديم مغطّى جزئيًا بإزار أبيض. ملفوف في رداء رقيق بألوان نيليّة دافئة. متّكئة بظهرها على

شاهدة القبر. أخذتْ رشفة جديدة من ماء الزعفران وواصلت مضغها لعشبة اللّذّة.

– لماذا عدتِ إذن؟

– ألا تعرف؟ أم تتغابى؟ لا. أنت أذكى من هذا السؤال.

– بدأتُ أنساكِ.

– تكذب.

– وأنتِ ماذا تفعلين الآن؟

– أنا؟ أحاول على الأقل أن لا أكذب. مشكلة المهابيل أنّهم عاجزون عن الكذب.

– أنتِ مش مهبولة.

– ولهذا جئت حقيقة لأُشفى منك نهائيًا. عندما نحبّ طفلاً صغيرًا مثلك، تلتبس الأمومة بالعشق وعندما يلتقي الاثنان نصاب بما نعجز عن تعريفه. إمّا الحب أو الجنون. أرْواحْ قدامي. إجلس و لا تقل إنّك بدأت تنساني. لا تتعب نفسك بالكذب أنت كذلك تشتهيني وتحبّني.

– ...

جلست.

– كان يمكن أن لا تجديني في القرية. من المفروض، أنا الآن موجود بجامعة وهران.

– هل تظنّني مهبولة إلى هذا الحدّ. أنتَ لا تعرفني إذن. كنت أعرف أنّك موجود وأنّك لن تعود إلى المدينة الجامعيّة إلاّ بعد غد.

– القرية لم يبق فيها ما يفرح. أنتِ انطفأتِ، نرجس سكتت وليخة ماتت.

– إذن أنا الوحيدة التي بقيتْ حيّة من نسائك ولهذا أنت لا تستطيع نسياني. مسكينة ليخة، ذهبت في وقت مبكر. الدنيا ظالمة وقاسية. ماما ميزار تحمّلني وفاة ليخة. أعذرها. عندما نفقد حبيبًا، نبحث عن أيّ سبب ينزع عنّا عقدة الذنب التي نشعر بها عميقًا. ولكن أنا؟ نعم أنا، أحمّل من وفاة أعزّ إنسان إليّ، أخي ميمون؟ أعذرهم لأن عوالمهم ضيّقة وموصدة. لهذا لن أبيع جنوني بألف عقل، أنا مليحة كما تراني.

– فتنة، أنت لست مهبولة.

– يا سيّدي، خلّيها على الله. ما يحسّ بالنّار سوى المحروق بها.

رأيت في عينيها دمعات تتشقّق مثل التربة اليابسة وتستعصي على النزول. لأوّل مرّة، ومنذ زمن بعيد، أنطق باسمها الحقيقيّ، فتنة. كلمة المهبولة كانت كافية لتحيل بسهولة أكثر إليها.

– إذا رأيتني بقلبك، طبعًا، لست مهبولة. بعينك، فالعين خادعة. خذ شويّة من هذه العشبة.

– ذوّقتِها لي زمان، مُرّة ورائحتها قويّة.

– رأيك سيتغيّر حتمًا. خذ. هي مُرّة على لسان الميّت، وأنت كلّ ما فيك حيّ. الزمن لا يغيّر البشر فقط ولكن الأذواق كذلك. جرّب وقل لي رأيك.

مضغت قليلاً. بدت لي ثقيلة، ثم وضعت العشبة تحت لساني فنسيت المرارة وشعرت بنفسي أكثر خفّة وأكثر قربًا من فتنة.

عندما قامت من مكانها كان القمر قد اخترق كثافة سعفات النخلة العملاقة التي تخرج من صدر القبر والتي تغطّي ضريح الوليّ. انسدل الرداء النيليّ من على كتفيها مبرزًا جسدًا نحاسيًا

مصقولاً. لأوّل مرّة أشتهي فعلاً عري امرأة. انعكست حركة أضواء الشمعات على جسدها الهارب مثل نجمة محروقة، راسمة عليه تكسّرات عديدة من الظلّ. الشمعات الأربع المنصوبة في زوايا المقام كانت تضيء جسدها بكامله وتعطيه لونًا صافيًا.

– أنا أعرف أنّك تتساءل الآن ما الذي جاء بهذه المرأة التي تكبرني بأكثر من عشر سنوات. أنت لا تصدّق أنّك أنت الذي جئت بي إلى هذا المكان.

كانت تقول ما كان يعبر قلبي من كلمات تتهاوى كالنوارس المقتولة.

– أنا يئست من رؤيتك، فعوّدت نفسي على غيابك الدائم.

– مرّة أخرى تكذب. وهذه المرّة على نفسك. كلّما حاولنا أن ننسى بالغياب، ازددنا تشبّثًا بمن نحبّ. شيء واحد حاول أن لا ترتكبه في حياتك، قبل أن تحاول النسيان، إشبع بمن كنت تحبّ حتى لا تحمله معك في عزلتك جثّة تنغص عليك حياتك.

– تتحدّثين عن الأمور كمن يتحدّث عن قطعة رصاصيّة باردة يشكّلها كما يريد. لو كنّا نستطيع أن نشبع من إنسان، ما تركناه.

– أنا لم أقل هذا. أنا قلت الأفضل أن لا نغادر إنسانًا لم نضِفْ منه كلّيّة.

– ومع ذلك. حاولت أن أنساك ولم أستطع. أنت امرأة لا نشبع منها.

– كنت متأكّدة من أنّك ستأتي. لست مجنونة بالقدر الذي ينسيني الذين أحبّهم. أنا لا أريد أن أنتحر. قلت لك جئت لأنساك. لأشفى من ألمك نهائيًا. داؤك صعب ولكنّه ليس مستحيلاً. لست فنّانة ولا كاتبة لكنّي أشعر دائمًا أنّ فيّ القليل من هبلهم، ربما

بسبب عدوى ميمون. إنّهم يعانون من شيء غامض لن يحدث أبدًا وإذا حدث فهم يخطئون التوقيت له. يعيشون دومًا عذابات الاحتمال بدون الوصول إلى النهاية.

– ولهذا هم فنّانون وإلاّ لكانوا ناسًا عاديّين لا يختلفون عن الذين نصادفهم يوميًا.

– هذه البلاد ما تستعرف لا بالعاقل ولا بالمهبول.

-Je te jure qu'ils sont dingues. Ils passent les pires des angoisses en attendant qu'un accident arrive, mais quand celui - ci arrive, c'est au moment où ils l'attendent le moins.

- J'ai déjà entendu ça de ta bouche.

-Quand on a un frère comme Mimoun, on ne peut qu'aimer les livres. C'est Virginia Woolf. Ses mémoires m'ont bouleversées. Ce n'est que l'amour et le sentiment de perte qui peuvent nous rendre fous.

– وراء الحبّ المستحيل دائمًا اللّحظات الأكثر متعة والأكثر قساوة.

– أنت منفعلة.

– لم أكن أبدًا هادئة مثلما أنا اليوم. لأوّل مرّة أعرف ماذا أريد. أنا سعيدة أنّك لي وأنّك تعطي لأنانيّتي الصغيرة بعض مبرّرات وجودها. لا يوجد في الدنيا أهم من الإحساس بأنّ هناك في زاوية ما من الكرة الأرضية من يحبّنا. بوشكين لم يكن قادرًا على احتلال قلب زوجته لوحده فانتحر بشكل دونكشوتي. ماياكوفسكي، أحبّ سيّدة المسرح فيرونيكا بولنسكايا الرهيفة مثل حلم ولكنّها كانت لغيره، فوضع المسدّس على صدغه الأيمن ثم ضغط على الزناد وهو يكاد يمزح مثل طفل. كانت فيرونيكا تظنّه يؤدّي إحدى

خرجاته المعتادة. ثم فجأة صارت اللّعبة حقيقة مرّة. عندما تأكّد لها أنّه كان جادًا وأنّه دخل حلبة الموت مثل أيّ متادور مجنون، وضعت رأسها بين يديها، أغمضت عينيها ثم حاولت أن تقنع نفسها أنّ ما كان يحدث أمامها هو مجرّد كابوس سخيف. المؤرّخون لم يجدوا وسيلة أضمن سوى طمس أصدق لحظة مارسها ماياكوفسكي ضدّ نفسه خوفًا من سقوط الكذبة الكبيرة التي تقول إنّ الثوريّ عندما يحبّ يصير إنسانًا عاديًا. فانسون فان غوخ، الرجل الظلّ الذي قتله الحبّ المستحيل، عشق أورسولا فذهبت نحو غيره وظل يشهق حاملاً جرحه بين يديه كالحمامة ويئن: لماذا في نهاية المطاف لا تشتهي المرأة إلاّ من يكذب عليها؟ وأحبّ مارغو فكادت تنتحر من أجله وعندما صار قريبًا من فراشها لعنته ثم التفتت نحو أقاصي بحر الشمال ولم تعره أيّ انتباه قبل أن ينزع أذنه ويهديها لأقرب مومس في مدينة آرل لينتحر بعدها بمدّة قصيرة. أشعر أحيانًا أنّ في الانتحار لغة مبهورة بالشطط والخوف واللّذة، تقول الاستثناء والمستحيل. رغبة باطنيّة وعميقة تجاوز الاعتيادي والمكرور . C'est le vulgaire du quotidien qui nous torture le plus . تصور رجلاً عظيمًا مثل فان غوخ لم يبع في حياته إلاّ لوحة واحدة: الدوالي الحمر Les vignes rouges أستطيع أن أعدّ لك الأمثلة حتى الصباح. في البذرة من الموت. وكأنّك عندما تحبّ تضع أوّل خطوة في القبر ثمّ تمضي بقيّة العمر تحاول أن تحذر من الانزلاق نحو الحفرة بالرّجل المتبقية. فرجينيا وولف كانت مهبولة كما حالتي، أحببتها لأني وجدت في مذكّراتها بعضًا من الجنون الذي يعتريني كلّما انعزلت وتذكّرت الذين أحبّهم ولم أشبع منهم. قراءتي لها حسّستني بصغر الحياة

ومحدوديّتها. لم يكن أمامها إلاّ أن تذهب هي نحو الموت وتختار نهايتها في الماء. هي سيّدة الماء. سيظلّ الرواة الكئيبون يقولون عنها إنّها كانت مجنونة وستظلّ هي الأصدق في خياراتها. فنّانونا لا ينتحرون لأنّ أنانيّتهم تفسد عليهم القدرة على الحبّ. الحبّ يتطلّب قدرًا كبيرًا من الشهامة غير متوفّرة فيهم.

– قلت لك، أنتِ تغلقين على نفسك بالستائر الأكثر سوادًا والأكثر سمكًا.

– عرفت أناسًا كثيرين ولكنّي ما زلت في حاجة إلى من يهزّني بعمق، من يشعرني أنّي لست شيئه ولكن حبيبته التي يخاف عليها. ربّما لأنّك تشبه ميمون الذي فقدته وأنا أشبه نرجسك أو ليخة ولهذا جئتك قبل أن أندفن نهائيًّا.

– نرجس. هي كذلك صمتت منذ أن ماتت ليخة.

– الصدفة تسير أحيانًا بتوقيت القلوب. أما زلت تكتب لها الرسائل؟

– منذ الرسالة الخمسين توقّفت عن بعث رسائلي ولم أتوقّف عن الكتابة. أشعر أحيانًا أنّي أكتب لها لتفاديها وعندما أقرأ ما أكتبه لطيّه ووضعه في صندوق البريد، لا أرى إلاّ وجهك، فأحتفظ به.

– أنا كذلك لم أعد أفهم نفسي. جئت لأخلّصك منّي وأخلّص نفسي منك. كنتُ في وهران. الرجل الذي طلب يدي من ميمون لم يتوقّف أبدًا عن إصراره. حزن معنا سنة بكاملها ثم عاد إلى طلباته باتّجاه أمّي قبل وفاتها في العام الماضي ثم حزن معي وعاد ليواجهني برغبته في الزواج منّي. فكّرت، اليوم تعبت ولم أعد أمانع. حتى شروطي المتواضعة زادت تضاؤلاً، لم أعد أطلب الشيء الكثير من عاشقي سوى أن يخاف عليّ قليلاً وأن يملأ معي

وحشيّة المكان. أنت لا تعرف ما معنى أن تظلّ وحيدًا. الرجل يملك مقهى شعبيًّا بأكبر سوق عربيّة بأمستردام. يستقبل الشيوخ وفنّاني الراي العابرين نحو المدينة. قال لي أنتِ أولى. مخّه تجاري ولكنّه طيّب. ثم... لم يعد لي أحد أتكئ عليه. لقد صرت وحيدة وسط هذا القفر الذي لا شيء فيه يوحي أنّه وطن، وهشّة مثل قصبة. سيرحل إلى أمستردام ووعدته أن أرافقه إلى هناك هذه المرّة. رجل مولع بهبلي. قال لي لن تصيري لأيّ أحد، ستعيشين بعزفك. أحيانًا أصدّقه وأخرى أقول إنّه يكذب، لكن اليوم، بعد أن فقدت أمّي، لم يعد لديّ ما أخسره. أفهمت لماذا جئت إليك.

لا أريد أن أرحل بك في ذاكرتي كجثّة. تكفيني الجثث التي أجرجرها ورائي. أريد أن أحبّك كما لم أحبّك طوال حياتي لا لشيء سوى لأتمكّن من التخلّص منك بأقلّ قدر ممكن من الخسارة. وإذا قُدّر لي أن أنتحر يأسًا، سيكون وجهك آخر صورة أغمض عينيّ عليها. أصعب المتاعب أن نرحل برجل لم نشبع منه. الكثير من رجالنا ونسائنا يعيشون الحالة داخل فقاعة من الكذب. مع الزمن يتعوّدون على ذلك، فتتحوّل اللّذة إلى فعل دماغي بحت لا دور للجسد فيه و لهذا ينسحبون من الحياة وهم عطاشى.

كان جسدها يزداد اتّقادًا. وضعتْ على رأس لسانها قليلاً من عشبة اللّذّة ثمّ تركته داخل فمي. قبّلتني طويلاً. شعرت بحرارة شفتيها وبلسانها وهو يوقظ مدافني الصغيرة وببعض المرارة اللّذيذة. ثم بدأت أحسّ بحلاوة ما حتى غابت مرارة النبتة نهائيًّا وانطفأت رائحتها القويّة. إلى اليوم لا أعرف اسم تلك النبتة التي وضعتها في فمي ولا من أين كانت تأتي بها.

سألتني وهي تحاول أن تتخلّص نهائيًّا من الرداء النيليّ:

– هل تشعر بالمرارة؟

– لا.

أدخلتْ رأسها في صدري. قبضتُ على خصرها بقوّة وسحبتها أكثر باتجاهي. شعرت بقوّتي وبهشاشة هذا الجسد الذي بدأ فجأة يتحوّل إلى جنّة.

ضحكتْ. ونظرتْ إلى عينيّ بقوّة. لأوّل مرّة أجد الشجاعة لأواجهها بالخزرة نفسها. بدت لي خطوطها تحت وطأة الشموع غميقة وخجولة. تمتمت بثقل:

– والله كبرتَ وزيانيت وصرتَ كالنخلة. آه يا يمّاك لو كان جيت شويّة أكبر، نوريك شكون أنا. نِغْمي كلّ نساء الدنيا من أجلك حتى ما يشوفك غيري؟

لم أردّ عليها. كنت منهمكًا في التلاشي على هذا الجسد الذي كان يتضاءل تحت حنين الشمعات وارتعاشاتها المتتالية. فجأة رأيت شاهدة الوليّ الصالح. قبضتني رعشة من أخمص القدم ومن القلب أعادتني إلى خوفي الطفوليّ الأوّل. شعرت فجأة بالبرودة.

تمتمتُ في أذنها اليسرى:

– والوليّ الصالح يا فتنة؟

– لا أحد من أهل القرية يملك الشجاعة للدخول إلى هذا المكان. يظنّونني مصروعة وأملك خاصّية الحديث مع الأموات وأجامع الوليّ الذي يستيقظ من موته من أجلي، ينام معي، يغتسل ثم يعود إلى قبره. لهذا كلّ زوّار هذا المكان يخافون الدخول عليّ.

– أنا دخلت.

– لأنّك تحبّني. هذا كلّ ما في الأمر.

– مجنونة؟

– العاقل في هذه البلاد هو المهبول. جنوني هو الوحيد الذي يسمح الآن أن أجالسك بدون خوف. وإلاّ لكنت قد قُتِلْتُ.

ذؤابات الشمعات تزداد ارتعاشًا وظلّ جسدها يتلوّى أكثر فأكثر. الضوء كذلك عندما يبلغ أقصى درجات الصفاء يزداد هشاشة مثلنا تمامًا.

عندما تمدّدتُ على ظهري وتزحلقتْ هي على صدري، كانت العشبات التي تناولتها وكؤوس ماء الزعفران قد أوصلتني إلى أقصى درجات الشوق. بدأتْ تندفن شيئًا فشيئًا وتتأوّه كمن يتألّم. كنت مشتعلاً، أشعر بالتصلّبات ومقاومات الجسد. التصقت بي أكثر وكأنّها تريد أن تشقّ الصدر لتقيم فيه. عندما رضعت حلمة النهدين وتركتني بهدوء أتهاوى بينهما كورقة ذابلة سمعت نحيبًا يأتي من بعيد، ثمّ... سمعت صرخة جافّة. أحسست بالحرارة تزداد أكثر وبانقباضات في كامل جسدها. صرختها كانت مكتومة وأنفاسها زادت تقطّعًا. لم تتوقّف بل واصلت في الاندفان المستميت. الحرارة تزداد وضياعي هذه المرّة صار بدون رجعة.

تماديت في الدخول إلى جسدها واحتفظت بأسئلة الألم، خوف استغبائي والضحك من سخافتي. عندما فتحت عينيّ رأيت من بين خصلات شعرها القمحيّ الذي كان يغطّي وجهي وسعفات النخلة الوحيدة، نجومًا ناصعة البياض في سماء مطلقة السواد. حتى الكلاب توقّفت عن النباح فجأة. لم أعد أسمع شيئًا إلاّ دقّات القلب وصوت الوحدة وأنين اللذّة وأمواج الشطّ التي كانت تتكسّر عند حدود الصخور الرومانيّة القديمة التي لم تكن بعيدة عن مقام الوليّ.

تمدّدت على ظهرها بجانبي. فتحت عينيها. أتذكّر أنّها ابتسمت

كطفل يكتشف فجأة أنّه سعيد.

سألتني:

– هل أنت سعيد.

– خائف.

– منّي؟

– من ذهابك. أخشى أن لا أتمكّن من نسيانك كما تشتهين.

– نحن الآن مع بعض وهذا هو المهمّ. ألم تتألّم؟

– لا. أو لا أدري. شعرت بشيء غريب هو مزيج من الحبّ والارتباك.

– أنت خائف من أن تكون قد أزلت بكارتي. يا حبيبي أنت لم تغتصبني، أنت لا تدري كم أسعدتني. ومن بعد؟ حتى ولو فعلتَ، لن يحاسبك أحد. مهبولة. جئتُ إليك بمحض إرادتي. أردت أن أكون استثنائيّة معك ولو لليلة واحدة قد نموت ونحن نتذكّرها. عندما نسافر للمرّة الأخيرة لا نأخذ الحقائب فقط ولكن الروائح والظلال والحميميّات والتفاصيل الصغيرة. ثمّ مدّت يدها إلى خرقة بيضاء مثلما يحدث في الأعراس وقالت لي: أغمض عينيك وما تشوفش. ففعلت. وعندما سمحتْ لي بفتحهما، قالت لي، إرفع رأسك وعندما رفعته رأيت على إحدى سعفات النخلة، الخرقة معلّقة مع خرق أخرى لأشخاص آخرين وعليها بقع الدم.

– لم تجيبيني. الوليّ ماذا يقول؟

– لقد صار غبارًا ولم يعد يهتمّ بأيّ شيء. لو كان باستطاعته لقام من قبره وطلب حقّه من عشبة اللذّة أو ماء الزعفران ولحم الجسد.

الغريب، لم أتذكّر الولي إلاّ الآن، أنا الذي كان يخيفني حديث

نساء القرية عن كراماته. عشبة اللّذّة ورائحة الليل والجسد المضمّخ برائحة أوّل عطر أهداه لها أخوها L'air du temps ، تفاصيل أنستني المكان والزمن الذي كنت فيه وحالة الخوف الطفوليّ.

– ربّما كان يرانا؟

لا أدري إذا قلتها بعفويّة أم بخوف ضامر لأبرّئ ذمّتي أمام قبر كان سماعه وحده يؤرّقني ليلة بكاملها.

– لا بد أن يكون سعيدًا. فقد مارسنا حالة عشق قد لا تتكرّر في حضرته. الناس الذين يأتونه عادة للشكوى ولإرهاقه. نحن لم نطلب منه شيئًا سوى أن ينصت إلى دهشتنا وإلى هذه الجنّة المتدفّقة فينا.

– أحبّك ولا أريد أن أنساك.

– لا أدري ما الذي يذكّرني الآن بأمّي؟ أعتقد أنّ الذي وقع لها يقع لي الآن. أبي كان متزوجًا بامرأة طيّبة هي التي أنجب منها أخي ميمون وعندما ماتت وجد نفسه وحيدًا. في أحد الأعراس رأى أمّي لأوّل مرّة، لم يستطع أن يُنزل عينيه من على وجهها حتى تزوّجها فهمد. كانت هي تعشقه بحركات جسدها كالفراشة. على المرأة التي تحبّ في بلادنا، أن تجد تعبيراتها الخفيّة وأن تضع حجابها لترى من تريد بدون أن يراها أحد. كان هو يعشقها علانية ويقسم أمام جميع الناس أنّه سيبيع حصانه وسلاحه وكلّ ما يملك ليظفر بنجمة. أمّي كان اسمها نجمة. كانت ممتلئة بالحياة. جدّي، تقول أمّي، كان يخاف عليها من أيادي الحسد والمنكر ومن بغضاء كلام الناس. عندما خطبها شابّ من القرية قال له هي لك، خذها. قال: البنت كبرت، رجل في سنّها أفضل من فضيحة هجّال حتى ولو ماتت زوجته. عندما سمع أبي بالقصة، جنّ

جنونه. رابط أيامًا متتالية ليس بعيدًا عن الدار، وعندما رآها خيّرها بين حلّين، إما الانتحار المعلن أو الاختطاف. قالت له: اختطفني. اختطفها وتزوّجها. وبعد سنة، عندما ذهب إلى جدّي. قالت له يمّا نجمة لا تذهب سيقتلك. إصبر سنة أخرى على الأقلّ. قال لها إذا صبرت سنة سأكون في عين والدك جبانًا. ومشى على حصانه. هو في الأوّل ووراءه أمّي. عندما وصل كان جدّي ينتظره بسلاحه. لم يكلّم أبي مطلقًا ولكنّه أنزل أمّي من الحصان. سألها سؤالاً واحدًا ثمّ أغلق الملف نهائيًا: هل تزوّجتما كما نصّ عليه الكتاب؟ قالت نعم. هل أجبرك على شيء؟ قالت ذهبت معه برضاي وأنا اليوم حامل منه. كانت في الظاهر تبدو باردة كحجرة يابسة ولكنّها في داخلها كانت ترتعش كقصبة الوديان. لم يقل شيئًا. ذبح كبشًا وقال هذا لبنت بنتي فتنة وكأنّه كان يعرف بأن أمّي سترزق بنتًا. وعندما ولدتُ قالت أمّي نسمّيها خيرة، على أمّي. قال أبي والله ما يكون. لقد رأيت طيفًا ينصحني بتسميتها فتنة لا أمّك ولا أمّي. قال رأيت أباك يقول لي ألم تعدني بفتنة؟ قلتُ بلى. قال: فِ بوعدك. قلت له نعم. لم يكن أمام أمّي إلاّ أن قبلت. لا أحد يستطيع أن يناهض الطيف. الاسم لم يكن شائعًا في القرية. حتى الإمام لم يكن راضيًا. قال الفتنة من الافتتان ولا يجوز أن تُسمّى امرأة بما يغضب الله. قال أبي. طز؟ الله هبلتوه وردّيتوه مجنون كيفكم. صغرتوه حتى صار ما عندو ما يدير غير يحرس في تفاهاتنا اليوميّة وانزلاقاتنا المحتملة. سمّاني فتنة ولم يأبه لكلام الإمام ولا الناس المحيطين به.

كانت حبيبات العرق التي تنضح من جسدها تمتصّ ألوان شعلة الشمعات التي بدأت تتآكل بهدوء وتعطيه إشعاعات نحاسيّة كلوحة قيصريّة. تساءلتُ وأنا مأسور بالحالة: هل هذه المرأة كانت لي

بكلّها، لي وحدي وكلّ هذا الزمن؟ ثلاث ساعات من الحبّ كالحلازين؟

– أتزيد يا سيّدي؟

– طبعًا.

– من واجبي يا سيّدي أن أقول لك أن ذلك مضرّ بالصحّة.

– متى كان الحبّ...

عندما فتحت عينيّ كانت المضيفة تقف عند رأسي بلطافتها المعتادة. كانت مضبّبة كظلّ ولكنّي رأيت ابتسامتها وهي ترتسم على كامل محيّاها. أخذت منها كأسًا أخرى وأغمضت عينيّ. وغمغمت.

– أنا كذلك أريد أن أنسى.

أخذتني غفوة. انحدرت أكثر نحو فتنة. نمت على ركبتها العارية. استيقظت على الساعة الخامسة صباحًا على أنين عزفها. وجدتها تنظر إلى وجهي بحنان. قبّلتني في فمي بحرارة وامتصّت شفتيّ كمن يرضع حلمة نهد مراهقة.

– ألم تنامي؟

– لا كنت ساهرة عليك، أراك وأنت تهتز وتغفو. تبتسم وتحزن، ترتعش كالعصفور ثم تهدأ. فيك الشيء الكثير من الأطفال. كم أشتاق أن أبقى معك أطول مدّة ممكنة. أتأمّل وجهك الصافي وأغبط المرأة التي ستختارها لحياتك، كم ستكون سعيدة. أنا هكذا، أحيانًا لا أجد ما أملأ به قلبي إلاّ التخراف. أريد أن أنسى كلّ شيء ولا أبقيك إلاّ أنت. يا الله نروح للبحر. عزفت مبكرًا على غير العادة لأتخلّص من هذا الدين اليوميّ. عزفي لهذا النشيد الأندلسيّ الضائع، صار كالصلاة عليّ أداؤه قبل النّاس

جميعًا. أشعر بأنّ هناك من ينتظرني دائمًا، لا ينام أو يغادر بيته إلاّ إذا سمعني. يحبونّني لأنّني جزؤهم الخفيّ، ويكرهونني لأنّي طالعهم الأسود ولكنّي توقيتهم اليوميّ الذي لا يمكنهم التخلّص منه.

شربنا ماءً باردًا وأكلنا تمرًا معسّلاً وقليلاً من الحلوى التركيّة وخرجنا من مقام الوليّ الذي كانت الخرقة الملطّخة بالدم، كلّما رفعت رأسي، تذكّرني باللّحظة الشاقّة لمحنة الحبّ. خرجنا، في يدها فوطتها الزرقاء وكمنجتها وعلى رأسها منديلها القبائليّ الذي ورثته من أمّها.

عند باب الوليّ وضعت في يدي رسالة مغلقة.

– كنت أريد أن أرسلها لك من المطار لكنّي خفت أن لا تصلك. ثم قلت من أمستردام ولكنّي هذه المرّة كذلك خفت من ضياعها. احتفظ بها ولا تقرأها إلاّ عندما أغادر هذا المكان. الأحرف أحيانًا تدفّئنا كجسد الذي نهوى. الإنسان عندما يعشق بصدق، يقبل على الموت بشهيّة مثلما يقبل على الحياة. يختلط عليه الأمران، لا يعرف أين يبدأ الأوّل وأين ينتهي الثاني. احتفظ بها للذكرى. تذكّر دائمًا أنّي امرأة أحبّتك هكذا. وقد أظلّ طويلاً الوحيدة التي لم تطلب منك شيئًا. حتى قلبك هو ملكك. عدني فقط، إذا كُتب لك أن تكبر وتعبر البحر، أن تزورني إذا كنتُ حيّة. سأرتكب معك الحماقات نفسها ولو كنت أمًّا لعشرين طفلاً. وإذا عثرتَ عليَّ وقد متُّ، ضع على قبري أو على أيّ قبر يستهويك باقة نرجس باللون الذي تشتهي وتذكّرني وقل في خاطرك على الأقلّ، تلك امرأتي التي كانت تحبّني.

– سأتبعك ذات يوم.

كنت جادًّا ولكنّي في الوقت نفسه كنت في أعماقي أقاوم الكلمات التي كانت تتكالب في داخلي: إبقي أرجوك. كنت أشعر بشيء مبتور. كيف تفتح فتنة كلّ هذه الفجوات عن آخرها دفعة واحدة ثم تغلقها فجأة في وجهي كمن يصفع الأبواب في وجه إنسان لا يعرفه.

بدأت حبيبات المطر تسقط. لم تكن باردة في هذا الفصل من السنة.

– الحالة تبدّلت بسرعة. عندما كنّا في مقام الوليّ رأيت نجومًا ساطعة البياض.

– الله دائمًا يستجيب لي. تمنّيت أن لا يكسر ليلتنا بالمطر. مثل هذه الأمطار تغسل القلوب القاسحة وتطهّر الأمكنة من القبح.

كانت رائحة الأرض تشبه عطرًا غريبًا، هو نفس العطر الذي نرحل به عندما نضطرّ إلى مغادرة المكان. للأمكنة رائحة. من فرط عشقها للبحر كانت دائمًا تكرّر على مسمعي أمنيتها الكبيرة أن تدفن في عمق مائه شرط أن لا تأكلها الأسماك وأن تنزل بهدوء نحو القاع. من الآن حتى ذلك الوقت الدنيا لنا كما كانت تقول. عندما وصلنا إلى الحافة كان المطر قد توقّف وتحوّل إلى قطرات خفيفة من الرذاذ الدافئ. كانت هي ملفوفة في فوطة زرقاء معطّرة. مدّت يدها نحوي وأعطتني عقدة الفوطة المحاطة بجسدها ثم قالت بصوت طفوليّ: إسحب. كنت أسحب وهي تدور في مكانها حتى صارت كلّ الفوطة بيدي وجسدها بكامل عريه مثلما رأيته لأوّل مرّة أمام ضريح الوليّ الصالح. ثم التصقت بي كمن يخاف من موت ينتظره في زاوية ما.

– أنت تقول الآن واش حابّة عندي هاذ المهبولة. لا شيء. أنت

فقط. وحدهم المهابيل لا يطلبون لحبّهم مقابلاً. يا يمّاك، لو كان جا عندي غير شوي عقل ما نطلقكش، عندك الزهر. ما عليهش يكفيني أني رأيتك وأحببتك لليلة بكاملها وسلّمتك ما احتفظت به لرجل يعشقني و يحسّسني أنّي امرأة تستحقّ أن تعشق.

– أنا كذلك أحبّك جدًّا.

– وَاوْ؟ إحذر، هذه الكلمة كبيرة، لن يلحقك من ورائها إلاّ العذاب والأذى والتيه. تذكّر أنّك عندما تقبل بالضياع في هذه الدنيا وتتخلّى عن كلّ مطالبك تجاهها فهذا يعني أنّك مصاب بهذا المرض. على الحبّ أن يعلّمك أن تعيش حقّك فقط في الحياة ولا تضيّع الجزء الأكثر جنونًا فيك، فهو أجمل ما في الإنسان Ne le gache jamais s'il te plait لا شيء أثمن من هذه اللحظة من الزوغان التي تشعر فيها أنّك لا تنتمي إلاّ لنفسك وأنّ المحيط بكلّ ضجيجه وتفاصيله التافهة لا يعنيك مطلقًا. أليس الجنون نعمة في عالم مثل عالمنا؟

– أحبّك. قولي لي أحبّك.

– أتشكّ؟

– أريد أن أسمعها.

– أنتَ هنا. هنا بالضبط.

وتأخذ رؤوس أصابعي بنعومة وتغرسها في صدرها، بين نهديها مع ميل خفيف باتجاه القلب.

– ...

– أنا ما نحبّكش. أنا ممحونة بك يا يمّاك. عندما نمت معك جسدي كلّه كان يسمعك. لكن بعد قليل لن أكون هنا وسأكون لغيرك. أنت شابّ أمامك الحياة كلّها أمّا أنا مثلما قلت لك ستمرّ

عليّ مرسيديس سوداء لتأخذني من باب الوليّ. وسأرحل مع رجلي إلى أمستردام. يقال إنّها مدينة جميلة وهادئة ولكن أمطارها باردة. جئتك وأنا في حالة إخصاب وأشعر أنّي حبلى بطفولتك، إذا كان طفلاً سأسمّيه باسمك: ياسين وإذا كانت طفلة سأسمّيها رحمة على اسم أختي التي ماتت في اليوم السابع من ميلادها وسأعلّمها كلّ ما علّمه لي ميمون. أخي كان رجلاً عظيمًا ويستحقّ أن نُجنَّ من أجله. هو لم يطلب الشيء الكثير من الحياة وهي لم تبخل عليه. الحبّ شهامة كذلك. خلّيني نروح للبحر الآن، السيّارة لن تتأخّر كثيرًا والوقت راح بسرعة ولا يمكنني أن أذهب بدون أن أودّع البحر. أريدك أن تراني مع الفجر مثلما ترى مدينة للمرّة الأخيرة لتتذكّرني بكلّ تفاصيلي عندما أنطفئ. تعرف يا ياسين ملامسك على جسدي هي الآن مثل العلامات البدائيّة، لا أحد يملك سرّ أبجديّاتها المقفلة غيرنا. ستظلّ هناك حتى تنتهي معي وتتحلّل على تربة غريبة.

فتنة كانت تؤلمني وتنحت أحاسيسي بالنّار والماء. كانت تخرج بقساوة من ضلعي المنكسر. شعرت بقوّة خزرتها في ظلمة الفجر. كان كفّها دافئًا وجسدها يتهيّأ للبحر. لامستْ شفتاها شفتيّ. دافئتين كانتا مثل حلم طفوليّ، ثم وشوشت في أذني:

– يا يمّاك ما أحلاك. جسدك القوي يؤهّلك لأن تكون زوجًا فاشلاً وعاشقًا رائعًا. لا تقتل حياتك بزواج فاشل. حبْ حتى تشبع من الدنيا وبعدها تزوّج لتكون وفيًّا. أمّا أنا فلا أطالبك بالشيء الكثير، أحبّني فقط قدر ما تستطيع، وسأُجنُّ بك وأكون لك كلّما اشتهيتني. أَترُكُ لك كمنجة ميمون والسلالة التي سبقته، الحاجة طيطما ومعلّمها الشيخ زرّوق وغيرهما. حطّها في عينيك لأنّها

غالية عليّ. لا أريد أن أيتّمها. فقد صُنعت من صنوبر هذه الأرض. وأريدها أن تظلّ فيها.

ثمّ دخلتْ إلى عمق البحر وهي تحوّط خصرها المنحوت بالفولار المطرّز بالألوان النّاريّة، بدون أن تتحسّس دفء الماء. التفتت نحوي وهي تضحك:

– تعرف يا ياسين، نحن هكذا. لا نترك وطنًا إلاّ لنتزوّج قبرًا في المنفى. هكذا كان يقول أخي. أعتقد اليوم أنّه كان محقًّا عندما رفض أن يغادر أرضه. هو على الأقلّ كانت له أرض، يعيد تشكيلها كلّما صعبت عليه الدنيا وانغلقت سبله. أنا أحسّ نفسي بين السماء والأرض ولا شيء يشدّني. كلّما اشتقتَ لي دير كما كان يديرُ العشّاق بكري، أحرق شعرة من شعرات رأسي وسأحضر أمامك في اللحظة ذاتها وإذا أردت أن تكون جادًّا حقيقة، أكتب لي رسالة وضعها في زجاجة ثم ارم بها في عمق البحر ربّما صادفت مجنونًا مثلنا يوصلها إليّ أو يتكفّل هو بالردّ عليك حتى لا نفقد نبض علاقتنا بالحياة.

– سأفعل. ولكنّكِ مازلتِ هنا وأنا سعيد جدًّا.

– بعد قليل لن أكون. سيهدأ كلّ شيء ويتعوّد سكّان البلدة على الصمت والسكينة.

– لا ما فهمتيش مليح. أنتِ هنا. هنا بالضبط.

وأخذتُ شاهدي ووجّهتُه نحو القلب وضغطتُ على صدري. قلتها وأنا لا أدري مقدار المخاطرة التي استدرجت نفسي نحوها. مهاوي اللّعبة كانت بدون حدود. كنت أظنّ أنّ العمليّة عبثيّة تتعلّق بلغة اعتياديّة يكرّرها الذين لا يتقنون شيئًا غيرها.

– تعرف يا حبيبي، إنّنا نسير نحو نهايات تراجيديّة ونجد لذّة

كبيرة للركض نحو موت لا نملك حياله الشيء الكثير. هذا هو قدرنا. خويا ميمون كان على حقّ عندما قال: نحن هكذا، لا نترك وطنًا إلاّ لنتزوّج قبرًا في المنفى. لكنّ الموت الذي سبق المنفى إلى أخي، طالني بعنف الحاقد. ما عليهش يكفيني أنّي رأيتك وسرقت ليلة بكاملها من هذا القدر الشنيع. ولو يُقدّر لي أن أبعث مرة أخرى لن أتردّد ثانية واحدة في ارتكاب الحماقة الجميلة نفسها.

ثم غابت واندفنت في عمق موجة هاربة، متفادية أن تقترح عليّ الدخول معها. كانت تنزلق مثل حوتة متيقّنة من نفسها ومن المكان الذي كانت تعبره. لم تلتفت وراءها حتى غابت كلّيّة. كان البحر هادئًا، أملس مثل الزيت أو كمرآة ساحرة كما كان يحلو لها أن تشبّهه عندما يكون في مثل هذه الحالات من الصفاء. بعد لحظات لم يبق أمامي إلاّ الكمان والرسالة والفوطة الزرقاء كشواهد على مرورها وإلاّ لقلت إنّ ما حدث لي هو أجمل حلم ينتظره العاشق. لم أعد أسمع إلاّ خشخشة تكسّر المياه على جسدها. ثم لا شيء، ثم فجأة بدأ الضباب ينزل على البحر.

انتظرت طويلاً عودتها وفي قلبي خوف غامض، ثمّ نزعت لباسي ودخلت البحر وأنا أصرخ وأبكي، خائف من أن يكون البحر قد ابتلعها: فتنة؟ فتنة؟ فتنة، أرجوك عودي، لا تكوني مهبولة؟ تذكّرت فجأة قصّة المرأة التي عشقتْها وظلت مولعة بها: فرجينيا وولف. لعنتُها طويلاً وأنا أركض على حافة البحر: الله يعطيك موتة أخرى يا فرجينيا وولف، أنتِ اللي دخّلتِ لها في الرّأس فكرة الانتحار داخل الماء.

لم أسمع إلاّ رجع الصوت وكلماتها الأخيرة التي كانت دائمًا

تكررّها تأتيني من ناحية صخرة الصيّادين السبعة:

- Ecoute, moi aussi je t'aime plus que tout au monde, mais quoi qu'il en soit, ne gâche jamais la partie folle en toi, elle est la plus juste et la plus humaine.

كانت ملامح الفجر قد بدأت تتّضح. لم أستفق إلاّ عندما سمعت هدير سيّارة المرسيديس السوداء وهي تتوقّف عند باب الوليّ الذي خرج منه ظلّ منكسر، غطّاه الضباب قليلاً، عرفت أو تخيّلت أنّها هي. فتنة ولا أحد غيرها. جريت عبثًا وراء السيّارة ثم عدت لآخذ الفوطة والكمان والرسالة المقفلة كحرز ثمين.

وقفتُ على الحافة. اكتشفتُ فجأة لذّة الصمت وصفاء البحر وفجاعة أن تفقد إنسانًا عزيزًا. وضعت الكمان بين الكتف والذقن كما علّمتني، شعرت بظلّها ورائي وهي تضبط وقفتي، تحسّست برؤوس أصابعي الخيوط الباردة ثمّ بدأت أعزف لفتنة، للبحر وللأموات فقط، بقايا النشيد الأندلسيّ الحزين وموسيقى الليل الصغيرة كما تعلّمتهما منها لأوّل مرّة. منذ ذلك اليوم أصبحت أعزف كثيرًا وأكتب قليلاً قبل أن أتوقّف نهائيًا عن الكتابة لنرجس وكلّما انتابني الحنين إلى فتنة، أقف على حافة البحر الذي غطّاها للمرّة الأخيرة، أحسب موجاته المتعاقبة وأستمع إلى تمزّقاتها وخشخشات الماء القادمة من الوديان الجانبيّة وارتعاشات النخلات اليتيمة. وقبل أن أغادر المكان، أنتقي أجمل زجاجة عطر فارغة من اللواتي حملتها معي إلى حافة البحر وأكثرها رهافة وأملأها بالأبجديات اليائسة التي تبدأ كلّها عادة بـ: الغالية جدًّا فتنة وتنتهي بـ: ياسين الذي يتمنّى لو لم يحبّك. ثم أدخل إلى عمق البحر وأندفن بين الأمواج التي سرقتها منّي في ذلك الفجر البارد للمرّة الأخيرة حتى أصل إلى صخرة الصيّادين السبعة وهناك أطوّح

بأقصى قوّة ممكنة بالزجاجة بعيدًا وأعود. الصخرة فيها بعض السحر، يقولون إنّ سبعة صيّادين عندما عادوا من غياب دام شهورًا في أعماق البحار، وجدوا الأمراض قد فتكت بنسائهم. بكوا طويلاً حالة الفقدان ثم في الفجر الأوّل توجّهوا إلى البحر وثقبوا سفينتهم وتركوها تغرق يومًا بكامله. إلى اليوم ما تزال تنسج حولهم آلاف الحكايات.

عندما غابت ظلمة الفجر البارد وكنت ما أزال على الحافة في حالة التباس بين سفر فتنة وضياعها في عرض البحر، مرّ عليّ أحد الفلاّحين، قرأت تمتمته في عينيه:

– مسكين، حتى هو هبلته هذه المجنونة. الله يحفظنا من الخنّاس الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس.

ثمّ غاب منكّسًا رأسه كضابط قرويّ مهزوم.

كنت متأكّدًا في أعماقي أنها حيّة وأنها لم تغرق ولم تنتحر رغم حالة الحزن التي انتابتني وسكنتني قبل مجيء سيّارة المرسيديس السوداء ونزول الضباب. فكّرت في البداية أن أركب الحافلة الصباحيّة وأسافر إلى المدينة الجامعيّة، لكن بعدها عدت إلى الوليّ ونمت وأنا أتشمّم التربة التي تمدّدتْ عليها وقشرة اللّحاف والرداء النيليّ الذي كسا جسدها. كنت أعرف أنّ زيارات ضريح الوليّ لا تبدأ إلاّ مع منتصف النهار، حين تكون المهبولة نائمة. خبّأت الكمان في حقيبتي والمنشفة الزرقاء وعدت إلى البيت وأنا أقلب في أقلّ الكذبات ألمًا لأمّي. كان وجهي مثل قشرة ليمون من قلّة النّوم والسهر. قبل أن تسألني أمّي عن عودتي سبقتها إلى الكلام وأنا أقرأ الحيرة تعبر تفاصيل وجهها:

– مشيت حتّى الجامعة وولّيت. ما قدرتش. حسّيت بعياء كبير

نزل عليّ فجأة. قلت نرجع للدار خير من اللي نبقى في الجامعة.

– راك أصفر كما قشرة الرمّان. ريّح يا وليدي. احنا زهرنا في الهمّ.

أكملت نومي رغم كابوس فتنة الذي لاحقني. فقد رأيتها تغرق وهي تقهقه وأنا أبكي مثل الطفل الصغير على حافة البحر بدون أن أستطيع إنقاذها حتى امتلأ فمها بالماء. استيقظت على عويل النّاس وحركات أمّي التي كانت تشبه حركات حيوان مذعور أو امرأة يعذّبها عسر المخاض. دخلتْ عليّ بسرعة وقلق وهي تكرّر:

– المهبولة غرقت. المهبولة غرقت. كانت على حافة البحر عندما حاول الفقيه أن يبعدها عن غيّها ولكنّها لم تسمع له بتاتًا. وعندما حاول أن يدخل البحر من ورائها، منعته قوى خفيّة لم يتمكّن من معرفتها وتدقيقها. لم ينج إلاّ منديلها الملوّن الذي علّقه الفقيه على النخلة عملاً بكلام الله، أذكروا موتاكم بخير.

عند هذا قمت من فراشي مرتعشًا. المنديل كان معها؟ هل يعقل أن تكون قد غرقت؟ أنا رأيت غير الذي رآه الآخرون الذين يشتهون موتها.

قالت أمّي عندما قرأت الحيرة في وجهي:

– الرّجل قلبه كبير، فقد وضعها بنفسه في تابوت من خشب وأغلق عليها بإحكام، فقد تفسخت جثّتها بسرعة وأصبحت رائحتها كريهة. ربّي ما يرحمش العين الكريهة.

– وهل تتفسّخ جثّة الميّت في يوم بارد مثل هذا وفي البحر يا يمّا؟

– الفقيه يا وليدي الله يكثر خيره. قام باللي وصّى به الله والرسول.

- آه يا يمّا لو كان تعرفين هذا الفقيه واش يكون. سحنة بشريّة تخبّئ وحشًا.

- ما نيش عارفة واش دايرين بينك وبينه. استغفر الله يا وليدي. الرجل أعطى كلّ ما في قلبه.

بعد صلاة العصر لم يرافق جثّتها إلاّ قلّة قليلة من الناس من بينهم طفل واحد كان يبكي بصدق. حتّى الفلاّح الذي فاجأني على حافة البحر، عندما رآني بسمل وحوقل ثم انطفأ بسرعة. الفقيه كان الوحيد النشيط في مراسم الدفن. كنت متأكّدًا من أنّه في داخله كان يلعنها. فقد فاجأها ذات ليلة وهي تعزف معزوفة النشيد الأندلسيّ الحزين وموسيقى الليل الصغيرة بعد أن يئس منها وهي مربوطة. وقف وراءها استمع قليلاً وتمنّى أن يمسسها. حاذاها من ورائها، مدّ يده إلى خصرها. لم تمانع. حرّك يديه. اقترب أكثر. تحرّكت أنامله نحو النهدين بدون أن يعيق حركة يدها اليمنى التي كانت غارقة في العزف. قالت فتنة وهي تحكي لي القصة إنّها وقتها كانت في حالة انخطاف ولم تكن تحسّ بأيّ شيء ولكن فقط بظلّ يتحرّك بجانبها. لكنّه عندما استقرّ بيديه عند ملتقى الفخذين وشمّت رائحته التي تشبه رائحة الكلب، التفتت نحوه بعينين غائرتين ثمّ لوت يده بعنف حتى ضرط وصرخ بأعلى صوته، ضربته في حجره بقوّة. ظلّ يتلوّى مثل الكلب المكلوب. تقول: فكّرتُ في لحظة من اللحظات أن أنزع عضوه وأضعه له في فمه ليرتاح نهائيًا ولكنّي خفت من ارتكاب جريمة لم أكن في حاجة إليها. ملأتُ فمه بالتراب والزبل وجرجرته نحو غرفة الزوّار وتركته هناك يزأر مثل حيوان خانته فجأة قواه وعدت لأمشّط رأسي. في الصباح لم أجده. فقد غادر المكان نهائيًا. منذ ذلك اليوم أطلق عليّ دعاية مؤدّاها أنّي كنت مسكونة وشفائي مستحيل وأنّ الجنّيّ

الذي حاول إخراجه بالضرب ازداد توغّلاً في دمي وهو المتسبّب في غواياتي وهمجيّتي. وشفائي الوحيد هو الموت. مثل الكلب المصاب بداء الكلب، طالب بقتلي. من يومها لم أره حتى خرجت من هذا المكان بصحبة أمي. سكن القرية، في الجهة العليا، بعيدًا عن مقام الوليّ الصالح. أمّا أنا فلم يكن هناك من يسمع إلى الحقيقة التي كنت أملكها. سبقني، وعندنا يقال الضربة الأولى ما تنخلفش. كان عليّ أن أصمت. فشّيت غلّي فيه. عندما حكيت القصّة لأمّي قالت: حتى حنا ما بقى ما نديرو هنا. وذهبنا إلى وهران. أرأيتَ وقاحة البشر؟

في البيت لم أنم كما أردت على الرّغم من حالة التعب. فقد بقيت مرتبطًا بهذا الرّجل البشع. كنت متأكّدًا أنّ الفقيه كان يكذب. لم يكن أمامي إلاّ حلّ واحد. لقد رأيت ظلّها وهي تركب سيّارة المرسيديس السوداء التي مرّت بالقرب منّي وتوقّفت عند مدخل المقام. صحيح أنّي لم أرها ولكنّي متأكّد من أنّها كانت هي. فتنة لا تموت بهذه السهولة.

في منتصف الليل، أخرجت الكمان من حقيبتي والطورشة اليدويّة وخرجت من البيت على رؤوس أصابعي بعد أن وضعت الوسادة في مكاني وغطّيتها احتياطًا من أمّي. كان كلّ شيء هادئًا يشبه حالة الموت. كانت القرية عائمة في الظلمة ما عدا الضوء اليتيم المتسرّب من عمود النّور الوحيد بالقرب من المقام الذي دخلته كالسارق. أخرجت الكمان من غمده وبدأت أعزف موسيقى الليل الصغيرة التي تعلّمتها من فتنة.فجأة أُشعِلتْ أضواء البيوت وسمعت أقفال الأبواب وهي تُغلق من جديد أو تُفتح ويعاد غلقها للتأكّد من أنّها مغلقة بإحكام.

لست أدري من أين جاءتني تلك الشجاعة فذهبت إلى المقبرة. وأنا أحفر قبرها رأيت ظلاً يتسرّب بسرعة.

لم أتساءل كثيرًا. أنا أعرف أنه كلّما جاءت جثّة جديدة إلى المقبرة كلّما تحلّق حولها العديد من الحيوانات للظفر بقليل منها خصوصًا إذا لم تكن الجثّة مدفونة بشكل جيّد. حفرت القبر. ترابه الطريّ ساعدني كثيرًا. أخرجت الصندوق الذي بدا لي أصغر بكثير من قامة فتنة. فتحته ويداي ترتجفان. ركّزت على الجثّة. فتحت الكفن بدون صعوبة كبيرة ثم أشعلت الطورشة التي كنت أحملها معي، ففوجئت بجثّة كلب الفقيه وفي عنقه حبل مشدود بإحكام. الأكيد أن الفقيه هو الذي شنقه. ردمت الحفرة من جديد وعدت إلى البيت لأتقيّأ كلّ أمعائي ومعدتي.

في الصباح الباكر سافرت على وقع كلام ناس القرية وهم يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم رأوا المهبولة تتجوّل في الشوارع الترابيّة وتعزف أغاني الشؤم. وأنّ روحها الشرّيرة ستبقى مدّة طويلة تدور في القرية قبل أن تمّحي نهائيًا.

عند باب البيت سألتني أمّي وأنا أهمّ بتوديعها:

– سمعتَ عزف المهبولة هذه اللّيلة؟

– نعم يا يمّا سمعته جيّدًا. ألم أقل لك إنّ المهبولة لم تمتْ.

– الله يحفظنا يا وليدي من كلّ مكروه. الفقيه يقول دائمًا الأصوات الشرّيرة لا تتلاشى إلاّ بصعوبة. علينا أن نصبر قليلاً قبل أن تذوب نهائيًا مع رياح الصيف القادم.

بعد شهر، عندما عدت إلى البلدة، سألت أمّي هل توقّف عزفها قالت لا ولكنّه صار أكثر اقتضابًا. يبدو أنّ كلام الفقيه صحيح. شويّة شويّة حتى يروح نهائيًا. ظننت في البداية أنّه مجرّد

كابوس ولكنّي في الليل سمعت ما يشبه العزف. تسلّلت بهدوء. وجدت طفلاً صغيرًا كان يحاول أن يخبّئ آلة الرباب المصنوعة من خشب الصنوبر وخيوط الصيّادين وجلد الأرانب. عندما رآني لم ينذعر. كنت أعرف وجهه قليلاً.

قال:

– عندما رأيتك تنزل اليوم من الحافلة، عرفت أنّك ستأتي إلى هذا المكان.

– من تكون أنت؟

– لا شيء لولا هذه السيّدة. يوم ماتت قلت لا بد أن يظلّ صوتها حيًّا. أنا لست متيقّنًا أنّها ماتت. فالمدفون في القبر ليس جسدها ولكن جسد كلب. أدين للالة فتنة بالحياة. عندما قُتِل والديَّ في طريق سيدي بلعباس هي التي كانت تزورني ليلاً وتأتيني بالأكل والدراهم وتنوّمني في حجرها حتى ذهبت.

– كيف عرفت أنّها لم تمت؟

– رأيتك في تلك الليلة عندما حفرتَ القبر. كنت أريد أن أتحقّق بدوري لكنّك سبقتني إلى المكان. الفقيه كذّاب ورجل كلّ المناكر ولم يكن يحبّ لالة فتنة. بعد أن أخبرته بأنّها سافرت إلى بلاد بعيدة وأنّها لم تمت، اتفقنا أن يظل السرّ بيننا وأن نتناوب على العزف. في ذلك المساء عزفت طويلاً وبكيت كثيرًا وبكى الطفل معي. لم نكن نعرف لماذا كنّا نبكي ولكن بكينا بصدق. خبّأ كمنجته التي تشبه الرّباب عند قدم النخلة الكبيرة ثم خرجنا بحذر حتى لا يرانا أحد.

بدأنا النزول على مطار رواسي، شارل دوغول. الرجاء منكم أن تشدّوا أحزمتكم وتمتنعوا عن التدخين وأن تعدّلوا ظهور مقاعدكم.

شكرًا.

منذ ثلاثين سنة لم أتذكّر هذه المرأة إلاّ من خلال الكابوس اليومي الذي لم يوفر لي شيئًا استثنائيًا إلاّ تلك القهقهة العالية التي كانت توقظ المجانين والأموات. لماذا الآن؟ دفعة واحدة. نحن لا ننسى إلاّ بالقدر الذي يسمح لنا بتحمّل ثقل الدنيا وحزنها. عندما نسافر نشعر دائمًا بأنّنا نترك شيئًا غاليًا وراءنا و لا نستحضره إلاّ لتوديعه للمرّة الأخيرة.

هذه المرأة ليست ذاكرة فقط ولكنّها شتات كلّ الزمن الذي يرفض أن يموت.

-٣-

كان مطار رواسي مكتظًّا.

شيء ما في المطارات يجعلنا نغفر للناس كلّ حماقاتهم وقلقهم. من كثرة المسافرين، وجدت صعوبة كبيرة للانتقال إلى جهة الترانزيت ولكنّي مع ذلك لم أحرم نفسي من لذّة الحركة واكتشاف التفاصيل الجديدة. المدن الأوروبيّة هكذا، كلّما عدنا لها بعد زمن اكتشفنا أنّ بها شيئًا لا نعرفه ومدننا كلّما هجرناها وعدنا لها اكتشفنا أنّ جزءًا آخر فيها قد مات.

لأوّل مرّة أعبر البهو الطويل بدون أن ألتفت إلى الوراء.

عند معبر المرور قدّمتُ أوراقي لامرأة سمراء. كنت سعيدًا أنّها سمراء. لا أدري لماذا، ربّما لأنّي في أعماقي أشعر أنّهنّ أكثر قدرة على تفهّم شططنا. عندي حساسيّة ممزوجة بالخوف من الشقراوات ذوات العيون الزرق. أحسّ أنّ في خزراتهنّ فراغًا ما وبعض الأنانيّة والفظاظة.

المرأة السمراء غرست عينيها طويلاً في جواز السفر ممّا أقلقني بعض الشيء.

سألتها بنوع من التردّد. العربيّ دائمًا هكذا في مطارات الدنيا، من كثرة الشكوك المسلّطة عليه تكوّن لديه ردّ فعل المتّهم الدائم:

- Madame, est ce qu'il y a un petit problème?

رفعت عينيها صوبي. طمأنتني ابتسامتها التي انزلقت على وجهها. ثم أحنت رأسها وختمت الجواز ثم سلّمته لي وهي تقول:

- Monsieur Yacine. Vous êtes artiste ?
- Sculpteur, peintre.
- Bon anniversaire. Apparemment, les voyages ne vous laissent pas assez de temps.

ارتبكت كورقة يابسة في مهبّ ريح ساخنة. تسلّمت منها الجواز ثمّ انسحبت نحو محلاّت بيع الموادّ المعفاة من الرسوم الجمركيّة، أستعيد بعض حركاتي القديمة التي بدأت أنساها من كثرة المكوث في مكان واحد. لم أكن قادرًا على الكلام ولا على الوقوف. كم تمنّيت أن أعود لها وأقول لها: عذرًا. أتعلمين يا سيّدتي، من كثرة شطط الدنيا نسيت أنّ لي يوم ميلاد فأنا اليوم لا أحفظ إلاّ تواريخ وفاة أصدقائي وتواريخ انتحاراتهم أو اغتيالاتهم. قضيت سبع سنوات أنتظر امرأة لا تحتاج إلى تعريتي لتهزّني من عمقي أو رجلاً يعبر عتبة البيت فقط ليقول لي صباح الخير أو يشهر في وجهي سكّينة حادّة أو مسدّسًا ليضع حدًّا لحياتي. كأنّي طوال هذه الحرائق لم أر إلاّ البياض. أنا قادم من أرض صرنا نحتفل فيها بذكرى الموت وليس الحياة ولهذا لا نعرف كيف نتعامل مع السعادة عندما تفاجئنا. كلّ واحد فينا عليه أن ينتظر موته

ليُحتفى به. عذرًا. شكرًا يا سيّدتي، ما يزال في الدنيا من يتجرّأ على حبّ الآخرين بدون مقابل. ذكّرتني أنّ لي عيد ميلاد هو هذا اليوم بالذات، اليوم الذي صمّمت فيه على انتحار الخلاص بطريقتي الخاصّة. مثل الساموراي الوطنيّ الذي أخطأه الإرهاب فصنع قدره بنفسه. بدل أن يشهر سكّينته ويشقّ بطنه، سحب مسدّسه ووضعه في رأسه ثم أطلق أوّل وآخر عيار ناريّ في حياته. لم أكن أملك تلك الشجاعة ولكنّي أطلقت النّار على نفسي باختيار قبر آخر على غير التربة التي ولدتني.

عندما دخلت إلى محلّي بيع الكحوليّات والعطور، شعرت أنّه كان عليّ أوّلاً أن أرى النّاس ليس كالحيوان المذعور الذي يشكّ في كلّ الوجوه ولكن كإنسان يحاول أن يتدرّب على الحياة من جديد. اشتريت قنّينة ويسكي وأنا أحاول أن لا أرفع رأسي حتى من حولي كي لا أرى أحدًا وقارورة عطر قادني نحوها اسمها أكثر من رائحتها L'air du temps لِمَ لا؟ فقد كانت فتنة تحبّها. نحن بالعادة نشتري ما نهديه لسيّدة الصدفة الجميلة، لأوّل امرأة تقتسم معنا لحظة نادرة ونشعر أنها تستحقّ أن نهديها شيئًا. لكن هذه المرّة، المرأة كنت أعرفها وأعرف العطر الذي تشتهي.

عندما مدّدت رأسي على كرسيّ الطائرة ذي اللون الأزرق البارد محاولاً أن أفرغ خلاياي من كلّ الشطط الذي كان يملأني ويثقل جسدي، كانت المحرّكات النفّاثة قد بدأت تدور بقوّة.

أمطار أمستردام باردة في هذا الفصل. هكذا قرأت وهكذا يقول العارفون.

لا أدري ما الذي جعل هذه المدينة تقفز فجأة نحو الذاكرة. أمستردام التي لم أعرفها إلاّ من خلال الكتب واللوحات القديمة،

تأتي في لحظات الغفوة كالغيمة أو كالماء المنزلق من أعماق الصخر. لا أدري لماذا كلّما انتابتني هذه المدينة، تعبرني موجة حزن عميق وينهض في الذاكرة الذين صنعوا اسمها: رامبرانت، فيرمر، هانز، ثم يأتي وحده، في كورس جنائزي، فانسون فان غوخ. أحد الصحفيين وهو يكتب في مرّة من المرّات عن المرأة ذات الرأس المقطوع التي أنجزتها وأنا أرى الموت بالقرب منّي يسخر من بعض غبائي، ذكر قصّة البتر الموجودة عند الإنسان والقادمة من بعيد وشبّه الحالة بقطع أذن فان غوخ. في أعماقي ضحكت. ما مارسته أنا في الفن كان خوفًا من الحياة نفسها وما مارسه فان غوخ كان تحدّيًا للحياة ذاتها. الفارق غير معلن ولكنّه عميق جدًّا. فقد كانت الحياة رهاني المستحيل وكانت حقول القمح وعبّاد الشمس مستحيلة. في ماذا كان يفكّر فان غوخ وهو يحشو مسدّسه بالبارود، يتحسّس قلبه برأس الماسورة الباردة ثم يغمض عينيه للمرّة الأخيرة ويطلق النّار على نفسه؟ لم يكن هناك ما يثير التساؤل في ذلك الصباح عندما خرج كعادته باكرًا نحو الحقول. فقد مارس طقوسه بانتظام. في منتصف النهار عاد كعادته إلى "أوبرج رافو" Auberge Ravoux، أكل ثم خرج. سوى أنّه في المساء رجع متأخّرًا ومرتبكًا. كان أصفر كقشرة ليمون. عبر كالظلّ وبخطوات واسعة نحو حجرته، يده على صدره. ثمّ فجأة بدأ يئنّ وهو يواجه الموت وحده في حجرته الضيّقة قبل أن ينتبه سكّان الأوبرج لجرحه البليغ. لقد اختار الموت وتوقيته. أكان فان غوخ يعرف أنّه سيزعج حتى وهو ميّت ويكشف الخفايا الباردة للناس؟ خوري أوفير - سير واز رفض أن يقيم له القدّاس الجنائزيّ وحَمْله في عربة الكنيسة لأنّ فان غوخ انتحر ولم يمت. قام بفعل

هو من خصوصيّات الله. لولا بلديّة ميري لأكلت الذئاب الجائعة جثّته. كانت الشمس قاسية في ذلك اليوم، لم تودّعه إلاّ لوحاته الألف التي حوّطت به وبعض سكّان القرية.

عندما تنغلق السبل، تُفْتَح أبوابُ الموت بشهيّة.

لم يمرّ وقت كثير عندما بدأت الطائرة عمليّة النزول على مطار شيبول - أمستردام. كانت المدينة تبدو مستسلمة للهواء البارد المتسرّب من بحر الشمال وللأمطار الغزيرة التي كانت مياهها تتكسّر تحت عجلات الطائرة وهي تعبر مدرج الهبوط بسرعة كبيرة قبل أن تخفت المحرّكات وتتوقّف نهائيًا.

الفصل الثاني

جِرَاحَاتُ المَسِيحِ العَارِي

-١-

هذا فصل الأمطار الباردة.

من وراء زجاج السيّارة المندّى رأيت أمستردام، ومن وراء أمستردام الغائمة رأيت فتنة فقط ووعدًا قطعته على نفسي وأنا أحاول أن أفهم السحر الذي منحته لي هذه المرأة المدهشة ولم تمنحه لغيري. منذ عشرين سنة وما تزال هي هي، صافية كدمعة وثمينة كقطرة ماء. لم يتزحزح مكانها مطلقًا في الذاكرة على الرّغم من قساوة المدينة.

عندما وصلتني الدعوة لحضور مؤتمر أمستردام كنت قد صمّمت على الخروج. منحة لوس أنجلس من طرف معهد الأبحاث في تاريخ الفن والإنسانيّات بِالغيتي سَنْتَر للفنون المرئية Getty Center سرّعت من هذه المغادرة التي كانت وشيكة. البلاد لم تعد بلادًا والناس لم يعودوا ناسًا ولكن شيئًا آخر بدون ملامح واضحة، مليء باللزوجة والخمائر القديمة، في الليل يبكون خسران الأحباب والأصدقاء وفي النهار يتواطأون مع القتلة

للإجهاز على ما تبقى من الحياة الصغيرة للناس. كلّ شيء حدث بسرعة. والكسورات عندما تفاجئنا بهذا الشكل تجعلنا نفشل في ادّخار القلق و التردّد.

عندما أتساءل عن سرّ الرغبة الكامنة في الخروج لا أجد الأجوبة التي أشتهي. يبدو أنّي مثل الآخرين، القتلة والضحايا، تعبتُ. وأنا أعيد فكّ حروف الدعوة والمنحة، فكّرت في السنوات الأخيرة التي لم أكن أتجرّأ فيها على قراءة الدعوات حتى لا أُصاب بشهوة الخروج. التعب يقلّل من طاقاتنا على التفكير. دعوة أمستردام حملت معها سحرًا قديمًا، فقد أيقظتْ فيَّ مدافن الروح والخوف، وضعت أمام عينيّ عشرين سنة من الحنين تدفّقت مثل بحر لا تحدّه حافة. امرأة استيقظت فيَّ دفعة واحدة لم تترك لي فرصة التفكير ولا التأمّل. كلّما تذكّرتها ازددت يقينًا أنّي مريض بها. تخيّلوا إنسانًا يفتح باب بيته ويغلقه على الموت، يفاجأ ذات صباح بيد ناعمة تقوده نحو ذاكرته؟ أيّة هزّة عنيفة ستنتابه؟ أيّ شوق سيملأه؟ المدافن تستيقظ عندما تسقط الأمطار الباردة واليوم ممطر بامتياز. لم أتردّد لحظة واحدة. اتّصلت بالسفارة الهولنديّة وتمّت كلّ الإجراءات بسرعة مثلما حدث مع السفارة الأمريكيّة عندما استقبلني الملحق الثقافيّ وحدّثني مطوّلاً عن مركز الغيتي Getty Center لأوّل مرّة أشعر بنفسي أنّي موجود بالفعل على هذه الأرض وحيّ يستقبل صباح الشمس والضوء. في اليوم الموالي لاستلامي الفيزا الهولنديّة، بعثوا لي مختصًا في التغليف والحفاظ على المواد الهشّة ليأخذ المنحوتات واللوحات، بعد أن وضعها داخل الواقيات من الصدمات والكراتين قبل أن يطلب منّي التوقيع على ورقة مؤكّدًا أنّها ستصل في بحر الأسبوع وأنّي

سأتمكّن من المشاركة بها في معرض أمستردام برواق المتحف الوطني الريشكميوزم Rijksmuseum قبل أن تأخذ طريقها نحو متاحف لوس أنجلس، محطّتي الأخيرة.

ما هي الصدفة العجيبة التي شبكت كلّ شيء، زغاريد عودة القتلة باغتيال عزيز وعمّي غلام الله بالدعوة إلى أمريكا ثم إلى هولندا؟ أيّ يد خطّطت لهذا القدر الاستثنائيّ ولهذه التفاصيل التي بدون اكتمالها ربما لما خرجت؟ لا أدري ولكنّها كلّها تكاتفت لتدفع بي فجأة نحو محيط لا لون لمائه سوى رماد السماء والأسئلة المستعصية والرّغبة القصوى للنوم داخل البياض الذي لا شيء فيه يعكّر صفو الروح.

لقد خسرت كلّ شيء عن سبق إصرار وترصّد.

المنفى انتحار نوعيّ. ليكن. انتحار بالتقسيط، ندمنه كالمخدّرات قبل أن تصبح المتعة مرضًا، وذات صباح نفتح أعيننا على الدنيا وقد صار كل شيء أملس وبدون نتوءات ونتقدّم نحو الهوّة بدون القدرة على الالتفات إلى الوراء. ليكن. لا شيء أجلب للخوف مثل شعورك بالإهمال وأنّك قد نُسيت كأيّة آنية أنيقة كانت تزوّق الدار وعندما انكسرتْ لُملمت ثم وُضعت في الركن حتى اندثرت نهائيًا. موت المنفى أهون من النسيان القاتل في أرضك.

ياه، هذه هي أمستردام الشهيّة؟ المدينة البريئة والعذبة التي تنام على الماء. مونتسكيو قال عنها: أحبّ فينيس كثيرًا ولكنّي أحبّ أمستردام أكثر، بها نستمتع بالماء بدون أن نُحرَمَ من صلابة التربة. طرقها ناعمة مثل جلد مراهقة، مدينة هادئة ما عدا هدير السيارات الخافت والترام المطرّز بالألوان الغريبة، الذي يشقّها طولاً

وعرضًا، وغيمة رماديّة ومطر لا يتوقّف أبدًا.

عندما وقفت السيّارة عند باب النُزُل القديم بدا لي كلّ النّاس في هذه المدينة متشابهين مثل لعب الأطفال الجميلة. لا شيء فيهم من شططنا وبؤسنا. حتّى الظلال عندهم لا تنكسر بسرعة رغم الجوّ الرماديّ المخيّم على المدينة. ربّما كانت شمسهم غير شمسنا وأشواقهم غير تلك التي نتنفّسها كلّ صباح ومساء. شيء ما كان يقول لي إنّني بصدد مدن لم أعد أعرفها وأنّ السنوات التي قضيتها في الظلمة سرقت منّي الألوان الممكنة. بدا كلّ شيء واسعًا، الطرقات، المحلاّت، الممرّات، قلوب النّاس، المدينة، أبهية المطار المتداخلة، العيون، في الوقت الذي تزداد فيه حياتنا كلّ يوم ضيقًا. أتساءل إذا لم يكن هذا النظام المتزايد يضايقني. أوف... ماذا يُنتظر من مريض بأرض وتربة وبلد لم ير منهم منذ سبع سنوات متتالية إلاّ بعض الأمتار التي توفّر له فرصة التخفّي أو ما يسرقه من هربات نحو البحر. سبع سنوات لا أنيس لي إلاّ الأجساد المحنّطة بالطّين التي كنت أصنعها من تربة القرية ومن خشب الصنوبر الذي كانت حنّا تُجبّر به كسورات عظام الرّجل واليد. وكلّما انتهيت من تمثال أدخلت نفسي في حيرة جديدة. فأين أجد له مكانًا؟ أو أيّ مخبأ حتى لا تمرّ عليه آلة الموت التي كانت تأكل الأخضر واليابس. كلّ شيء ضيّق وعليك أن تعيش باستمرار داخل الحلم لتتمكّن من السفر خارج حدود المربّع الذي فرض عليك. في الوقت الذي يظنّ فيه الآخرون، الذين لا يعرفون حزنك، أنّك تمارس عملاً بطوليًا، تظلّ أنت مشدودًا للأشياء الصغيرة التي تعطيك مبرّرًا لمزيد من التشوّق إلى الحياة. لم تعد معنيًّا بالخطابات الكبيرة التي خبّأت وراءها كلّ الهزائم الشنيعة.

يبدو أنّه علينا أن نقبل بالوحدة عندما نواجه الموت والسفر.

لم أكن قد تخلّصت بعد من الوجوه التي جرجرتها من هناك ورائي كالتمائم السحريّة. لكن عندما رفعت رأسي قليلاً بدت لي أمستردام مدينة واسعة أو كما سمّتها ماريتا، مستقبلتي في المطار، مدينة طفوليّة وبريئة وقلبها هشّ مثل قلب عاشقة. بسرعة تُعشق، وحينما تعشق ترتبط بعفويّة وجنون. كانت تتحدّث عن مدينة وفي ذاكرتي كانت فتنة تهزّ رأسها وكأنّها كانت هي المعنيّة بكلام ماريتا.

ماريتا كانت تبذل مجهودًا كبيرًا للحديث إليّ باللغة الفرنسية. أشياء تحدث معنا لا نعرف مؤدّاها وتبدو غريبة. الزمن في رؤوس النّاس مثبّت ولا يتحرّك إلاّ بصعوبة. كأنّ تاريخ الاستقلال منذ أربعين سنة لا معنى له سوى بالعودة الدائمة إلى جرح الذاكرة: اللغة. بيننا وبينها حالة التباس وغموض تتقاطع فيه الضغينة اللغويّة بالحبّ الكبير.

– ما أجمل هذه المدينة وما أكثر اتّساعها. هل الميناء بعيد؟ يبدو أن كلّ المدن التي لا بحر فيها مدن آيلة إلى الزوال. البحر هو الحياة الدائمة التي فينا.

– لا. الميناء قريب. أقلّ من نصف ساعة مشيًا على الأقدام أو عشر دقائق بالترام. تستطيع أن تفعل ذلك عن طريق زوارق القنوات المائيّة عبر نهر الأمستيل Amstel أنت ترى هذه المدينة بعين المحبّ، أمستردام كبيرة ولكنّها ليست بكلّ هذا الاتّساع.

– لا يا ماريتا. الاتّساع والضيق يتحدّدان بحسب الموقع الذي نحتلّه والزاوية التي نطلّ منها. أنتِ داخل مدينة تظهرها لك الألفة روتينيّة أمّا أنا يقدّمها لي الفقدان وضيق الحياة جنّة واسعة. رؤانا تتقاطع ولا تتشابه.

صمتت قليلاً ثم قالت في نبرة اعتذار مبطّنة. حساسيّة الغريب تتضاعف عندما يخسر أرضه وأحبابه.

– عندك حق. الإنسان لا يحسّ إلاّ ما يعيشه.

واصلتْ بلغة فرنسيّة نقيّة وهي تسلّمني مفاتيح الغرفة بعد أن قامت لوحدها بكلّ الإجراءات الضروريّة:

- C'est un débat épineux. On aura certainement l'occasion d'en parler davantage. Une autre fois le Directeur du congrès est très honoré de vous avoir parmi ses invités de marque. Reposez vous, on passera vous prendre demain matin pour assister à l'ouverture officielle du congrès qui se déroulera surtout au Rijksmuseum. La clôture se fera à l'opéra, le Musiektheater.

- Je vous remercie. On se tutoie, c'est plus simple

- Très bien. Tu trouveras tout le programme dans ta chambre. De toutes les façons tu as eu droit à une très belle chambre, la 26. C'est une pièce rare, j'espère qu'elle te plaira. Le Canal House est un hôtel élégant, c'est une maison du siècle d'or. Elle est à deux pas de la maison d'Anne Frank et du quartier du Jourdan que tu pourras éventuellement visiter.

– على بعد خطوتين من منزل آن فرانك، هذا حظّ كبير؟

قفزت إلى ذهني صورة الطفلة الهولنديّة وهي ترتعش وتبحث عن مخبأ خوفًا من مدافع هتلر التي كانت تدكّ أمستردام في ذلك الربيع الرماديّ من سنة ١٩٤٠ . ثم وهي تستسلم للزاوية المظلمة قليلاً لتكتب أحاسيسها المشوّشة التي كان الموت يتهدّدها وعائلتها

في الملحقة الخفيّة من بيت والديها. ثمّ وقد صار وجهها أزرق من المرض والبرد والجوع في شتاء ١٩٤٥ القاتل، في محتشد برخن–بلسن . Bergen-Belsen تحاول جاهدة أن تسند رأس أختها الكبيرة مارغو وهي في حالة احتضار قبل أن تستسلم هي بدورها للموت.

مذكّرات آن فرانك ملأت خلوتي طوال سنوات الظلام. كم نتشابه في الخوف؟ أحيانًا نتعلّم من الكتب البسيطة والطفوليّة أكثر ممّا نتعلّم من الخطب المدرسيّة والتربويّة الكبيرة. فقد أعطتني آن قدرًا كبيرًا من الإحساس بأنّ الحياة يمكن أن تُعاش بجدارة أكثر، فهي ليست مسلّمة ولكنّها استحقاق وإلاّ سنضطر للعيش داخل مختلف الهشاشات المحيطة بنا ونقضي العمر كلّه في تلقّي كسوراتها ومحاولة ترميمها عبثًا.

– سأزور بيت آن فرانك غدًا صباحًا.

– يمكنك أن تفعل ذلك. المتحف يفتح على التاسعة صباحًا ونحن نمرّ عليك في حدود العاشرة لحضور الافتتاح الرسميّ للمؤتمر. على كلٍّ سأكلّمك قبل ذلك.

عندما خطوت الخطوات الأولى داخل الغرفة عرفت لماذا الأمكنة تموت وتحيا بالذاكرة. الأمكنة في بلادنا مثل الناس، تولد داخل الشطط وبسرعة تموت. كلّ ما في الغرفة يحيل إلى القرن السابع عشر. البهو الطويل بأفرشته الحمراء والسقف العالي والحيطان السميكة التي تقي البيت من الضربات التحتيّة للماء الذي يتسرّب بهدوء عند أقدامها. الأواني القديمة، النحاسيّة والمصنوعة من رخام الدّلف Delf ، ما تزال في أمكنتها كما كانت منذ قرون، عليها ملامس اليد الأولى التي وضعتها والنظرة الأولى

التي اختارت الزوايا الأكثر إشراقًا والأكثر إضاءة.

ارتحت قليلاً، لم أقرأ حرفًا واحدًا من البرنامج، فقد كنت مرهقًا. شيء غامض كان يحترق فيّ بعنف.

تركت نفسي أنساب مثل الماء على السرير المريح.

ربّما تكون فتنة قد ارتاحت منّي نهائيًا بالموت أو حياة الظلّ البعيدة لكنّي أنا ما زلت في دائرة الدهشة أريد بدوري أن أشفى منها وأن أنساها. أن ألتفت نحو الماضي فلا أجد إلاّ الضباب بعد امّحاء الجحيم والأسماء والوجوه. ولكن يا الله هل من الممكن النسيان بدون عزاء حقيقيّ؟ هل يكفي أن نلتفت بوجهنا صوب الشمال لكي تتهاوى كل المدافن التي فينا؟

ما الذي يجعلنا نحبّ مدينة ونعشقها مثلما نعشق امرأة؟ ما الذي يجعلنا نشتهيها عندما ينفر منها الجميع؟ ما الذي يوقظ أوجاعنا كلّما تعلّق الأمر بفتح نوافذ جديدة داخل الذاكرة؟ ما الذي يقودنا نحوها هي بالذات ونرفض المواعد المسبقة مع مدن أخرى يتمنّى الكثيرون أن يسيروا في شوارعها ويشربوا كأسًا مخطوفة في مقاهيها الصغيرة؟

فتنة كانت تحبّ قريتها والوجوه التي تقاسمها شاي النهار بنعناعه القويّ وحدّة رائحته، كلّما اشتاقت لها، تغمض عينيها ولا تستيقظ إلاّ على هدهدة الحافلة الذاهبة صوب القرية. بعد يومين تقول لزليخة: اشتقت إلى وهران، لقد صارت بعيدة ومعزولة ووحيدة.

المدن هكذا إمّا أن تحبّ دفعة واحدة أو ترفض جملة وتفصيلاً. المدينة والمرأة تتشابهان. تغويك، وعندما تصير فيها تتخلّى عنك أو بكلّ بساطة تضعك في خانة المضمونين. وقد

يأخذك سحرها فتنسيك حذرك اليوميّ، فتضيع ولا شيء فيها يعزّيك في قساوة الفقدان. وقد يكون لقاؤك القدريّ بمدينة يشبه أجمل موعد عفويّ مع امرأة، لكن عليك أن تظلّ مستعدًّا لدفع ثمن الغواية في أيّة لحظة. المدينة ليست حجارة، هي التباس اللّذّة المسروقة بشيء غامض من الصعب فكّ سرّه. الشيء الوحيد المؤكّد في هذه المعادلة هو أنّ المدينة والمرأة لا تقبلان مطلقًا بأنصاف الحلول التي نحافظ بها عادة على نفاقاتنا الداخليّة الصغيرة.

فتنة مدينة أغلقت كلّ أبوابها ورمت أقفال السحر في مهاوي بحر الشمال، فمن ذا الذي يملك الأبجديّات المستحيلة للغوص بحثًا عنها ولفتحها؟ أحيانًا عندما أتذكّر تلك الليلة أشعر أنّ في فمي طعم العسل وشهد النحل وحلاوة الحليب الطفوليّ وعرق الرعشة والعشب البرّيّ ربّما لأنّ جسد فتنة كان معجونًا من تراب البلدة والأعشاب البرّيّة قاطبة، التي علّمتني فتنة كلّ أسمائها: التافغة، دقّ المهراس، تمالاّ، القرنينة، الجميخ، الضلف، الحميضة، حب الغاز، شوك الحمير، البرّيو، بونجروف الذي يشبه عشبة اللّذّة، البرواق، عين البقرة، الجرجير الأبيض والأصفر، النوار، بنعمان، لكيكوط، عوينة الشمس، الحُرّيق، بصلة الذيب، شوك بونقار الذي يؤذي الأرجل العارية بلسعه المسموم، الديس، الحبق، ساسنو، الزعتر، فليّو، الحلحال، الشهيبة، ماء لويزة، الماقرمان، الخبيز، السلق، السكّوم، البرواق، تيغيغت، الدفلى... ذات مرّة سألتها ونحن نقوم بعمليّات الجرد، لماذا الحُرّيق يحرق، وكنت قد سمعت قصصًا كثيرة عن فوائده وغراباته. ضحكتْ ثمّ قالت:

- فهمتك وين حاب توْصل يا وحد الذيب. بعض الرجال عندما يفشلون في الحصول على امرأة يستنجدون بالحرّيق.

تمتمت كطفل يريد أن يخبّئ كذبته.

- وهل الحُرّيق مهمّ إلى هذه الدّرجة؟

- يعتقدون أنّ النساء اللواتي يتوضّأن بماء الحُرّيق تزداد شهوتهنّ. أغبياء. لا يعرفون أن أصل الشهوة الجسد كلّه، إمّا أن يرتعش من أخمص القدم إلى شعرة الرأس وتجعلة عشبة اللّذّة التي نمضغها أكثر حرّيّة وأكثر رهافة وتصدّعًا وعمقًا وإمّا أن يموت ولا تحرّكه القيامة بكاملها وتمضي المرأة ليلتها تلعن رب الدنيا التي سلّطت عليها غبيًّا لا يعرف كيف يستدرج لحظة الفرح. الحبّ شيء آخر، أكبر من مجرّد الاهتزاز داخل فراش وثير. هو ألم نصنعه نحن وكما نشتهيه وإذا لم يفهمنا الآخرون في اللحظة نفسها الله لا يردّهم، طزّ فيهم وإلى الجحيم.

كلّما اقتحمني اليوم وجه فتنة، تذكّرت الليلة الوحيدة. ليلة لا أكثر، كانت كافية لتخلط كلّ يقينيّاتي. محت كلّ الأصوات التي سكنتني لتتربّع على عرش القلب المتعب والمعرّض للهزّات الأكثر عنفًا والأقلّ تواطؤًا.

قلوبنا لا تعرف التواطؤ، عندما تتعب تصمت وتنسحب.

أيّ سحر تحمله هذه الورقة التي لا شيء فيها يوحي بالاستثناء إلاّ هذه الرموز الملتوية التي تخبّئ عميقًا سحرها الداخليّ؟ أيّ قوّة تدفعني الآن باتجاه هذه الرسالة التي وضعتها في كفّي قبل أن تندفن في البحر المنسيّ، ليس بعيدًا عن صخرة الصيّادين السبعة؟ هي لم تغرق في ذلك الفجر المندّى. أقسم أنّي رأيت ظلاًّ يشبهها يخترق كثافة الضباب ويقاوم بكاء الوليّ وصراخي ويركب سيّارة

المرسيديس السوداء بدون حتى أن يلتفت وراءه. أيّ حرقة تأخذني الآن وتدفع بي نحو مغاور الأبجديّات التي كم أتمنّى أن تهدأ حتى تموت من تلقاء نفسها وتحرّرني من أسئلتي الصعبة.

أريد أن أنسى. أنسى فقط.

أنتظر من وراء هذا الدفء اللحظة التي أخرج فيها وأتضمّخ بأمطار أمستردام الباردة.

في الخارج، كان الضباب قد بدأ ينزل خفيفًا وأبيض مثل الشعر. يلفّ المدينة شيئًا فشيئًا بوشاحه حتى تندفن فيه كلّيّة.

تمدّدت على السرير، الرسالة الأخيرة في يدي. أتعجّب كيف تبقى هي هي، التفاصيل التي قطعت عشرين سنة من الشطط. ملأني مرّة أخرى وجه فتنة وهي تحاول عبور البحر بدون عصا موسى، بخيبة موجعة وبتمزّق داخليّ شاءته. لا أدري من الذي قال: لا نستطيع أن ننسى إلاّ إذا فتحنا الجروح القديمة واستمعنا إلى أنينها الداخليّ. أجرّب الآن أن أنسى هذا الجرح بفتحه بنفس الأداة. خشخشة الأوراق الزرق في يدي تشبه مشرط الجرّاح وهو يغوص بهدوء وثقة داخل اللحم الطريّ. لم تحُلْ إلاّ قليلاً، فما زالت هي هي منذ أن قرأتها للمرّة الأولى وتركتها تذوي في الذاكرة. وقتها لم أفهم فيها الشيء الكثير ولكن فيما بعد تأكّدت من أنّها النصّ الذي ظلّ طوال العمر يتعالى عليّ كأيّة استحالة من الاستحالات. كلّ ما قرأته، فتح لي بعض أبوابه المغلقة ونوافذه الموصدة.

كانت أمامي بجسدها الطفوليّ الذي لم تخدشه قساوة السنوات. رأيت عينيها الزرقاوين كبحر تصفّى من كلّ أمواجه حتّى صار شفّافًا كماء الجنّة الذي لا يأتينا إلاّ في الأحلام يوم ندخل الفراش

سعداء. رأيت شفتيها تتمتمان كشفتيّ راهبة، خائفة من شيء كان يكبر داخلها. ثم ... سمعت تقطّعات الصوت التي كانت تأتي من زمن لم ينتفِ إلاّ ليزداد قربًا، ورأيت امرأة تعبر الشوارع الخلفيّة لأمسترادام تحت وقع أمطار بدايات الشتاء، تفتح المطريّة وتغلقها من جديد وهي تتمتم: من العبث تفادي هذه الأمطار الصافية كقلب مراهقة. تتدحرج بحثًا عن غيمتها التي رأتها البارحة في الحلم تعبر السماء السوداء. ثم رأيت يدًا ناعمة في إحدى الزوايا الدافئة لأحد المقاهي الهولنديّة القديمة، تكتب وترتعش وتبحث في عمقها عما تبقى من قوّة لإنهاء الرسالة...

-٢-

حبيبي. معصيتي الأولى وربّما الأخيرة.

من اليوم لا تكثر الدقّ، فأنا متعبة ولن أفتح الباب مرّة أخرى لأنّي لست هنا. فعندما خرجت معك في هذا الفجر البارد لم أنس أبدًا أن أسدّ ورائي كلّ شيء، حتّى القلب المنتهك. لم يكن في نيّتي أن أهزّ راحتك الصغيرة فأمامك عمر وأمامك أحلام ومهالك كثيرة عليك أن تقاومها. فأنا من زمان وأنا أشعر أنّي مريضة بك، بيديك وبإنهاكاتك الطفوليّة وبتلك الأرض التي ترضعنا الدم والخوف وكثيرًا من الأسئلة المستعصية.

تركت وهران وجئت إليك للمرّة الأخيرة لتجعل منّي امرأة ولأنساك دفعة واحدة. أصعب شيء على امرأة أن تحمل في قلبها رجلاً لم تشبع منه. في قلبي خيبة كبيرة من الناس المستكينين في كذبهم الدائم، قذفتني عشرين سنة إلى الوراء. أنتبه فجأة إلى هول

الفاجعة، لقد مات الذين كنت أحبهم. من اغتيل، اغتيل ومن آثر الانتحار فعل ذلك بدون أدنى تردّد. حبيبي، هل تعلم هول الفاجعة؟ كم أريد أن أقنع نفسي بأنّ أخي مات في حادث سيّارة ولم ينتحر ولكن عبثًا. أرأيت في حياتك رجلاً يتزيّن ويتعطّر ويعدّل من هندامه والكرافاته ويقبّلني على جبهتي ويقول بكلّ هدوء ويقين وهو كمن يستعدّ لأجمل موعد في حياته:

– فتنة، أرجوك إذا لم أعد، عينك على أمّك وعلى الوالد فهو أكثرنا هشاشة. يحمل في قلبه موت أمّي كتهمة. يظنّ دائمًا أنّه كان بإمكانه إنقاذها ولم يفعل. تركها تموت بين يديه. دائمًا يكرّر: آه لو لم أسمع لها وجرجرتها إلى المستشفى الكبير.

ونسي ميمون أن يقول لي إحذري على نفسك فأنت مثل الطين، طيّعة وهشّة. أنا كذلك أتساءل إذا لم يكن من الممكن التمارض على ميمون لإبقائه دقيقة إضافيّة في البيت حتّى يمرّ الخطر المحدق به. أندم كثيرًا لأنّي لم أفعل ذلك. تصوّر، عندما كان حيًّا، لم يفعلوا الشيء الكثير من أجله وواجه الحياة في لحظات الظلام وهو يخادع قدرًا كان ينتظره في الزاوية. وعندما مات، جاء الوالي وكلّ المسؤولين والوزير وكاميرات التليفزيون الوطنيّ لتعزّي في الرجل الذي أسعد النّاس مدّة طويلة في آخر الليل. وعندما سُحب نحو قبره ولم يعد يشرب معنا قهوة الصباح، تقول أمّي، لم نر أحدًا. كنت وقتها غائبة عن الدنيا، أعيش على وقع الفقدان وأتحمّل ضرب العصا من معتوه لا أدري من الذي جعله في رتبة الإمام ولا أدري ما الذي يجعل جاهلاً في مكانة ليست له.

أيّها الطفل كم تحتاج من الجنون لتتفرّد عن بقيّة الخلق وتدرك

أنّ حبّك صار لا يطاق وأنّي لا أحتاج إلى فقهاء المدينة ولكن إليك أنت وحدك، لليلة واحدة. الحبّ الجميل هو الذي نشتاق إليه دومًا. المخاطرة فيه صعبة ولكن علينا أن نعيشه لندرك الشطط الحقيقيّ للمتعة؟

كم تنقصكِ من الروح أيّتها البلاد المؤذية لتصيري بلادًا بلا منازع وبلا أقنعة، بلادًا كبقيّة البلدان، تحبّ ناسها وتكرّم أحبّتها من حين لآخر حتى لا تنساهم ولا ينسوها.

أيّتها البلاد التي نكّست كل رايات الفرح ولبست حدادها وانتعلت أحذيتها القديمة التي أذلّت فرحتها، لا تكثري الدقّ، لم أعد هنا. فقد خرجت باكرًا هذا الصباح ولم أنس أبدًا أن أغلق ورائي كل النوافذ والأبراج وأسدّ القلب للمرّة الأخيرة وأقسمت أن لا ألتفت ورائي وقلت في خاطري ليكن، للحبّ ثمن وعليّ أن أدفعه مثلما فعل ميمون وهو يأخذ سيّارته في ذلك الصباح لتلبية نداء غامض في داخله اسمه الموسيقى.

لقد انسحبت من الدنيا مثلما يفعل الساموراي عادة عندما يخسر حروبه المقدّسة كما كان يشتهي ميمون أن يفعل دائمًا. وها أنا ذي اليوم قد دخلت خفية القاعة المظلمة وبدأت أتحسّس رأس سكّين المنفى التي سأتركها بعد قليل تنزلق من الجهة اليسرى للبطن إلى أقصى اليمين.

أيها الغالي، حبيبي، اعذرني، لقد يتّمتك وأنت صغير. لا تكثر الدقّ، فقد خرجت بعد أن ردّدت على مسامع القوم الهادئين ترتيلة الموت ورميت كلّ المفاتيح في البحر الميت حتى أنساك دفعة واحدة. عندما نعشق بكلّنا نصبح قاب قوسين أو أدنى من الجنون أو من الكراهية. الكراهية الكبرى.

أنا لا أريد أن أكره أحدًا.

أنت لم تقل لي ولكنّي أشعر بك من عينيك تتساءل عن هذه المرأة التي تصرّ دائمًا أن تبقى طفلة ملتصقة بك. السنّ هو ما نشعر به في الأعماق وليست السنوات الزمنيّة ومع ذلك كم أتمنّى لو كنتَ أكبر بقليل من سنّك لقلتُ أشياء أخرى لم تسعفني اللحظة المسروقة لأقولها لك.

– ألا يمكنك أن تكبر قليلاً؟ كم تلزمك من المسافات لتدرك أنّ شوقي لك صار مثل اليتم، أعيشه وحيدة في قربك وفي بعدك، وأنت تتلذّذ بعينيك فقط أو وأنت تعيش خلوتك بمزيد من القساوة والألم؟ هل تستحقّ حياتنا كلّ هذه القساوة وهذا التمادي في الألم؟ ألا يكفينا هذا الموت الذي يطحن كلّ حميميّاتنا وخلواتنا المنكسرة؟

أعترف لك اليوم أيّها الغالي بصّحة قولك الذي يغتال ذاكرتي كلّما اشتهيت أن أنساك: إذا بقيتِ على هذه السيرة ستضطرين إلى الموت وحيدة. ومن قال لك إني أريد أن أموت بين أناس يشتهون إيصالي إلى أيّ قبر قريب وأنا حيّة؟ لقد مات هؤلاء الناس منذ زمن بعيد وشغلهم الوحيد أن يُلحقوا بهم كلّ الأحياء مثل زمر النّحل التي بدأت تتكاثر في البلاد. أخي، هُمْ دفعوه إلى الموت الفجائعيّ ثم سبقونا إلى الأرصفة والطرقات وذرفوا دموعًا كثيرة.

ها أنا ذي اليوم وللمرّة الأخيرة أستدرج القدر ليصنع معي نهاية أشتهيها لا كما فصّلها لي الآخرون. نهاية أنحتها بأظافري وأغزلها بأصابعي.

الآلهة وحدها تموت وحيدة. الموت هو الحالة الاستثنائيّة التي نمارسها وحيدين، ونعبر دهاليزها بدون رفقة. هل تعلم بأنّ الهنود

الحمر كانوا يدركون قساوة الرحلة ولهذا اخترعوا لعبة المرافقة للمحبّ بالانتحار المقدّس. بلادنا المنسيّة صارت تنجب هنودها. أخي كان هنديًا أحمر في انتحاره. ليس أبعد من البارحة، فوجئت بخبر وفاة فنان شعبيّ شابّ أطفأ شمعته مبكّرًا في إحدى الطرق السريعة وانسحب. المدهش في حالته ليس موته، فالحوادث المشابهة تقع آلاف المرّات يوميًا، ولكن ملابسات موت صديقه هي التي استوقفتني. عندما وصله الخبر لم يكلّم أحدًا. لم يبكِ. لم يعوِ بأعلى صوته كالذئب المجروح كما فعلت أنا في لحظة القساوة واليأس. صعد إلى شرفة الطابق الرابع المطلّة على الغابة البعيدة والبحر المنسيّ الذي يختبئ كالسارق وراء الأشجار ثم رمى بنفسه ليلحق بالفنّان الشعبيّ قبل أن يتخطّى هذا الأخير عتبات البرزخ. يبدو لي أنّنا شعب يرفض الحلول الوسطى، عندما يحبّ يتماهى في الآخر وعندما يكره يأكل نفسه قبل أن يأكل غيره.

وها أنا ذي قد بدأت آكل نفسي أو ما تبقّى منها.

أفتح عينيّ الطفل الذي فيّ، لماذا تتسمّر هكذا؟ أما آن لك أيها الطيّب أن تعبر؟ ألم تدرك بعد أن كلّ شيء انتهى؟ فالمرأة التي عشقتها عمرًا لم تكن معك طوال هذا الوقت الميت، فقد عادت لتموت في سرّها الأوّل الذي لعنته مرارًا، سرّ التيه والجنون؟ الريح التي قادتها إليك كانت ساخنة والأمطار التي شهدت موعدكما الأوّل كانت طيفًا من حنين. تتساءل الآن في قفر هذه الذاكرة، ألم يكن اليوم الذي التقيتما فيه مجرّد صدفة تمّ تضخيمها حتى صارت حبًّا؟ ألم تكن تداوي بك جرح الجنون الذي اغتال جسدها؟

يا يوسفي الصغير، هذه المرّة كذلك لم يحالفك حظّ الصواب

معي. أنت مع امرأة الشطط، لا شيء فيها يوحي أنّها موجودة. مهبولة لا أحد سواك يعيرها انتباه الكائنات. الذي تبحث عنه فيّ أنت خلقته لترى فيه وجه ليخة التي ذهبت مثلما أتيتُ أنا بصمت وصوت نرجس البعيدة التي بنتْ طفولتك على غوايات الأبجديّات التي كانت تخرج من فمها. ستتعذّب كثيرًا مثل كلّ محبّي المستحيل الذين يتعذّبون لغياب ما تصنعه لهم الظروف.

أنا؟ تسألني؟ لقد أخطأتُ في كلّ شيء، حتى طريق الذين كنت أحبّهم. أما كان من الأجدى لك أن تترك جسدك يحترق على نهدَيّ امرأة أخرى وتمضي مثلما تمضي الخلائق، فلا شيء يضمن غدك ولا حبّ سوى ما تسرقه الروح الضالّة؟ لقد أحببتك إذ اشتهيتَ الأخريات.

يا يوسفي إنزع عنك لباس الصمت والخوف والغبن، أنت لم تفعل ما يؤذيني، لقد ألبستني المتعة وألم الشوق وانتظارًا جميلاً لست أدري إلى أيّة حالة سيفضي. لماذا تصرّ دائمًا على الجلوس في الكراسي الخلفيّة وعلى البقاء مستقيمًا كخيط بليد؟ المرأة التي اشتهتك وقطّعت لباسك وحدها كانت لك ومعك وفيك وما عداها صدفة تلد الصدفة وشوق يمحوه شوق ومسافة تأكلها مسافة والضلالة أبقى من العقل المسجون.

يا حبيبي، يا سيّد الغيّ والغير، لا تكثر الدقّ، فالأبواب الموصدة لن تفتح والمفاتيح اندفنت في رمل البحر الميت وأنا انسحبت من ساحة الخيل. لا شيء يغريني للمزيد من الركض الذي لا يوصلني إلاّ إلى خطوتين وراء نقطة البدء.

هي الرحلة تصل إلى منتهاها، ألم يكن هذا مشتهاك الدفين؟ لهذا عندما خرجت هذا الفجر الضبابيّ سكّرت كلّ الأبواب

والمنافذ حتى لا ينفذ الهواء الى روح الموت، وعندما تمرّ على الوليّ المسدود، إمش بهدوء وحاذر أن توقظ النوار وزهر الياسمين والبنفسج والنرجسة اليتيمة والحبق الشهيّ والمعزوفات الضائعة لباخ وموزارت petite musique de nuit والنشيد الأندلسيّ الضائع الذي كان أخي يؤدّيه وعنفوان وحزن. الناس ههنا يأتون ثمّ يذهبون ولا أحد يسمع أناشيدهم وأنينهم. إتركني أختار موتي فأنا متعبة من مزالق الدنيا ودعِ الرياح تبعثر زرعها وليجعل الخريف القادم من عود النوّار الذي سأسكنه، متعة في فم العاشقين، ربّما عرفتْ هذه البلاد بعد زمن كم كانت مخطئة إذ أخطأت الطريق الموصل إلى عاشقيها الذين ينطفئون الآن بين يديّ قاتلها الهمجيّ.

أشكّ في كلّ شيء ولهذا عندما اخترتك كنت أختبر يقيني الذي لم يخدعني مثلما خدعني الآخرون. فعندما يكون الشكّ مرادفًا للحبّ ويكون الحبّ مرادفًا للصدفة، الأجدى لنا أن ننسحب قبل أن يدركنا قبح الأشياء؟ فالروح في حضرة الزوغان تغيب. محاربة طواحين الفراغ متعبة وقاسية. لم تعد لديّ قوّة أخي وأسلافي العظماء لخوض الحرب المقدّسة.

أنت قبلتَ أن تلعب معي لعبة الصدفة ومن تجرّأ على عبور الصدفة كان عليه أن يتحمّل قساوة فكّ أسرار الظلال. هكذا نحن، يوصلنا صدقنا دائمًا متأخّرين، وعندما نصل يكون الخطأ حليفنا في النهاية. نحضّر حياتنا لاستقبال كلّ شيء، حتّى الموت نتعلّم كيف نبتلعه جرعة جرعة، ولكن نحترس دائمًا وبكلّ الوسائل الممكنة وغير الممكنة لتفادي خيبات الصدفة ونحن فيها.

لستَ الأوّل في الدنيا الذي تكسره الصدفة ولا الأخير أيضًا،

لكنّك الأوّل الذي رأى الصدفة في شكل امرأة عاشقة من شعرة الرأس إلى أخمص القدم وعندما لامس عمقها صارت رمادًا وغبارًا قبل أن تصير بياضًا في وضح الفجر البحريّ ثمّ ظلاً أبيض سرعان ما ذاب في الفراغ.

هل نحبّ إذ نعلن للآخر أنّا نحبّه أم نمتحن النفس إذا كانت قادرة على أن تكون؟ ثلاثون سنة يا ابن أمّي انقضت وبعض الغبار وماذا بقي فيك أيّها القلب المفتون من مخابئ لم تفتّش؟ لم تتعلّم بعد يا هذا الولد الضائع في قفار الدنيا أنّك لم تعد طفلاً ولكن خبلاً وسحرًا وجدبًا. إتبعني إذا استطعت، فقد تركت لك ليلة وعرسًا ودّعت به طفولة منكسرة وتركت لي زرعًا في الأحشاء وتمزّقًا كلّما أحببت غيرك تذكّرته. إذا جئت وعثرت عليّ بنفس المدينة سأرتكب معك نفس حماقة اليوم وسأشتهيك بنفس القدر، وإذا وجدتني تربة فضع على بقايا القبر الزهر الذي تشتهي والنوار الذي تحبّ. وإذا لم تجد قبري، اخترع لي قبرًا وضع عليه نرجسًا وحبقًا يحفظني من العين الكريهة.

حبيبي الغالي لا تكثر الدقّ، فأنت تتعب يديك. كلّ الأبواب موصدة. بي الآن رغبة عارمة لغلق كل ما تبقّى من نوافذي وكوّاتي الصغيرة والنوم داخل سكينة بلا نهاية وعندما أستفيق تكون ذاكرتي مساحة من الضوء، قد خلت من كلّ ظلامات الثلاثين سنة التي انسحبت داخل كذبة عالية اسمها الحياة.

بي رغبة للصراخ بأعلى صوتي في وجه الاستحالات الكبرى وأكل كلّ تراب الأرض وشرب مياه هذا البحر التي تحوط الوليّ، لمعرفة استحالات اليقين. لكن من يتحمّل صراخي. حتى الأقربون وأقرب الأقربين لم يلتمسوا عذرًا عندما صمتوا وخرجوا من

الأبواب المفتوحة ومن زوايا الصدفة.
قبل قليل فقط كانوا ههنا جالسين يشربون القهوة ويتبادلون بكلّ يقين كلمات العسل والحبّ ويعزفون باخ وموزارت ويتقاسمون السوناتات المتعدّدة ويتراشقون بالأحلام، فجأة، تشتّتوا ورجع كلّ واحد إلى جرحه الأوّل يبحث عن مسقط رأس كلمات الحبّ الأولى.
لقد ماتت أرضنا الأولى.
مات مطرنا.
وانكسرت ضحكاتنا الطفوليّة ولم يبق إلاّ خراب الحقيقة الأولى.
ها قد بدأت انحداراتي القصوى نحو شطط انكشافات الروح.
وها أنا ذي أتجرّأ اليوم وأعبر الخيبة والصدفة معًا، مفتوحة العينين هذه المرّة، عارية القلب والذاكرة.
كم يلزمنا من الألم والانكسارات لندرك أنّنا طوال الثلاثين سنة التي خلت كنّا نركض حفاة عراة وراء غيمة جاقّة مثل رحم يابس لا ينجب إلاّ رعشة الفراغ، مخطئين في كلّ التفاصيل الدقيقة للحياة وأنّ ما كنّا نظنّه مطلقًا لم يكن إلاّ صورة إيهاميّة لأشواق نريدها أن تكون حقيقة ولم نصل لها، وأنّ بيني وبين نارسيس شبه الدم والنجوم والخوف. ماذا حدث لنارسيس عندما اكتشف الجرح الذي كان ينزل من القلب كالخطّ المستقيم؟ لم يتألّم للجرح، هو يعرف مسبقًا أنّ لكلّ جرح خاتمة لكنّ وهمه باستقامته وظلال الطريق الصحيح آذياه بلا نهاية.
اليوم، بعد كلّ الذي حدث ممّا عرفت، ممّا كان يمكن أن أعرف، وممّا لم ولن أعرفه أبدًا يحقّ لي أن أرى ما يختبئ وراء

مختلف الغلالات وأحجبة الفتنة الوهميّة. في حاجة إلى الفتنة ولكنّ الدنيا لم يعد فيها ما يثير شهيّة الانتحار وما يهزّ الافتتان.
هل كان من الضروري أن أرتهن للصدفة القاتلة لأرى صفاء الخيط، إنّي الآن أراه بمطلق الرّاحة وبمطلق العذاب الذي لا يطاق. الألم عندما يصل إلى منتهاه يموت الجسد ويتضاءل الخوف من الموت بل الموت يصير أمنية مستحيلة.
أستطيع اليوم بعدما هدأت أصوات الرّصاص وعواصف الخوف وصراخ المقتولين على منحدرات البلاد البعيدة ولملم القاتل والمقتول جثثهم، أن أعود إلى الصدفة التي لاقتني بك في ذلك الشتاء البارد ومنحتني الكثير من الحياة والكثير من الحزن والنسيان. لقد كنت فرحي وخرابي الكبير. كان الهواء رطبًا في ذلك المساء العاشق، الليلة نفسها كانت مرصّعة بالنجوم وقرأت الدهشة في عينيك.
قلتُ لك:
– لماذا النّاس هكذا؟ كلّما أحببناهم ازدادوا ضراوة وتنكّرًا. هل عليّ أن أكره لأزداد قربًا من الآخرين؟
يبدو أنّ في النّاس قدرًا من العصيان يسير مع الدم. لن يرتاحوا إلاّ إذا قتلوا الروح التي فيهم بكثير من الحيلة والأنانيّة.
التقينا قلبين منكسرين يبحثان عن ظلّ صغير يختبئان فيه. كان هبلي كبيرًا وطفولتك مقلقة. وطوال السنوات ونحن نحاول عبثًا أن نجعل الفوضى ترتهن للنظام والنظام يقبل بصدق الفوضى ونراهن على كذبة حبّ النّاس البيضاء التي أفقدتها السنوات المتعاقبة لونها الأوّل.
أشهد لك اليوم بالصبر وطاقة التخفّي. لقد كنتُ دائمًا أجانب

الصواب وأحزن من شيء لم يكن هو في الحقيقة ما يدعو الى الحزن. عندما تُظهر امرأة الصدفة بعض خفائها، تخبّئ الأكثر هولاً لأنّها تعرف مسبقًا أنّ غباوة الرجل لم تعلّمه إلاّ هدهدات اليقين الوهميّ.

يا يوسفي الصغير؟ ألم تعرف بعد أنّ لا يقين في الدنيا سوى الموت. حتى الحياة ليست سوى لحظة عابرة تكسرها النهايات الحتميّة. ألم تدرك بعد أنّ الذين يريدون رأسك كثيرون، إحذر لقد صاروا اليوم فيك يا ابن أمي وأبي فأنا ذاهبة تاركة لك أبوابي الموصدة وشططي الكبير.

رجالنا مبتئسون والرائعون فيهم يموتون مبكرًا. أنت لست منهم. أنت طفل جميل، حاذر أن تصير رجلاً. إترك لهم فتوحاتهم ورجولاتهم الوهميّة، فلست في حاجة إليها مطلقًا. أعرف صديقة، بعد خيبات متعدّدة، تأمّلت عشّاقها في العينين وعندما عرفت أنّهم لا يستأهلون أن تحزن عليهم تركتهم وتفرّغت للدنيا مرّة واحدة.

- Les hommes sont comme ça, ils frappent toujours à la mauvaise porte. Ils arrivent, le plus souvent, du mauvais côté sans le savoir.

الرجال يحاذون دائمًا الحقيقة ولا يلمسونها أبدًا، حيث يظنّون الصواب، يخطئون في كلّ التفاصيل الممكنة. وحدها المرأة تدرك سرّ اللّعبة وتتقن لمسها وتحريكها بلباقة تصل حتّى الجرح العميق.

هل يصلك الآن في خلوتك صوت التكسّرات الشاقّة التي تمزّقني؟ النحيب الذي تسمعه يأتي من عمق الروح هو نحيبي.

أنحدر الآن وحيدة نحو تربة الموت والخوف، في كفّي بقايا قصص قديمة لم تعد صالحة وموجات لم تسعفها الرياح لتصل

إلى القلب كاملة وخيبات لا تحصى. العمر لم يعد يسعفه الوقت للعودة لها وتصحيح مساراتها.

ما الذي يحزن امرأة بَنَتْ طوال العمر خلاءها بفرح لا يُضاهى؟ أنّها ظلّت وفيّة لخرافة هي أسّستها؟ أنّها تستطيع أن تقسم برأس كلّ الصّالحين بأنّ خرافتها التي بنت عليها أشواقها كانت هي الدنيا وهي الآخرة؟

أستطيع اليوم أن أقول بدون تردّد، منكّسة الرأس، أمام الله عندما يسألني عن باطن جرحي: إلهي لماذا لم تتخلَّ عنّي في وقت مبكر عندما لعنتك؟ أو عندما وضعتك وأنا صغيرة داخل غلاف رسالة ورميتك في أقرب شطّ لأنّك لم تجعل الطفل الذي أحببت يقاسمني كلمات الشوق، قلت لك أغرقها، فقد أعطيتها كلّ شيء ولم تعطني إلاّ هبة الفراغ. عندما هدأت الرياح، سمعت قعقعة ضحكاتك وهي تنكسر في الخلوة.

إغفر لي فقد أخطأت في يقيني، في الدنيا شيء آخر لا علاقة له بالعطاء. الحبّ، يا الله، أكبر حالة التباس، قد نحبّ رجلاً لا يلتفت نحونا مطلقًا، قد ننتحر لآخر وهو لا يعلم مطلقًا بوجودنا وقد ييبس آخر ليصير كالحطبة من أجلنا ونحن لا نعرف بل قد نرتمي في أحضان قاتلنا ونحن نعرف أنّه جلاّدنا الأبدي. يبدو لي أنّ وراء ذلك كلّه يختبئ عطش الروح. كلّ شيء لم يُشبع بالشكل الكافي، تبقى شهوته معلّقة إلى يوم تستفيق كالبركان الميّت. عندما تنطفئ الرغبات المدفونة، يخرج إلى النور ما يمكن أن نسمّيه حبًّا مثل ماء صاف بين الصخور الزرق لكنّه عندما يخرج تكون الدنيا قد ماتت في أعيننا والزمن قد مرّ والجسد قد كَلّ والبصر قد زاغ عن غيّه والعمر قد راح وتحمّل الصدمة يصبح قاسيًا وثقيلاً.

كذب الذين لم يصدّقوا أبدًا.

نكذب على أنفسنا كثيرًا إذ نظنّ بأنّنا نحبّ كثيرًا من النّساء وكثيرًا من الرّجال. الدنيا عودات مستمرّة إلى البداءات الأولى. باستمرار نلتصق بالذين تركناهم عراة ولم نشف منهم. وأنا جئتك لأشفى منك. ولا أدري إذا كانت ليلة جميلة كهذه كافية للشفاء منك؟

فالميت والميت المؤقّت والبعيد منذ زمن، يزدادون تألّقًا عندما يُصرّفون في ضمير الغائب.

أيها الغالي، حبيبي الذي صنعته من دفء الروح ومن خبايا القلب المرتبك. إلهي الصغير الذي بنيته من الخيبة والصدفة والقلق، إغفر لي، لم يبق أمامي إلاّ البحر، أضع فشلي بين يديك وأقول لك أعرني بعض الشجاعة لأعبر هذا الهول، أعطني زليخة يومًا واحدًا وسأركّب جنون الافتتان في قلب يوسف حتّى يفتح عينيه ويصير رجلاً. لم تعد لي القدرة الكافية لممارسة كذبة نارسيس الجميلة. نحبّ رجلاً لا وجود له إلاّ في خيالاتنا وعندما نكتشف هول الفداحة يكون الزمن قد دار دورته.

مرآة النرجسيّ عمياء وعماؤها لا يُداوى.

ما يزال في العمر متّسع لشفاء الروح، أعرني بعض الوقت فقط. وعندما تكبر، إعبر نفس البحر الذي سلكتُه ولا يهمّ إن استحالت عليك الدنيا أو خسرت العمر.

ألم تقل إنّك تحبّني أنت كذلك وأنّك لن تُشفى منّي؟ إذن لا تكثر الدقّ حبيبي، فلا أحد وراء الباب، لقد ذهب الذين كنت تحبّهم. عندما خرجوا في ذلك الصباح البارد كانوا يعرفون أنّهم لن يعودوا لهذه الأرض مرّة أخرى.

اليوم كلّما خطوت خطوة جديدة نحو حتفي الجميل، تذكّرت كلمات ميمون:

- نحن هكذا. لا نترك وطنًا إلاّ لنتزوّج قبرًا في المنفى.

-٣-

تصمت فتنة. تخبّئ دمعاتها الرماديّة وتنسحب فجأة من المكان وكأنّها تبخّرت مع الضباب الذي نزل فجأة على المدينة مصحوبًا بأمطار أشعر ببرودتها من وراء النافذة. وعندما فتحت عينيّ أكثر لأتمكّن من رؤية ما يخبّئه القلب، رأيتها هناك بقامتها العالية، عند الباب، بالضبط في المكان الذي تركتها فيه منذ عشرين سنة خلت. صافية ولكنّها لم تتوقّف، ككلّ مرّة، عن قهقهاتها المتكرّرة. قالت سلّمني الكمان وبدأت تشقّ القلب بعزف نشيد الأموات، آخر ما سمعته منها. ثمّ حطّت الآلة في زاوية الغرفة التي كنت فيها وخرجت. اتّجهت عيناي نحو بقيّة المكان، لم يكن هناك شيء سوى باقة ورد أصفر تحت ضوء خافت يعطي للنوار تلوّنات الوهم من الزهو والسعادة وقداسة الصمت والعتاقة. شعرت بخيبة ثم استكنت لأنّي أعرف أنّ فتنة تأتي دائمًا ولكن في الأوقات الأقلّ انتظارًا. قهقهاتها كانت هذه المرّة أقلّ عنفًا وانفجارًا ولكنّها مع ذلك قهقهت قبل أن تنسحب.

عشرون سنة وأنا أرى الشيء القاسي نفسه الذي لا أدري كيف أعرّفه: حلم أم كابوس؟

عندما دخلتُ إلى الحمّام، كدت أعود إلى فراشي. قلت في خاطري الماء ليس هذا وقت مجيئه. لا يأتينا إلاّ ليلاً ومرّة كلّ يوم

خميس. واليوم لم يكن يوم خميس. ثمّ وضعت يدي على وجهي لأغمض عينيّ قليلاً ولأتأكد أنّي تنصّلت كالنبتة الضارّة ولم أعد بتلك الأرض. علينا أن نعيد النظر في أنفسنا، ربما لم نعد صالحين أصلاً لتلك البلاد. هناك خلل ما لم يدركه المثقّف. إمّا أن يخرج من دائرة الضيق أي من العصر الذي يعيشه ويلبس عصر شعبه بقبحه وتخلّفه أو يظلّ يصرخ في بحر ناشف، ويقبل بموته الهادئ والأكثر عنفًا. سيقتلنا في شارع ما الشخص نفسه الذي نستميت يوميًا في الدفاع عنه ويستميت هو في الدفاع عن شرطه الذي لا تربطه بالعصر إلاّ الكلمات والبيانات التي قام بترييفها واحدة واحدة في جهد محموم حتى صارت تشبهه.

تأمّلت سقف الغرفة. شعرت بالحاجة إلى استعادة كلّ المفقودات التي تنام في قاع القلب المتعب. أستطيع اليوم أن أقول بدون تردّد أنّي جانبت الحياة وأنا أقوم بحصيلة العمر. القلب الذي ازدادت هشاشته وكلّما شعرت بوجع فيه أتمتم في أذنيه، قاوم؟ لا تتخلَّ عنّي الآن، فما يزال هناك متّسع للحنين والحياة. لكنّي متأكّد أنّه سيتوقّف يومًا في الأوقات الأقلّ انتظارًا. قبل شهر زرت الطبيب تحت إلحاح أحد الأصدقاء. كلّ نصيحته هو أن لا أفكّر، في وضع كلّ ما فيه يدعو إلى مزيد من الجنون. المطلوب منك أن تأمر قلبك ومخّك بعدم السير وفق السرعة المجنونة نفسها التي تسير بها. أن تتسطّح قدر المستطاع مثل أيّ غبيّ في المدينة. الوحيدون في هذه الدنيا الذين يتحمّلون ثقل الحياة، هم الذين يواجهونها بمزيد من الغباء واللاّمبالاة.

يبدو لي أنّ حالة الحبّ الملتبسة، حالة دائمة الفشل أجمل شيء فيها أنّنا نقضي مطلع العمر كلّه في ترميم الكسورات المترتّبة

عن هذه الهشاشة.

عندما انتابتني غفلة الحياة، ضيّعت المنعطف الصغير الذي لا يُرى بسهولة وظننت أنّي لم أره مطلقًا. إنّنا نذبل مثل النباتات التي تحيط ببيوتنا الصغيرة ونموت مثلما تموت بعيدًا عن الشمس في بلاد لا شيء فيها سوى الشمس. كلّ ممتلكاتي الخاصّة تنام الآن في قلبي المتعب. كلّ اللواتي عرفتهنّ وكتبت عنهنّ أجمل الخيبات لم يملأنَ فراغات فتنة التي صارت شروخًا وهوّات كبيرة في الذاكرة. ها هنَّ يأتينَ كالغصّات المتلاحقة...

صفاء أو غيمة، كما كانت تشتهي أن تسمّي نفسها لأنّه لا أحد إلى يوم زواجها استطاع أن يروّضها، تنفلت من الكفّ الآسرة كالضوء الهارب أو كالغيمة. تكرّر على مسمعي عندما تنتابها لحظة صفاء: تعرف أنا هكذا. إمّا أنْ أُقبل كما أنا أو أُرفض جملة وتفصيلاً. سأظلّ غيمة تعبر كلّ الأراضي ولن تنزل إلاّ على التربة التي تشتهي. كانت أوّل امرأة عبرت القلب بعد ضياع المهبولة في عرض البحر أو في عرض الدنيا. حامت حول القلب طويلاً وعندما لامست العمر وهو يزحف بسرعة نست الشِّعر وفضّلت أن تحمل أثقالها وتعود إلى قريتها نحو زوج اختارته لها العائلة بعدما يئست منّي وتأكّدت بأنّي رجل لم يعد صالحًا للزواج مطلقًا ولا حتّى لشيء آخر. غيمة، كلّما رأت البحر، بكت قليلاً ثم أسندت الرأس على الصدر متمتمة في صوت لا يكاد يسمع مع تقطّعات الموج: آه فقط لو لم تكن هكذا. رجل فقط. أبتسم وأنا أضع حفنة الماء على شعرها: وما هو الرّجل في نظرك؟. تنظر إلى وجهي، تواجهني عيناها المفتوحتان عن آخرهما بدهشة طفوليّة قبل أن تحني رأسها: أن تكفّ عن أن تكون أنت وتنسى المهبولة وتتزوّج.

أضع يدي على خصرها كالعادة ثمّ نواصل تدحرجنا:

– المهبولة، سقمي الكبير.

سعديّة لم تستطع التخلّص من عادة المراهقة والتشعلق على الأسطح ورؤية المارّة واقتناص العيون والتفكير في السفر إلى أبعد نقطة في هذه الدنيا. البلاد هذه ميؤوس منها كما كانت تقول في لحظات قلقها. ربّما أخطأت في نقدها. سافرت ذات صباح مع رجل يكبرها بأكثر من أربعين سنة ولكنّه وفّر لها إمكانيّة الخروج بعيدًا عن هذه الأرض. جاءتني ذات مساء لتعلن:

– يا صديقي ما كان بيننا كان ممتعًا ولكنّه لم يكن كافيًا. ألم أقل لك إنّ طلعة السطح ستأتيني برجلي. ها هو ذا قد جاء. يكبرني بأربعين سنة ولكن أفضل لي بكثير من أن أظلّ هنا أبرّر في كلّ لحظة حبّي للحياة ولجسدي. مقيم خارج هذه الأرض، سيخرجني من هذا العفن الذي اسمه الوطن.

– أنت مخطئة. فما يزال في البلاد متّسع للفرح. سترين.

– ما أحلاك عندما تقول الشعر؟ قل لي أين هو الفرح الذي تتحدّث عنه وسأتبعك حافية القدمين، مغمضة العينين حتى التهلكة. من اليوم سأكون مثلك. لن أرى في الدنيا إلاّ ما يشتهي قلبي أن يرى. متّسع البلاد الذي تراه، سأتركه لك. إبنها يا خويا لوحدك. الله يكثر من أمثالك. سأصلّي من أجلك صبحًا ومساء حتى تنجح في مهمّتك النبيلة. ألا تعلم بعد أنّك أصبحت تخرّف؟ أنا عييت ولم أعد قادرة على الكذب. البلاد سُرقت وأنت ما زلتَ تجانبها وتدغدغ الكذب الجميل. تعرف يا ياسين ربما كان هذا الإحساس المتنامي هو أسوأ وأجمل شيء فيك. نيّتك ونزعتك الطفوليّة كبيرتان. أُخرج برّا شويّة وشوف. أنت وسط جيش

انكشاري. أحجار المدن التي يسكنونها أكلوها. وغدًا، الذي تدافع عنه اليوم سيكون أوّل من يرشق في صدرك سكّينة. أُخرج برّا وشوف وأرواح قل لي. أخرج من هذه الحفرة لا للذهاب إلى العمل منكّس الرأس حتى لا يعرفك المارّة ولكن أُخرج لترى ناس هذه المدينة وأعماقهم. كلّ شيء فيهم تصدّأ وتخرّم مثل حيطان بيوتاتهم.

أفتح اليوم عينيّ على المدن نفسها التي حدّثتني عنها سعديّة، فأجد أنّنا كنّا نحطّمها ونحوّلها إلى ريف فَقَدَ عفويّة الريف ومدينة لا شيء فيها يوحي بذلك سوى كونها مبنيّة بحجارة وإسمنت مسلّح. لماذا نخجل أن نقول إنّ المدينة كانت لهم وإنّ الذين دخلوها كفاتحين، كانوا قتلة. حملوا المعاول التي لا تعرف إلاّ التهديم ثم تصالحوا مع طراوتها وعندما انتهت الطراوة ولم تعد تنتجها هذه المدن، داروا عليها وأكلوها وأحرقوها. سيقولون عنك إنّك تحنّ إلى الاستعمار أنت الذي فقد الوالد في حرب أكلت كلّ عشّاق البلاد التى أخذها الآخرون ومنحونا الخطابات التي قتلتنا قبل أن تقتل منشئيها. ليكن. لم تعد اليوم الإجابات التي تأتينا من الآخرين مهمّة. لقد صار سمعنا موصدًا من هذه الناحية.

ثم... بعد سنوات من التردّد والفراغ، في معرض لسيّد المنمنمات الأكبر محمد راسم، أُقيم في ذكرى اغتياله، التقيت بنادين، أستاذة بإحدى ثانويات باب الوادي. كانت تحمل في عينيها الغامضتين شيئًا من السخرية والثّقة. أحببتُها وخنقتني غيرتها. تقول إنّ المرأة مثل أنثى القردة، تقتل بدون تردّد عندما يؤخذ منها ذكرها الأوّل. ومع ذلك، بعد كلّ هذه السنوات، عليّ اليوم أن أعترف أنّي تعلّمت منها مهارات استثنائيّة. طيبة نادين

الكبيرة لم تمنعها من الذهاب في شطط الحبّ إلى أقسى درجات الجنون. قالت أنا أحبّك والبقيّة طزّ في كلّ شيء. تركُ كلّ ما كانت تملك لم يكن يشغلها بتاتًا. حتّى ترك العائلة وتطليقها لم يعد مشكلة وهي الملتصقة بوالدها كالظلّ.

– أعيش معك حتى بدون زواج وأتحمّل تبعات الخزرات الخسيسة للجيران ولكن مقابل كلّ هذا لو كان نشوفك مع امرأة أخرى أقتلك وأقتل روحي بعدك.

الدنيا القاسية أنستها هواها الأوّل. تزوّجت في زحمة الخيبات المتتالية وأكلتها تفاصيل المدينة مع مهندس نفطيّ لا شغل له إلاّ الحرب الخاسرة مع الحياة. يصرّ يوميًا على إسماعها أشرطة فقهاء بيشاور وجامع برّاقي وأئمّة باش جراح الذين يعتبرهم قدوة الزمن القادم والفتوحات الإسلاميّة في أرض الإسلام. وفي آخر الليل، عندما تتعب، تمدّ عبثًا يدها إلى جسده الميت، فيبعدها بعنف ويعطيها بظهره وهو يتمتم: على المؤمن أن يقاوم الغواية حتّى عندما تأتيه من زوجته. تتلمّس رأسَي حلمتيها الباردتين، تضغط عليهما بحنوّ ثم ترشق خزرتها في سقف البيت، في الظلمة، وتترك أصابعها المرتعشة تنزلق نحو أسفل جسدها حتى يغالبها النوم مفتوحة العينين، مثقلة الرأس والجسد. في الصباح عندما تخرج نحو عملها، تحاذي الحيطان ولا تلتفت خوفًا من ظلّه. تشعر به وراءها دومًا. ولا تعود إلى طفولتها الأولى إلاّ عندما تتأكّد من عودته إلى قاعدته النفطيّة بجنوب البلاد. منذ الساعات الأولى لزواجهما ردمها في حجاب أسود يشبه الباش في ثقله ثم غيّر اسمها، قال لها لا أريد سماع أسماء الكفر والإلحاد. من أين جئتِ بهذه الخيبة وهذا الفساد المعلن؟ ويقطّع الكلمة معوّجًا فمه في

سخرية مهينة: يا عيني على الأسماء؟ نا...د..ي...ن...ن... أنت من اليوم عائشة، أمّ المؤمنين. كلّما ناداها بالاسم الذي اختاره لها، ارتعشت في مكانها وتقيّأت. أهلها يصرّون على اسمها الأوّل: نادين. عندما انتحرت نادين، فعلت ذلك بصمت. تجمّلت طويلاً أمام المرآة ثمّ لبست لباسها الزهري الذي ارتدته مرّة واحدة يوم عرسها قبل أن تحرم منه نهائيًا. فتحت كلّ النوافذ ليدخل هواء بارد إلى البيت ثم وضعت على المروحة القديمة المتدلّية من سقف الصالون الحزام الصوفيّ الذي أهدته لها جدّتها وربطت الطرف الثاني منه في شكل حلقة على عنقها وضربت الكرسي الذي كانت ترتكز عليه برجلها اليمنى بعيدًا ليتدلّى جسدها المتهالك كخرّوبة يابسة. في لحظة الاختناق، رفعت رأسها إلى السقف أملاً في أن ينفرط الحزام أو تسقط المروحة ولكن بدون جدوى ثم أغمضت عينيها على شيء وحدها كانت تعرفه واستسلمت للموت. لم يحضر جنازتها إلاّ أهلها وبعض الأساتذة الذين كانوا يشتغلون معها في نفس المؤسّسة بينما تغيّب زوجها.

ليلى، فنانة بالمسرح الوطني ومقاولة. انفصلت في وقت مبكر عن عائلتها البورجوازيّة واختارت طريقها الخاصّ. كانت تعيش قساوة حبّ رجلين. بين زوج لا يفهمها ولكنّه يوفّر البيت والراحة والاستقرار وعشيق لا يوفّر الشيء الكثير، حفرة لا يعرف إذا كانت قادرة على حمايته وتخبّئته من محيط منهمك في عيوب الناس أكثر من الاهتمام بشأنه اليوميّ ولكنّ قلبه مشرّع كنافذة مفتوحة دومًا على بحر. مع الزمن صارت تنظر للحالة كحالة فلسفيّة ولم تكن في حاجة لتبرير عقدة الذنب في انتظار استقامة الحال والأحوال لترك الازدواجيّة وعيش حياتها كما تشتهيها ولو

لمرّة وحيدة قبل أن تنزلق نحو تربة القبر. عندما سألتني عن تعريفي للحبّ في أوّل جلسة في المسرح الوطنيّ. قلت بتهكّم:

– جئنا نرى المسرح أم جئنا نعرّف الحبّ؟

– حاجة وحويجة. يا الله يزّي من التمسخير. قل.

– أنت تنتظرين تعريفًا عالمًا لا أملكه. سأخيّب ظنّك.

– أعرف أنّك تملك ما يقنع.

– ليس كلّ ما يقنع بالضرورة هو الصحيح.

– يا الله قلها وبركه ما تتفلسف.

– الحبّ هو أن نتقن اللّعب في الوقت المناسب.

– أنت تظنّ إذن أنّ كل ما يحدث لنا من هزّات جميلة هو مجرّد لعب.

– أبدًا. ولكنّ الحبّ من الهشاشة المفرطة ما يدفعنا إلى أن نكون مستعدّين لأن لا نكون جدّيين دومًا. أن لا نكون نحن في كلّ الأوقات وإلاّ سنتعرّض إلى الفقدان. الحبّ هو أن تتعلّم كيف لا تخسر، في حالة محكوم عليها زمنيًّا بالتآكل الحتميّ والخسران. أنا الآن أمارس معك حالة غير حالة الحبّ لأنها يمكن أن تبعدك عنّي. كان يمكن أن أعيد على مسمعك كلّ ما يجعلنا مرتاحين في يقينيّاتنا الزائفة.

لم تتكلّم. في المساء حدّثتني في التليفون. قالت إنّها قادمة لتكاشفني في كلّ موضوعات الدّنيا إلاّ الحبّ لأنّها اقتنعت بعدم جدوى مثل هذه الأسئلة المنهكة. من يومها كلّما ازداد قلقها تأتيني لتبقى معي مدّة قبل أن تغيب ثانية ولا أحد يسأل الآخر عن سرّ غيابه حتّى جاء اليوم الذي خرجت فيه ولم تعد. عندما سألتها بعد زيارة خاطفة، قالت: تعبت وصمتك يقلق. أتفرّغ اليوم للمقاولة

والأطفال. عالم شنيع وفارغ علينا أن نأخذه كما هو ولا نحمّله بؤسنا الدائم. الطبيعة البشريّة مآلها التكرار ولا مخرج لها إلاّ الموت.

– وحياتك اليوم فقط بدأت أعرف لماذا انتهى العقل بنيتشه إلى الجنون، كان يريد أن يعرف عالمًا هو أوّل العارفين بتكرّره الدائم. مرّة على مرّة أقول له: يرحم والديك يا نيتشه، فتّحت لي عينيّ في آخر العمر Mieux vaut tard que jamais ...

رشيدة من معدن آخر. تصرّ دائمًا أنّه بالإمكان ممارسة الحبّ والحفاظ على البكارة. عندما تحاول أن تمنطق الموضوع، تتحدّث عنه كأنّه فتح من الفتوحات الخارقة، كيف استطاعت امرأة أن تكابد مشقّات اللذّة الكلّيّة وتحافظ على بكارتها وسنّها تزحف نحو الأربعين في انتظار سعيد الحظ الذي سيكون الفائز الأوحد بها؟ الجنس بالنّسبة لها طقس هي الفاعل المركزيّ فيه. تكرّر دومًا:

– اللي يخْشيها لي ما زالْ ما وَلْداتوش يمّاه.

تحيط نفسها بهالة من الاهتمام وبعشّاق هي تصنعهم وتتركهم معلّقين. وعندما سألتها قالت:

– تعرف، أكبر مقتل للرجل هو أن تشهّيه ثم تتركه معلّقًا على خيط الرّغبة.

– أنت سعيدة بذلك؟

– وماذا يهمّك أنت ما دمت أنت الرجل الوحيد الذي يملك الحقّ في لمسي والنوم معي في نفس الفراش. البقيّة أنا أعرف دواخلهم. قوّادون محترفون. عندما تمنحهم جسدك لليلة، يمزّقونه في كلّ جلسة. متخلّفون من أخمص القدم إلى شعرة الرأس.

– ليس هذا قصدي. ولكن الحالة غير طبيعيّة.
– وما تعريف سيدي للطبيعي؟
– أن تحاولي أن تكوني أنت.
– وإذا أصلاً هذا الأنا لم يكن موجودًا؟
– نبنيه من كلّ الحالات.
– أنا الآن بصدد الهدم وعندما أبدأ البناء سأشعرك بذلك.
– أنتِ هكذا دائمًا. لمّا تنغلق المنافذ تتمسخرين.
– وأنتَ إذا ما تكلمتش على المهبولة انتاعك، ما تعرف تقول حتّى شي.

بإمكانها أن تقضي معك اللّيل كلّه في سجاليّة لا منتهى لها. ذات يوم، وكانت البلاد قد بدأت تشتعل تحت وقع الحرب الأهليّة. كنت مأخوذًا بحرائق زليخة وعينيّ فتنة وصوت نرجس الذي سجنني قبل أن تخلّصني منه المهبولة، كنت حزينًا ومغبونًا ووحيدًا. كانت الساعة الثانية ليلاً وأنا بصدد وضع اللّمسات الأخيرة على تمثال المرأة التي لا رأس لها، كنت منهمكًا في الطين والعجائن الغريبة، قالت لي رشيدة بكلّ صراحة وكانت محقّة لأنّها اختارت المنعطف الحقيقيّ:

– بيتك يا حبيبي يذكّرني بالسجن وبحرائق الحروب الخاسرة. لست مؤهّلة لهذه الحياة. ثم إنّ الموت على الأبواب وهذا البيت لا ينقذني ولا ينقذك.

قضينا بقيّة اللّيل حتى الصباح صامتين وعلى السّادسة ودّعتني ولم تأخذ شيئًا من حوائجها. بكت كثيرًا ثمّ غادرت المكان ولم تلتفت وراءها...

كانت الوجوه تأتيني منتظمة وواضحة الملامح، تدخل بهدوء،

تقف قليلاً عند التحف الصغيرة التي تملأ حيطان الغرفة، ثمّ تنسحب بسرعة داخل الغيوم التي كانت تزداد كثافة على المدينة.

فتحت النافذه لاستنشاق بعض الهواء النقيّ. تسرّب خيط من البرودة كنت في حاجة ماسّة إليه لأتأكّد أنّي في قلب مدينة فتنة. شعرت كأنّ اللّيل يأتي مبكرًا في أمستردام. كانت حركة الناس في الشارع المواجه لنُزُل الكنال هاوس تزداد كثافة. الناس هنا يخرجون في المساء لمعرفة مقدار حبّ المدينة لهم ويختبرون حساسيّتهم تجاه الأشياء المحيطة بهم. نحن، في أرضنا وخارجها، نغيّب أنفسنا في حفرنا اليوميّة قبل أن تغيب الشمس لنعلن استعدادنا لموت ينتظرنا في زاوية ما في الوحدة والعزلة. الغريب كلّما هربنا من الأمكنة تستيقظ هي فينا بكلّ تفاصيلها وكأنّنا هززناها في غفوتها أو استثرناها بشيء ما. كلّ شيء جميل يعيدنا إلى أصل منكسر لا نستطيع التخلّص منه.

كم أتمنّى أن أفتح عينيّ عن آخرهما وأجد نفسي خارج مرض الذاكرة. لماذا لم يفكّروا لنا في أخصّائيين لا لاستعادة الذاكرة ولكن لإطفاء شعلاتها المتّقدة والتخلّص من أثقالها التي لا تدفع إلاّ إلى مزيد من الشطط والعزلة؟

أنا كذلك أريد أن أنسى لكنّ أمطار أمستردام التي ازدادت ضراوة تفتح الآن مدافن القلب أكثر وتشرّع كلّ الأبواب الموصدة عن آخرها.

الفصل الثالث

دَوْرِيَّةُ رَامبرَانْت اللَّيْلِيَّة

-١-

الثامنة.

أمطار أمستردام لم تزدني إلاّ التصاقًا بالذاكرة المنكسرة.

لم أنم في مدينة أخرى إلاّ تلك المدينة التي أحاول اليوم أن أتفاداها. مثلها مثل فتنة، عندما كانت تأتيني، لا تستأذن. لمحتُ وجهها الطفوليّ وهو يعبر بهو البيت المؤدّي إلى المرسم وحجرة النّوم. كانت آن فرانك تجلس على السرير المتآكل، كما كانت تفعل في أوقات الخوف في ملحق البيت وتضع أذنها اليمنى على الحيطان، تتحسّس خطوات المارّة في الخارج. ثم تأتي بالقرب منّي، تجلس بجانبي وهي تتمتم وتصطنع شجاعة أكبر من سنّها:

- هاه، لقد ذهبوا.

- آن؟ لا يوجد أيّ شيء. المدينة الآن نائمة.

لقد ذهبوا. أحسّ بارتعاشة صوتها وبنبراتها الطفوليّة المتقطّعة. ولكنّها كانت هنا دائمًا مع سيل الذين ذهبوا ولم يشبعوا من الحياة، تفتّش عن أيّ شيء يمكن أن يربطها بالحياة.

كنت كلّما انغلقت عليَّ مسالك الدنيا، أفتح مذكّرات آن فرانك كعاشق يقرأ أوّل رسالة حبّ وصلته من امرأة أحبّها العمر كلّه صامتًا. أقرأ تفاصيل الوجه الطفوليّ. الدنيا لم تتغيّر كثيرًا. الأصوات نفسها والإرباكات نفسها والارتعاشات وحالات الصمت المتقطّع والأنفاس المحتضرة التي لا نجد ريقًا لابتلاعها. الخطوات الثقيلة ما تزال ههنا، على حافة الذاكرة، الخوف نفسه الذي يتسرّب من بين شقوق الحائط ومعابر البناية ومجاري المياه التي نخشى أن يفاجئونا منها... ليس كابوسًا ولكنّي كنت أسمع أنفاس كلّ عائلة آن فرانك وهي تتقطّع. الخطوات الثقيلة، في الطابق الأوّل وكأنّها مطارق تدكّ الدماغ بقوّة. الجميع يتسمّرون في أمكنتهم. وقع الأحذية الخشنة يصل الآن إلى البهو ثمّ... يتوقّف قليلاً في المكتب الخاصّ، قبل أن يعبر نحو المطبخ ثمّ... الدرج المؤدّي إلى الملحقة. الأنفاس تحبس نهائيًا في حالة شبيهة بالموت. ثمانية قلوب ترتعش بيأس. الهزّات الأعنف كانت تأتي من المكتبة. كارثة، تمتمتْ آن. فجأة يظهر في مخيّلتها المتعبة الثمانية وهم يقادون ليلاً من طرف الغيسطابو. هزّتان عنيفتان أخريان على باب المكتبة وسقوط إحدى العلب ثم لا شيء. اعتلت الجميع رعشات متتالية، وباتّساع مساحة الصمت والخوف، كانت الأسنان تُسمع وهي تصطكّ. ثمّ... شيئًا فشيئًا تبتعد الخطوات الثقيلة وتنهض الحياة من جديد. لقد نجا الجميع، هذه المرّة على الأقلّ.

لم أكن أرى معلمًا أثريًا ولكنّي كنت في عمق رعشة الخوف. فقد ظلّ بيت عائلة آن فرانك مغلقًا مدّة من الزمن قبل أن يُفتح للجمهور سنة ١٩٦٠. واجهة الدكّان لم تتغيّر كثيرًا. كان فرانك

أوطو يبيع به التوابل. شعرت بالاختناق وأنا أعبر العتبات الأولى. كيف يمكن للنّاس أن يموتوا على مرأى من تواطؤات البنايات المحيطة والنّاس؟ سنتان تحت الأرض؟ رأيت خطوات آن فرانك الصغيرة وهي تحتفل بعيد ميلادها الثالث عشر وتركض نحو والدها لتستلم منه الكرّاسة التي أهداها لها بالمناسبة. كتبتْ يومها هذه الكلمات الأولى: اليوم الجمعة ١٢ جوان استيقظت باكرًا. طبيعيّ، لأنّ اليوم عيد ميلادي. ولكن كان ممنوعًا عليّ أن أقوم من فراشي ولهذا اضطررت للصبر حتى الساعة السابعة إلاّ ربعًا... كانت الحُجرة فارغة ومع ذلك تشعر بها مليئة بالحشرجات والاختناقات. في القاعة الأولى خارطة النورمندي التي تُظهر بشكل واضح زحف الحلفاء. وعلى الحائط الثاني علامات متفاوتة تُظهِرُ قامة الأطفال المتزايدة. حجرة آن بدورها لم تتغيّر، ما تزال الصور ذات اللونين الأبيض والأسود لفنّاني الفترة، المعلّقة على الحائط القديم، تعبّر عن ذوقها المرهف. في وسط البيت مجسّم صغير لكلّ الدار مثلما كانت أيّام الاحتلال النازيّ، لم يُضَفْ لها إلاّ المعبر الصغير الرابط بين الدار والملحقة.

كانت الساعة العاشرة إلاّ ربعًا عندما عدت إلى الكنال هاوس. فجأة رنَّ التليفون. مددت يدي نحو السمّاعة. وصلني دافئًا وناعمًا صوت ماريتا الذي كنت أنتظره:

– أتمنّى أن تكون قد نمت جيّدًا وارتحت قليلاً من متاعب السفر.

– كلّ شيء على ما يرام.

– سنمرُّ عليك على الساعة العاشرة والنصف أنا ومدير المؤتمر الذي يريد أن يرحّب بك شخصيًا. حضورك يشرّفنا.

- شكرًا. أنا في الانتظار.

في الخارج كان اللون الرماديّ يملأ سماء أمستردام. أتحسّس ما يمكن أن تخفيه ظلال الأشجار وراءها. ما تزال بذهني حالة الاحتراز من كلّ ما يمكن أن يترك فجوة للقتلة. كدت أصرخ في وجهي. ألم تتأكّد بعد بأنّك صرت في مدينة لست فيها في حاجة لسدّ نوافذك على الهواء؟ ولست في حاجة لفتح الحنفيّة لتقتنع أنّ الماء يسيل في كلّ الأوقات. لست في حاجة عندما تدخل الشوارع أن تلتفت مثل السارق. أنت لم تأخذ شيئًا من مدينتك التي تخلّت عنك سوى العطش والرعشة وسكتة قلبيّة مؤجّلة إلى يوم لا تعرفه ولست مستعدًّا لسماعه. نظريّتك في هذا واضحة: أجمل حالة موت هي تلك التي تأخذنا على حين غفلة ولا تترك لنا فرصة السؤال والخوف.

نظرتُ إلى الساعة. الزمن يسيل كالماء. كم تمنّيت أن لا يتوقّف ولكنّه كان يجري بسرعة كنت عاجزًا على متابعتها واقتفائها. عندما نزلت الدرج، كانت ماريتا في البهو تنتظر مع رجل ذي وجه طفوليّ وعذب وشقرة سويديّة:

- السيّد مدير المؤتمر يشكرك كثيرًا وهو ممتنّ لقبولك زيارة أمستردام قبل ذهابك إلى لوس أنجلس. إنّنا نريد أن نجعل من هذه التظاهرة الأولى من نوعها في أمستردام فرصة كبيرة للفنّ لكي يجد بعده الإنسانيّ في عالم يخضع لتطوّرات خطيرة وجديدة. عالم صار مهدّدًا بالزوال والانقراض.

شعرت بنفسي في حفل رسميّ ولكن مع ذلك أحسست بنوع من الخجل الكبير من مدير يأتي ليرى رجلاً قادمًا من بلاد لا شيء فيها يفرح أو ينبئ بوجود ما.

تلعثمت.

- يشرّفني وأنا سعيدٌ جدًّا بالتعرّف عليه.

تكلّمَ قليلاً، فترجمت ماريتا.

- السيّد فيلهام، المدير العام للمؤتمر، يتشرّف بلقاء فنّان إنسانيّ لا يملك إلاّ فنّه لرفض الوحشيّة. قلبه مع النّاس الذين يقفون ضدّ الهمجيّة البدائيّة.

في لحظة من اللحظات انتابني إحساس غريب. شعرت بها تتحدّث عن شخص آخر غيري. أنا لم أفعل شيئًا سوى أن عشت الإصرار على الخيبة ومن حين لآخر أتذكّر كلام ألبير كامي: المهمّ عند الفنّان أن يكون شجاعًا وأن يدافع عن كرامة فنّه. لم أفعل أكثر من هذا. لم أخرج عندما كانت البلاد تحترق حبًّا في المقاومة، فمنذ زمن بعيد لم تعد الخطابات تحرّكني، فقد أُصبت بحالة تعطّل كلّيّ من هذه الناحية. لم أخرج لأنّه كان من المستحيل عليّ التنفّس خارج الحفرة التي كنت أسكنها. لا شجاعة في كلّ هذا، على العكس من ذلك ربّما كانت الأنانيّة هي المحرّك الأساسيّ لفعل البقاء. الذين خرجوا لم يكونوا مخطئين، إنّهم يعيشون أقسى شرطيّات حياة الخيبة والمنفى والتعذيب الدّاخليّ وهو ما لم يكن بمقدوري تحمّله.

الآن الوضع تغيّر. لقد صار القتلة أنبياء والناس الذين مثلي زوائد وطنيّة.

- يشرّفني سيّدي المدير تواضعكم ووجودكم هنا. أنا ممتنّ جدًّا لعواطفكم الكبيرة. كم نحن في حاجة سيّدي المدير لكلّ ما يعطينا مبرّرًا للوقوف باستقامة. شكرًا جزيلاً.

- كيف وجدتَ أمستردام؟

- لم أتجوّل بها بعد. زرت بسرعة دار آن فرانك. شعرت بحزن كبير. عالمنا ليس عادلاً.

- نعمل لا لننسى ولكن لكي لا نقف عند حدود الألم. أمستردام مدينة ليست كبقيّة المدن الأوروبيّة. أمستردام مدينة متواضعة ولكنّها بريئة كطفل.

لكن في هذه المدينة كلّ شيء متواضع. بناياتها، طرقاتها، معابرها المائيّة، القنوات الجميلة. حتى المدير متواضع ممّا يدفعك إلى التساؤل أهو مدير أم إنسان كجميع الخلائق؟ من كثرة البيروقراطيّة صرنا لا نتصوّر مسؤولاً إلاّ ووراءه حاشية. مدراؤنا لا يتنقّلون، لاستقبال ضيوفهم في النُزُل، في أحسن الأحوال، يتمُّ ذلك وراء مكتب مثقل بالأوهام والصفقات المخفيّة. لا يحضرون المآدب التي لا خير من ورائها. مدير الثقافة هو أوّل من يكره الثقافة. مدير المسرح هو آخر المقتنعين بجدوى هذا الفنّ في المجتمع. وزير الثقافة يُنتقى من النخب التي تعادي الثقافة والمثقّفين وهكذا...

- في المدينة أشياء كثيرة يجب أن تكتشفها قبل ذهابك إلى لوس أنجلس. متحف فان غوخ، رامبرانت. على كلٍّ سنحاول أن نسرق بعض الوقت لذلك.

قالت ماريتا.

- أنتم منشغلون بالمؤتمر، ثمّ إنّ الأمكنة ليست بعيدة، سأحاول أن أفعل ذلك بدون تكليفكم مشقّة إضافيّة. الأفضل أن أكتشف المدينة لوحدي.

- لا عليك. إترك المسألة جزئيًّا عليَّ. سنذهب إلى متحف الريشكميوزم.

- اختيار صائب.

- أنت تعرف أنّنا نحتفل بمرور قرنين على تأسيسه ولهذا اخترنا أن تكون معظم فعاليّات المؤتمر بداخله. فقد كلّفنا ذلك ترتيبات كثيرة ولكن لا يهمّ.

- كم أشتهي أن أرى دوريّة رامبرانت. لقد أسالت حبرًا كثيرًا. ولوحات فيرمير الصغيرة وفرانز. أعتقد أنّها كلّها بالريشكميوزم.

- أمامنا بعض الوقت يمكن استغلاله إيجابيًّا.

- نمشي، لربح الوقت.

تمتم المدير.

- نمشي.

ردّت ماريتا.

خارج الكنال هاوس، كان الضباب الدافئ قد احتلّ كلّ المدينة. التفتُّ عفويًّا ورائي قبل أن أستقلّ سيّارة المؤتمر بجانب المدير. ملأت رئتيّ للمرّة الثانية بهواء أمستردام الرطب والبارد. كانت أعمدة النور التي بقيت مشتعلة قد أُطفئت نهائيًّا. أعمدة النور ههنا ليست أخشابًا منخورة من الداخل كالأشجار الميتة.

-٢-

الريشكميوزم وحده يعطي شهوة البقاء مسمّرًا عند حيطانه وأسقفه العالية.

جئناه من المدخل الرئيسيّ. قالت ماريتا وهي تحاول أن تخنق نقرات كعبها العالي.

- من هنا أفضل. للمتحف عدّة مداخل، إمّا عن طريق محطّة الترام رقم: ٢ و ٥ Hobbemastraa هوبيمسترات إذا جئتَ من

محطّة القطار المركزيّة. وإذا جئت من الدام Dam ، الترام رقم ١٢٤ ، ٢٥ في موقف ستراد‌ودرسكاد Stradhouderskad أو بكلّ بساطة عن طريق سفن وزوارق القنوات المائيّة، الميوزم بوت تستحقّ أن يجرّبها الإنسان. مريحة وجميلة.

– يجب أن تُخصّص لكلّ هذا زيارة خاصّة.

– مشكلتي أنّ الوقت الذي أسحبه ورائي، محدود.

– سنمرّ بسرعة على الأقلّ على دائرة الفنون التشكيليّة الموجودة في الطابق الأوّل، من صالة ٢٠١ إلى صالة ٢٣٦. سأريك الصالة ٢٢١ التي بها أهمّ لوحات فيرمير: الحلاّبة، امرأة تقرأ رسالة، الشارع الصغير ورسالة حبّ.

– لوحاته الصغيرة تشكيل مجنون من الألوان. قليلاً ما نجد فنّانًا بهذه القوّة الاستثنائيّة، يجعل من التفاصيل الصغيرة مادّته الحيّة.

– بدون ذلك لا وجود لفيرمير. في الصالة المجاورة توجد دوريّة اللّيل لرامبرانت التي تريد رؤيتها. وهي من أكثر اللّوحات التي يتوقّف عندها الزوّار طويلاً.

– قرأت عنها الكثير. السجال حولها مثير للانتباه. بعضهم يرفعها إلى أعلى القمم بسبب قدرة رامبرانت الاستثنائيّة على اللّعب على اللّونين الأبيض والأسود والظلّ والضّوء والبعض الآخر يعتبرها عاديّة ويرى أنّها مجرّد تصوير لواقع موضوعيّ، أي دوريّة القبطان فرانز بانينغ لوكوك والملازم الأوّل فيلاّم فان رويتنبورخ وبقيّة الحرس المدنيّ المكلّف بحراسة أمستردام ليلاً.

الذي أدهشني في اللّوحة وأنا أواجهها هو ضخامتها التي لم تكن مألوفة ودقّة الوجوه المتداخلة فيها ومسحة البؤس التي لم يستطع رامبرانت التخلّص منها.

قالت ماريتا وهي تنظر إلى ساعتها:

– تعرف، كلّ الذين باللّوحة معروفون إلاّ هذا الوجه الطفوليّ المشعّ بجانب القبطان لوكوك. لا أحد يعرف من تكون. ربّما كانت هي السرّ المغلق في هذا الرّسم. المؤكّد أنّها ليست ساسكيّة، زوجة رامبرانت كما افترض البعض. على كلّ حال، هناك لوحات أخرى له إذا بقي لديك بعض الوقت زرها. فهي مهمّة جدًا، خصوصًا الخطيبة اليهوديّة في الصالة ٢١٩.

ثمّ نظرت إلى السّاعة مرّة أخرى بطريقة تكاد تكون آليّة.

– الوقت. في فترة الاستراحات يمكنك رؤية التاريخ الهولنديّ في الطابق الأرضيّ. والمنحوتات التي تشكل جزءًا مهمًّا من مادّة الريشكميوزم. وكذلك التحف الصغيرة والفنون التزيينيّة وتشكيلات من فنون القرون الوسطى.

لا أدري كيف مرّ الوقت ولكنّي عندما دخلت رواق المؤتمر شعرت بالعطش. كانت الصالة عبارة عن فضاء بدون حدود، أضافت له المرايا الضخمة الموجودة في الزوايا اتّساعًا أكبر. ماريتا كانت هي وسيطي في كلّ لقاءاتي الرسميّة. عرفت فيما بعد أنّها لم تكن مجرّد مرافقة ولكن فنّانة وناقدة. على كأس قهوة ما زلت أتذكّر رائحتها القويّة، دار حديث مقتضب بيني وبين فيلهام حول تصوّري للتكريم الذي يطمح المؤتمر إلى غرسه كتقليد في كلّ فنّ من الفنون. قلت كلامًا عامًّا لست أدري كيف أوصلته ماريتا بترجمتها ولكنّه كان مزهوًّا وهو يودّعني ويلحّ على ماريتا أن تظلّ معي حتّى آخذ مكاني الطبيعيّ مع بقيّة الفنّانين الذين سبقوني إلى هذه الصالة الواسعة المسمّاة بالرواق. الهدوء والسكينة يعطيان للمكان جوًّا كنسيًّا. كنت أسير وفي الوقت نفسه كم كنت أتمنّى أن

أتوقّف للحظة واحدة فقط أتلذّذ فيها بالاتّساع وراحة البال.

انتبهت ماريتا وكأنّها كانت تريد أن تعطيني فسحة للكلام، فنحن عندما نأتي من بعيد تستيقظ أنانيّاتنا القديمة ونتمنّى أن تنتقل إلى بلداننا كل هذه الأشياء الجميلة ونقنع أنفسنا أنّ لا شيء ينقصنا، لا شيء سوى تلك اللّمسة السحريّة التي تجعل من الإنسان إنسانًا.

– هل أعجبك المكان؟

– تعرفين، عندما نأتي من بعيد لا نملك إلاّ أن نحسدكم على هذا الاتّساع؟

– العظيم في الإنسان أنّ كلّ ما فيه وكلّ ما يحيط به يتغيّر وبدل الخراب سينشأ حتمًا عالم يستحقّ أن يعاش بحبّ. المسألة مسألة وقت.

هناك شيء في بلداننا لا يسير وفق السير الطبيعيّ للأشياء. إنّنا نمضي العمر كله في تغيير الأنظمة، وأكل رؤوس حكّامنا، من الملكيّة إلى الرأسماليّة الليبيراليّة إلى الاشتراكيّة إلى العولمة، وكلّما ضاق علينا الحال نتخلّى عن النظام ونبحث عن بدائله التي أفنى الآخرون عمرًا لكي يصلوا إليها. هناك عطب كبير فينا نحن الذين نشتهي صناعة هذه المستحيلات. كلّ شيء يشبهنا حتى حداثتنا تحمل قدرًا كبيرًا من تخلّفنا. بعضنا يقفز إلى ما بعد الحداثة وهو لم يصفّ حسابه مع حداثته الخاصّة التي تسمح له بالذهاب إلى السهرات ومنع ابنته من رؤية صديقها أو زوجته من مرافقته عند الأصدقاء. لا. هناك كارثة نقوم نحن بنحتها والمحافظة عليها من الموت والتلف. ففي ذهابها سقوط كلّ ما ننشئه من مبرّرات وثوابت وهميّة.

– في مجتمعاتنا أكثر من سبعين بالمئة من الأمّيّة، وهذه الأمّيّة

أحيانًا هي التي تسطّر أقدارنا.

– صحيح. ولكنّك تعرف أحسن منّي أنّ الدنيا بقدر ما يبدو لنا أنها تتخلّف فهي أبدًا سائرة إلى الأمام حتى في أكثر الدول تخلّفًا. بدأت أزعج بثرثراتي. المهمّ. ها قد وصلنا إلى تمثالك. سنفتح بعد قليل أبواب الرواق للزوّار وسترى حبّ النّاس للاكتشاف. جمهورنا الثقافيّ من ذهب. نظّمنا في هذا الرواق الكثير من المعارض ولكن هذا الأوّل بالمستوى الدوليّ الذي سيكرّم فيه فنّانون عالميّون لأنّهم في نهاية المطاف هم الرئة التي تتنفّس منها الإنسانيّة هواء آخر أقلّ أذى.

– ماريتا. تشتغلين هنا بشكل دائم؟

– لا. أنا أمدّ يد المساعدة لإنجاح المؤتمر. ما عدا ذلك فأنا رسّامة وأستاذة بمدرسة الفنون الجميلة، قسم الفنون التشكيليّة. سأتعلّم كثيرًا من هذا المؤتمر.

عندما توقّفنا، كنت وجهًا لوجه مع تمثال المرأة التي لا رأس لها. تحسّسته قليلاً. هو هو. لم يُصَبْ بأيّ أذى، مثلما بعثته من هناك لآخر مرة. بل إنّ الأضواء الخافتة المسلّطة عليه من فوق، عمّقت أكثر كلّ أحاسيسي التي وضعتها فيه.

سحبتني ماريتا من يدي وقدّمتني للرّجل الذي كان يقف بجانب لوحة كبيرة احتلّ فيها اللّون الأحمر أغلبيّة المساحة.

– السيّد بيدرو، يمكن أن تكون قد سمعت به. فنّان من أندلسيا، إسبانيا. مقاطعة رائعة زرتها في السنة الماضية. في لوحته شيء عن بلادكم، ولهذا فاختيارات المكان بجانبكم لم تكن اعتباطيّة.

بيدرو، رجل ببنية قويّة وعيناه لا تستقرّان على مكان محدّد.

حيّيته ثمّ اقتربت أكثر من اللّوحة. قرأت عنوانه Argelia, Hoy لا أدري ما الذي أشعرني بامتعاض كبير، على الرّغم من لطافة بيدرو. شيء ما في لوحته كان يبعدني عنه. ربما كان الاستعمال السيّئ للألوان الحارّة أو للموضوع ذاته. الأكيد أنه كان يعرف ماذا يفعل. بدا لي في الحالة شيء من السذاجة الخالية من العفويّة. بلادنا أصبحت ملعبًا لكلّ المتخصّصين ولكن هل نستطيع منع الناس أن يكون لديهم رأي يخالفنا، فينا؟ المفروض لا ولكن عندما نُسأل لا نستطيع أن نسكت. الدم دائمًا أثمن من لوحة ولهذا يُفترض الاحتراز باستمرار عندما يتعلّق الأمر بجرح ما يزال حيًّا.

– كيف حال الجزائر اليوم؟

قالها بيدرو وهو يقرأ بعض امتعاضي في عينيّ.

– مثل أيّ بلد يعيش حربًا تعب كلّ المشتركين فيها.

– سبع سنوات مرهقة للذي يسمعها وللذي يسمع عنها ويحبّ هذا البلد.

كان الفنّانون مثل الحرس الوطنيّ، كلّ واحد يقف أمام منتوجه وإنجازه. المقصود من وراء ذلك كما ذكرت لي ماريتا، هو توفير فرصة اللقاء بين الفنّانين وسكّان المدينة وعشّاق الفنّ. كلّ شيء كان خاضعًا لترتيب محكم جدًّا ولإضاءة هادئة تعطي للألوان والمواد المستعملة في الإنجاز حضورًا خاصًّا وعمقًا يضفي عليها حركة تأتي من داخل المادّة الفنيّة المعروضة.

كان تمثال المرأة التي لا رأس لها يبدو وحيدًا وسط هذا العالم المتنوّع، تحت إضاءة تجعل من ملامحه العميقة تظهر بتدرّج. الذي وضع كلّ هذه التدقيقات كان يملك قدرًا من الصبر والحبّ لينجز عملاً بكلّ هذه الروحيّة. فقد أعطى من وقته الكثير لتوليف

الإضاءة بحسب كلّ مادّة فنّيّة. ضبط كلّ هذه اللمسات اقتضى تكاتف العديد من الفعاليّات من المنظّم إلى صاحب الإضاءة إلى دارس الألوان إلى المدقّق في كلّ الانعكاسات الأرضيّة والعلويّة والتجانس مع المحيط الذي يبدو لأوّل وهلة متنافرًا ولكنّه سرعان ما يدفع بالبصر إلى إعادة تركيبه وتقريبه. عندما أتذكّر كيف كان هذا التمثال ذاته ينام كلّ مساء في الكراتين القديمة أو في الصندوق الحديديّ كمومياء فرعونيّة وضعت في أكثر القبور رداءة، لا أستطيع كتمان سخريتي.

– هل تعرف لماذا اختاروا لك هذا التمثال؟

سألني بيدرو بنوع من الاستغراب حتى كدت أقول له هل التمثال سيّئ لهذه الدرجة ولكنّي شعرت أنّ طبيعة الرجل هكذا ولا يقصد الإساءة أبدًا.

– بالضبط لا أدري. ربما لأنه يشبهني. فالتماثيل أحيانًا تشبه أصحابها. ليس هو بالضرورة الأجود من بين أعمالي لكن المؤكّد، فيه من روح امرأة لم أرها أبدًا في حياتي، كانت تقتحم عليَّ هدوئي في آخر الليل من خلال مذياع صغير كان كافيًا لأن يجعلني أشتعل في كلّ مساء ومرتبطًا بها ومدينًا لها بالكثير ممّا حصل لي فيما بعد من أشياء جميلة. وفيه من امرأة أحبّتني ليلة واحدة بشكل جنوني وعندما بحثت عنها لأحبّها أنا بدوري لم أجدها. انطفأت كالنيزك الهارب. وفيه من أختي التي علّمتني كيف أكتشف سحر الأصابع وقدراتها على صناعة الدهشة، كان يكفيها أن تضع الطين الآجوري بين يديها ليصير كلّ ما تلمسه ذا معنى. لابدّ أن يكون الله عندما فكّر في الخلق لأوّل مرّة جاء بطينه الآجوريّ وصلصاله من قرية بيدر وطلب من امرأة بيدريّة أن تساعده على تدقيق

مخلوقاته ونزع الشوائب عنها.

– لم أفهمك جيّدًا.

– أردت أن أقول، للبحر أثر كبير في تماثيلي. من رمله ومادّة الطين التي آتي بها من قريتي أصنع ما تراه الآن. لا فضل لي في ذلك إلاّ ما تمنحه لي الطبيعة بسخاء.

– البحر؟

البحر وحده يوفّر لنا فرصة الاعتراف بالحماقات ويستمع إلى فضائلنا وخروقاتنا المتكرّرة بمزيد من التسامح والغفران. فتنة كانت تعرف سحره وأسراره. أمام هوله تستوي كلّ الأشياء. قالت فتنة في ذلك الصباح البارد قبل أن تتخطّى عتبات الموجة الأولى التي انكسرت عند أصابع رجليها الناعمة وقبل أن يغطّي جسدها الطريّ ضباب ذلك الفجر الذي صار بعيدًا، وهي تعرك حفنة رمل في كفّها:

– هل سيكون لنا بعض الحظّ لنصير جزءًا من حبّة رمل؟

– حبّة رمل؟

كنت في السنّ التي تجعلني أستغرب كلّ الأشياء المتناهية الصغر.

– في هذه الحياة لا شيء يندثر أو ينتهي في المطلق. كلّ ما يتحلّل ذرّات يجد جسمه الكلّيّ الذي يلتصق به ويأخذ منه بعض الحياة. حبّة رمل تعانق أخرى ثم تنفصل عنها وتلتقي ثانية بغيرها وهكذا إلى ما لا نهاية ليختلط تاريخ الدنيا في حبّة رمل واحدة. من البحر نتعلّم قوّة الصبر ويعلّمنا باستمرار كيف نكون متواضعين ونحسّ بأحجامنا الحقيقيّة المتناهية الصغر. أنظر إلى هذه الأمواج التي تتكسّر عند أقدامنا الواحدة بعد الأخرى، أين

تذهب أصداؤها؟ أنظر إلى هذا القدر من النجوم الهاربة، إلى أين تتسابق الآن بكلّ هذه السرعة الجنونيّة؟ كيف تنازلت عنهم السماء بكلّ هذا السخاء؟ سنصير كذلك يومًا ما. حلمنا المبطّن أن نظلّ أحياء في أيّ شيء متناهي الصغر ولكن بنفس أشواقنا وأحلامنا وأجسامنا، نتأمّل الناس الذين كنّا معهم بمزيد من الحبّ أو بمزيد من السخرية. قد يأخذنا بالصدفة عاشق مع حفنة رمل يضعها في يد حبيبته أو قد يسلّمنا لطاحونة تحوّلنا إلى كتلة من البيطون، وسط بناية لا تتحلّل إلاّ بعد قرون. تعرف لماذا كان الهنود الحمر يدفنون موتاهم في العراء، حتى لا تسجن أرواحهم. لو تكلّم الرّمل لسمعت تنهّدات العاشق وحشرجة الأسماك الصغيرة والحوت وهي تقاوم عنف حروب البقاء، صراخات الصيّاد الغارق وهو يتشبّث في الموجات الهاربة نحو شطّ لا يظهر إلاّ كسراب، صدمة نيزك وهو يرتطم بالأرض مشتعلاً، هدير البراكين والحمم السائلة والرياح العاصفة وتكسّر الشجر وهو يُنتزع من جذوره بمزيد من العنف والقساوة والنباتات وهي تغادر أغمادها وتكسّرات الأرض وهي تبتلع في مهاويها كلّ الكائنات الحيّة، وصياحات الحيوانات المختلفة وهي تبحث عن مكان لموت هادئ ومفتوح على الحافة المنسيّة للبحر. من يستطيع أن يكلّم هذه الحبيبات الرمليّة الصغيرة سيعرف السرّ العميق للحياة كلّها. عندما تكبر، ستعرف أنّه وحده الفنّان يستطيع أن يلمس هذه الخفايا و التجلّيات الممكنة.

عندما بدأت حديثي، أغمض بيدرو عينيه كمن يبحث عن شيء ضائع داخل الكلمات، وعندما انتهيت فتحهما بتثاقل.

– حبّة رمل؟ ولِمَ لا؟ قالها بيدرو وهو يحاول أن يفهم شيئًا لم يكن ربّما يهمّه كثيرًا.

– حبّة الرمل الموجودة في التمثال هي ناس وأصوات وصراخات وخيبات وسعادات صغيرة.

– أنت تغريني بالمزيد من الأسئلة. علاقتي بالجزائر التباسيّة. في الحقيقة لا علاقة لي مباشرة بها إلاّ بالقدر الذي تقودني نحوها حاسّتي التاريخيّة والحضاريّة. لماذا تألّمت لجروحها ولم أتألّم بالطريقة نفسها عندما اشتعلت أراضٍ أخرى؟ لا بدّ أن يكون شيء ما فيّ غير مرئيّ، يقودني نحو هذا الجرح وهذه التربة. القصّة التي تبدو لنا بسيطة، هي في الحقيقة أكثر تعقيدًا. سيكون لنا متّسع للحديث في هذه الموضوعات. علينا الآن أن نقنع جمهورنا الذي ينتظر منّا ما هو استثنائيّ. لقد بدأ الناس يدخلون.

ثمّ انزوى ليقف أمام لوحاته بألوانها الساخنة.

كان الرواق مجهّزًا بما يساعد على امتصاص حتى الأصوات الجانبيّة. لم يدم الوقت طويلاً حتّى صار يعجّ بالزوار وبالألوان وبالأعمار. على هامش ما تأتيك كلّ اللغات تتقاطع ثم تتنافر لتتلاشى وتعود ثانية. بعض الحاضرين تحدّثت معهم بالحركات، البعض الآخر باللغة الفرنسيّة والإنجليزيّة وكانت ماريتا من حين لآخر تمرّ لتترجم للزوّار بحركاتها الطفوليّة قصّة التمثال والمادّة الطينيّة وأصلها. لست أدري من سرّب فكرة التكريم ولكنّها كانت على كلّ الألسن. فهل سيكون لهذا الجسد المبتور حظّ الفوز بأوّل تكريم يمنحه رواق الريشكميوزم؟ كلّ الأعمال التي تمّ اختيارها تتوفّر على هذا الحظّ. لا أدري ما السحر الذي قاد الناس نحو قصّة هذه المرأة الثلاثيّة: زليخة ونرجس وفتنة المهبولة. ما السحر المشترك بين الثلاث؟ أنا نفسي لم أطرح هذا السؤال بجدّيّة. ما القاسم المشترك بينهنّ؟ قصّة تمثال المرأة التي لا رأس لها، كانت

مكتوبة باللغات الثلاث وملصقة في لوح جانبيّ. اضطرّت ماريتا في الأخير للبقاء معي مدّة أطول للترجمة قبل أن أقدّم بالإنجليزية بقيّة الشروح.

كان النّاس يتحرّكون كالسيول ولكن بهدوء كبير ورغبة في المعرفة. في الزاوية الأخرى كانت مجموعة من الشباب تنتظر خلوّ المكان للاقتراب. وجوههم وخزراتهم من تربة البلاد.

اقتحمت عليهم حميميّة صمتهم.

– كيف جاكم المعرض؟

– فرصة جميلة للقاء بمن نسمع بهم ولم نرهم إلاّ اليوم.

يقرأون في التمثال مأساة البلد، كما قال أحدهم، مع أنّي لم أفكّر مطلقًا أن أجسّد مأساة البلاد. عندما أنجزت مجموعة: المرأة التي لا رأس لها، كنت أريد أن أنسى الموت والبلاد والعباد معًا. كنت أستمع لهم ولا أتكلّم. لم يكن في نيّتي أن أخيّب ظنّهم. كانوا مشدودين لي وكنت مشدودًا بوجه صنعتُه من خيبتي من الله والدنيا. أعرف أنّ البلاد اليوم تلد الموت، لكنّها في خلوة ما وعلى هامش الدم، كانت أشياء بدون اسم تولد بقساوة في شكل أقلّيّة لا أحد يضمن لها طول البقاء. أقلّيّة مرشّحة لذبح أقسى من الأوّل وسط أغلبيّة تبايع كلّ صباح الموت والقتلة الجدد الذين يدوسون أجدادهم وأمّهاتهم من أجل أن يستمرّ عالم يُصنع داخل الموت والكوكايين وتهريب العملة والأسلحة الفتّاكة والجريمة الموصوفة والدين. كنت أستمع إلى التحليلات ولم تكن لديّ القدرة الكافية لا للمناقضة ولا حتى للموافقة الديبلوماسيّة. أهزّ رأسي وأنا لا أعرف إذا كان ذلك دليل وفاق أم اختلاف.

التفتُّ إلى بيدرو، كان غارقًا في حديث تتحرّك فيه عيناه

وحاجباه ويداه وجسده، مع ثلاث مراهقات. كنت أحسده على هذا الفيض من الكلام، وهذه الطّاقة اللاّمتناهية وهذه الراحة في الدفاع عن ألوانه ولوحاته وإنجازاته. فهو عندما ينهمك في حديثه، ينسى كلّ التفاصيل التي تحيط به. يقول إنّه ورث عن أجداده الأندلسيّين والمتوسطيّين طريقة الحديث التي تدفع به إمّا إلى أن ينغمس بكلّه وبدون تردّد أو يظلّ في الهامش فينسحب وينسى بسرعة أنّه التقى بأناس، بذل مجهودًا ضائعًا ليقاسمهم شيئًا ما. أغبطه على هذا الصفاء والوضوح. ربّما كنت في حاجة ماسّة إلى مزيد من النسيان للتواصل مع المحيط الذي عندما يسألني، ينسى عملي ويذهب مباشرة إلى مشكلات البلاد الكبيرة. بلاد كلّما سمعت صوتها يأتيني من بعيد عبر الوجوه التي أعرفها والتي لا أعرفها، ازددت كآبة ورجوعًا إلى مشاهد أريد أن أنساها للمرّة الأخيرة لإيجاد مسلك نحو الكتابة والنحت. كم أتمنّى أن أصل يومًا إلى تضبيب كل شيء حتّى يفقد ملامحه ويصير بلا ماض ولا حاضر ولا تاريخ ولا... أسئلة ويتحوّل إلى بياضٍ فقط.

عندما ذهب الجميع، اقترب بيدرو منّي وهو يضحك:

– لقد أتعبك الشّباب؟

– قليلاً. يريدون أن يعرفوا كلّ شيء وينسون أنّك لست في أحسن الأحوال أكثر من فنّان.

– تعرف يا ياسين، في كلّ معرض هناك قدر كبير من التمثيل علينا أن نتقنه، فالناس ينتظرون منّا أن نجيبهم عن أسئلتهم لا كما يفعل جميع الناس، سؤال وجواب وإلاّ لذهبوا نحو النقّاد وتحصّلوا عمّا يرضي فضولهم النقديّ والثقافيّ. يبحثون فينا عن حالة الإدهاش والعفويّة ونحن نوفّر لهم ذلك أو على الأقلّ نبذل

مجهودًا تمثيليًّا صادقًا للإقناع. النّاس يحبّون بعض غرورنا ونرجسيّتنا. التواضع الزائد يقلّل من قيمتنا في أعينهم. المشكل أنّ الحياة مبنيّة على هذه النزعة من الغموض وهو ما يعطينا الرغبة الدائمة في إعادة اكتشافها باستمرار.

– وجهة نظر.

– بشكل أدقّ، هذا رأيي الخاصّ في الموضوع. ولكنّي أعتقد أنّ هناك مشتركًا بين الفنّانين جميعًا، هو عدم أخذ الحياة بجدّيّة كبيرة لدرجة تحويلها إلى جحيم لا يطاق... لحظة من فضلك.

التفتُّ نحو اللّوحة مرّة أخرى. أثارتني الألوان الحمراء المتدرّجة في حرارتها في الجزائر اليوم Argelia hoy اقتربتُ منها أكثر بينما كان هو في محاولاته اليائسة لنسيان تدخين الغليون. التدخين داخل القاعة ممنوع. يعضّ بضروسه على الغليون المنطفئ، فاتحًا فمه، يتمتم كلامًا غير مفهوم. شدّتني التفاصيل أكثر من الموضوع العامّ. مدرج مصارعة الثيران يعجّ بالناس الذين كانوا يصفّقون جميعًا ويصرخون، الأيادي مرفوعة كلّها وهتافات الناس تنطلق في حركة مشتركة كأنّها في ملعب كرة قدم. كنت أتمنّى أن أسأله عن الوجوه الموضوعة في الزاوية التي لم تكن تصفّق وكأنّها لم تكن معنيّة بما كان يدور في الحلبة. على هامش الملعب، بنايات قديمة تشبه القصبة العتيقة والأسواق الشعبيّة. في قلب الحلبة رجل مطرّز اللّباس يرفع يده اليمنى الملطّخة بالدم التي كانت تحتضن السيف وأذنيّ الثور المنكسر على ركبتيه الأولبين. دم على الأرضيّة. وسماء صافية لم تكن معنيّة بما كان يحدث على الأرض. لا أدري بالضبط ما الذي قادني في لحظة من اللحظات إلى نسيان اللوحة ورؤية فان غوخ وهو يقبض على أذنه

بقوّة ثم يصرخ صرخة ناشفة بأعلى صوته ويقطعها بسرعة بموسى نحاسيّة حادّة ثم يضعها في طبق مغلّف بالحرير ويقدّمها إلى المومس الآرليّة البئيسة.

النّاس الذين يشبهون بيدرو، يسمّون عندنا زلاميط لسرعة اشتعالهم. يفورون بسرعة كالبراكين ويهدأون لمجرّد يد معتذرة توضع على أكتافهم. قبل أن أسأله عن بعض الدلالات الرمزيّة في لوحته، انطلق كالسهم نحو امرأة لم يكن واضحًا فيها إلاّ لباسها الأحمر وشكلها الغجريّ. كانت تقترب وسنواتها الأربعون تزداد اتّضاحًا أكثر فأكثر، وضحكاتها تصلني زارعة في نفسي بعض الألفة الخاصّة وتساؤلات كلّما اقتربت منها كلّما انفلتت من يدي. في البداية بدا أنّ النبرات التي كانت تتساقط على مسمعي لم تكن غريبة عليّ. ثمّ، فجأة، قذفني صوتها نحو أوهامي الصغيرة التي لا أستطيع مقاومتها. علاقتي بالأصوات كبيرة. الخوف علّمني كيف أدقّق تفاصيلها. من كثرة قضاء الليل في التنصّت وتتبّع مصادرها، صرت اليوم أستطيع أن أفرّق بينها جميعًا حتّى عندما تصل مسمعي مختلطة. في هذا الموضوع، اكتشفت أنّ الكلاب والقطط أحسن منّا بكثير. حاسّة سمعها قادرة حتّى على التقاط صوت سقوط الندى والزلازل والحركة الداخليّة للبراكين. أكثر من ذلك كلّه أستطيع اليوم أن أقول ماذا يريد فلان أو فلانة من مجرّد سماع صوتيهما. اللّغة مكان استثنائيّ لكلّ شطط الإنسان. لغتنا لا تسعفنا لأنها تشبهنا في نفس الضعف الذي نضطر دائمًا لجرّه وراءنا.

كانت موسيقى الكمان تنبعث من مكان ما من داخل الرواق. أتخيّل أناسًا كانوا ههنا قبل قرنين من الزمن، يرقصون ويأكلون

ويتناوبون على الفرح والأشواق وأرى أجسادًا تتلّوى عطشًا على حنين غامض لم يكن أحد قادرًا على ملئه إلاّ إيقاعات موزارت أو باخ أو بيتهوفن.

سمعت صوتها وهي تردّد بنوع من الألفة:

- Monsieur Pedro, Le rouge attire les taureaux.
- C'est un très beau mensonge.

– ألوان لوحاتك دامية واللون الأحمر كما يقال...

لم يتركها تتمّ جملتها.

– كذبة جميلة كما قلت لك. تعرفين أنّ الثيران لا ترى الألوان مطلقًا. ترى كل شيء مضبّبًا. الحمرة، كما قلت لك البارحة، متأتّية من تلك البلاد التي وجدتني ملتصقًا بنداءاتها الباطنيّة البعيدة، لا أعلم كيف. ربما كان التاريخ هو السبب أو الأسطورة المحمولة فيَّ أو ذلك الغموض الذي نبذل كلّ الجهود للوصول إليه ونظلّ العمر كلّه نجانبه.

– هذا حقّك الطبيعيّ كفنّان. لكن لا تطلب من شاعر أن يتفهّم كلّ هذا الدم الذي يكاد يسيل حقيقة من لوحتك.

– هذا ليس دمًا ولكنه مجرّد لون. اللّون لا يعوّض المادّة الحيّة التي يراد تجسيدها.

– لكن عندما نلمس اللوحة بأعيننا لا نفكّر في اللّون بقدر ما نفكّر في المادّة التي يحيل عليها اللون. ربّما بدرجة أقلّ بالنّسبة للكتابة التي مادّتها الأساسيّة إبهام اللغة المناقض تمامًا لوضوح اللون.

– آه؟ أنتم الشعراء مشكلة.

كان صوتها يأتيني على الهامش، دقيقًا، واضحًا وممزوجًا بشيء غريب كنت في أعماقي أحاول إبعاده. نصير مجانين، في

أحسن الأحوال نقف على حافّة الهبل، عندما نؤخذ بالأصوات أكثر ممّا نؤخذ بالوجوه.

التفت بيدرو نحوي. سحب الشاعرة من يدها بهدوء واضعًا اليد الثانية على كتفها. دارت برأسها نحوي. ظهر وجهها كاملاً واستقام أكثر جسدها المنحوت بدقّة. ابتسمت. الذي أثارني فيها أنّي شعرت في عينيها الواسعتين بعض الألفة والمعرفة السابقة. منذ اللحظة الأولى قرأت في البؤبؤ الناصع البياض، عنفًا مبطّنًا وبعضًا من الغرور والسرّ الذي لا يُفشى بسهولة لأكثر من اثنين.

تفحّصتني كمن يريد أن يعرف من أين جاء هذا الآدميّ الذي نزل فجأة على مدينة لم يكن مهيّأ لها ولم تكن تنتظر عبوره الطارئ، هو الذي رتّب كلّ حوائجه للذهاب إلى أبعد نقطة ممكنة على هذه الأرض. ليجعل ما بين الأرض التي أحبّها وأرض المنفى جدارًا من الماء.

لم أقل شيئًا.

تدخّل بيدرو وهو يحاول أن يكون جادًّا لدقائق. في عينيه شيء من السخرية من الأشياء، تضبّب صرامته قليلاً.

– تعرفينه بكلّ تأكيد، نحّاتكم الكبير ياسين.

وضعت يدها على فمها ثم على عينيها كطفل فوجئ بكل الحاضرين وهم يكشفون أمامه كذبته التي نام عليها مدّة من الزمن.

– معقول؟ ومن لا يعرف الأستاذ ياسين. عذرًا.

قالتها بصوت هادئ وحنون. ثم بدأت تعدّ لي بعض الأسماء لأعمالي النحتيّة التي اشترتها مدينة أمستردام من أحد المعارض المتنقّلة، منذ خمس سنوات على الأقلّ. ثم توقّفت قليلاً محاولة أن تهزّ ذاكرتها المثقلة.

– و أعتقد أنّي رأيت لك تمثالاً في معرض جماعيّ في ألمانيا وتوقّفت كثيرًا أمامه. يشبه هذا ولكنّه يختلف عنه قليلاً. أتذكّر حتى اسمه: ليخا والطين، إذا لم أكن مخطئة.

– ليخا تشتغل على الطين.

– بالضبط. رأيت وجهك مرارًا في الصحافة. كنتَ شابًّا. لم يكن شعرك أبيض مثل الآن. أنا سعيدة بالتعرّف عليك أستاذ ياسين.

لم أجد كلمات المجاملة التي تُستعمل عادة في مثل هذا المقام. كانت تتكلّم بدون توقّف وكنت منهمكًا في تتبّع جملها المتعاقبة وأحاول أن لا أتذكّر. أن أغمض عينيّ وعندما أفتحهما أجد نفسي في غيابات الطفولة.

الصدف عندما تتكرّر تصير متعبة لأنّها تصير قانونًا، أي حقيقة. قبل أن أشكرها، قدّمت هي نفسها وسدّت نقائص بيدرو المنخطف كطفل.

– بيدرو دائمًا هكذا. أنا حنين، شاعرة جزائريّة. أقيم في أمستردام منذ قرابة العشر سنوات. جئت إلى هنا قبل أن يبدأ خراب الحرب الخاسرة. يبدو لي أنّ الطبيعة البشريّة التي نحاول تلافيها هي هكذا: ناس يموتون وغدًا يتصالحون ثم يتقاتلون ولا شيء يمنع من النسيان. حروبنا فارغة ولا جدوى من ورائها. كلّما أثمرت، جاء فجأة من يسرقها ويجرّدها من كلّ فرص التحوّل الإيجابيّ. لا أدري ما هو السرّ ولكنّي في أعماقي، شعرت بدفء خاصّ.

ياه؟ الدنيا ما تزال بخير. اطمأننت على الأقلّ أنّ الصدفة هذه المرّة لن تحدث وأنّ جرحي الغائر لن يُفتح ثانية. الصوتان كانا

متشابهين ولكنّها لم تكن نرجس. يوه؟ واش جاب نرجس لهذه الأرض؟ بيني وبين صوتها زمن بعيد ومع ذلك ما يزال صافيًا ينزل على الذاكرة كالماء العذب. العشرون سنة التي مضت لم تكن كافية لكسره. صوتها أينما سمعته أشعر به يصعد من القاع ويطفو فوق الكلّ كالزيت. شيء ما ملتبس قذف بي من مغاور الدنيا الميّتة إلى هذا الحضور. هناك شيء ما يخادعنا ويفرض علينا لعبة القطّ والفأر التي لا نتقنها دائمًا.

لم أتكلّم أو لم أجد الفرصة للكلام.

– كيف حال تلك البلاد. على الأقلّ أنت هناك تعيش على وقع الموت اليوميّ ومنه تصنع شأنك الحياتيّ. أمّا نحن فقد بدأنا نتحوّل إلى مادّة طيّعة في كفّ المنفى Une pâte à modeler sans aucune forme.

– إذا كان الشاعر، الذي يفتح أبواب الدنيا المقفلة يقول هذا الكلام، ماذا يقول من لا يجد الفرصة الدنيا للحديث إلى صديق يصادفه في الشارع بدون خوض مغامرة الاغتيال. أنتِ في أمستردام وهذا حظّ كبير.

– يعني. لا شيء يشبه الأرض التي تتركها مرغمًا. بلادنا كانت مؤهّلة لكلّ شيء جميل قبل أن يُجهز عليها الذين حرّروها.

– لنقلْ الذين استلموها. الذين حرّروها ماتوا في الهجومات الأولى. لم يكونوا يفكّرون في الشيء الكثير. تحليلاتهم كانت بسيطة جدًّا. أرض سُلبت بالقوّة، تُسترجع بالوسائل نفسها. عندما خرجوا لأوّل مرّة ودّعوا بيوتهم ونساءهم وأولادهم لأنّهم كانوا يعرفون أنّهم لن يعودوا أبدًا.

أخرجتْ حنين ورقة وسجّلت عليها بعض ما كنت أقوله. لم

أسألها لماذا.

– تعرف، إنّ كلماتك جميلة. أعجبتني هذه الجملة: عندما خرجوا لأوّل مرّة ودّعوا بيوتهم ونساءهم وأولادهم لأنّهم كانوا يعرفون أنّهم لن يعودوا أبدًا. والدي كان تقريبًا من هؤلاء، ولكن من الذين شاءت صدفة القدر أن يعودوا. عندما رأى الذين دخلوا الحرب خوفًا من الذبح، يتقاسمون البلاد وتركة الشهداء صمت ثلاثين سنة وعندما أراد أن يتكلّم صرخ كالأخرس ثمّ مات بخديعة قلبيّة وهو حامل في قلبه شططًا لا يدرك. كم كنت أتمنّى وأنا أجوب به شوارع العاصمة أن أسمع دقّات قلبه وأفهم سرّ رمشات عينيه وهو يقف لكي يقرأ أسماء الشوارع التي تتجشّأ بالشهداء وغير الشهداء. كلّما أراد أن يتكلّم خانته قدرته على الحديث، ذرف دمعتين وواصل سيره. حتى عندما مات بخديعة القلب لم أره. عندما وصلت كان قد دفن.

- Désolé.

- Je suis convaincu que notre coeur nous ressemble. Comme nous tous, il lui arrive de trahir. Mais, il trahit sans nous donner l'occasion de le pardonner.

– أصعب موت ليس الموت ذاته ولكن أن يذهب كلّ ما قدّمته أدراج الرّياح.

– أظنّ أنّ أقسى شيء يمكن أن يُسلّط على الإنسان هو النسيان. الموت أرحم. اللي ماتوا، الله يرحمهم. تهنّاوا. واللّي بقاوْا، راحوا في العزلة التامّة وكأنّهم لم يعطوا شبابهم وحياتهم لتلك الأرض التي تصرّ دائمًا أن تظلّ كما تركها الانكشاريّ الأخير الذي سدّ أبوابها كالمزرعة الخاصّة وخرج منكسر الرأس يفاوض

المحتلّين. خلِّ البئر بغطاه يرحم والديك. واليوم يدفعون بالجميع إلى التهلكة. من يموت الآن على تلك الأرض الجحودة؟ القليل. الذين أغمضوا عيونهم ونسوا الأحقاد وقالوا البلاد أوّلاً؟ أرادوا إنقاذها من الخراب الذي صنعه الجهلة والجشعون. كم أتمنّى أن لا أتحدّث عن تلك الأرض وأن أتفرّغ فقط للكتابة والصمت وللمرض الذي ينهشني. كاللعنة، نهرب منها فتلحقنا دعوتها عن بعد. من لم يمت مجنونًا، قتله المرض والمنفى.

– المشكلة أنّ كلّ المسالك تتقاطع مع تلك الأرض. أين المفرّ؟ ومع ذلك إذا أردتِ أن تصلي إلى النسيان، تفادي لقاء القادمين من هناك. فهؤلاء أكثر النّاس فشلاً في التخلّص من مرض الأرض. لقاؤك بي الآن هو إيقاظ لهذه الجروح التي ليست في حاجة إلى من يزيد في غورها.

– بوف؟ ليس شرطًا، بيدرو الذي تعرّفت عليه البارحة كرّر عليّ الكلام نفسه وحثّني على التفرّغ للحياة. وكأنّنا نذهب نحو الحياة كما نشتهي؟ أحيانًا أكاد أقتنع أنّ هناك أقدارًا مسطّرة سلفًا، كلّما حاولنا تفاديها كلّما ازددنا غورًا وضياعًا فيها.

– الذي لا يعرفه النّاس هو أنّهم كلّما فتحوا الجرح ازداد الألم ضراوة. بيدرو فنّان كبير ولكنّه متوقّف عند حافّة الألم، عندما يصبح هذا الأخير مؤذيًا يتركه ويذهب نحو شيء آخر بينما نحن نتوغّل فيه أكثر فنقصّر بالضرورة من أعمارنا.

– كنت دائمًا أريد أن أسألك عن سرِّ المرأة التي لا رأس لها، لماذا غياب الرأس؟ ولكنّي خفت أن تجيبني الإجابات نفسها التي سمعتها من بيدرو وهذا يتعبني.

– الأحسن أن تقرئي الرسومات والمنحوتات باللغة التي تشائين

ولستِ مجبرة على السير في خطى قصديّة الفنّان. التراجيديا إحساس قبل أن تكون ألوانًا فاقعة. التراجيديا ليست في شكل الأشياء ولكن في عمق مدلولاتها الإنسانيّة. من منّا اليوم يضمن سلامة رأسه؟ في كلّ خطوة نخطوها يزداد ارتباكنا ويهتزّ يقيننا.

– ولكنّك لم تجبني عن قصّة الرأس.

– القصّة طويلة، وربّما عاديّة ومملّة. مرتبطة بحياتي الشخصيّة الحميميّة. قد يكون غياب الرأس تعبيرًا عن حالة خسران دائمة. ثلاثة وجوه صنعت هذا الغياب. عندما كنت طفلاً عشقت صوتًا ركّبته على كلّ الوجوه ولم أفلح. سمعته أوّل مرّة، في الراديو وهو يقرأ كلامًا يشبه الشعر. كنت في فراش النوم، أبحث عن موضوع للإنشاء لمعلّمتي التي حصرت كلّ مشكلات الوطن العربيّ في غياب القدرة على كتابة نصّ إنشائيّ صحيح. من يومها صار الصوت يعيش فيّ. ثمّ ذهاب أختي زليخة المبكر والذي ترك فيَّ فجوة كبيرة. فقد قهرتها الدنيا في سنّ مبكرة، ماتت بمرض غامض، ربّما كان الحبّ. أحيانًا تعشق المرأة عندنا قاتلها. وأخيرًا فتنة، المرأة التي لا أدري إذا كنت قد أحببتها لأنّها كانت أمّي أو عشقتها لأنّها ملأت مراهقتي المتأخّرة بالأحلام أم لأنّي تعاطفت مع هبلها وسفرها الغريب نحو الموج أو نحو هذه المدينة قبل عشرين سنة. إلى اليوم لا أعرف بالضبط إذا كانت حيّة أم اندفنت داخل الموجة القاتلة. أحاول أن أفهم، فأصطدم بالفراغ. نحتاج إلى وقت كبير للقصّ ولا أدري إذا كانت وتيرة المؤتمر توفّره لنا.

– لم أفهم الكثير ولكنّي على يقين أنّ وراء كلّ حالة فنّيّة متكرّرة تراجيديا كبيرة. سنجد وقتًا. ضروري. أنت باقٍ حتّى نهاية المؤتمر؟

- لا. لن أتجاوز الثلاثة أيّام. تعرفين يا حنين، عندما يعيش الإنسان في عشرة أمتار مربّعة، كلّ ما يحدث خارج الأمتار التي يحملها في ذاكرته تبدو له مدهشة الاتّساع ومتمادية الكبر.

مرّة أخرى سجّلت بقلمها وقبل أن تنتهي من الكتابة كان بيدرو الذي ظلّ منهمكًا مع بعض زوّار المعرض قد عاد ليأخذها من جديد من يدها ولم يتح لها إلاّ فرصة صغيرة لتسلّمني بطاقتها الخاصّة.

- ضروري نلتقي. إذا ضيّعتك وسط هذا الفضاء كلّمني على هذا الرقم. إقامتي ليست بعيدة عن الريشكميوزم، على واجهة الميناء القديم. مرّة أخرى أنا سعيدة بالتعرّف عليك أستاذ ياسين.

- وأنا تشرّفت بك يا حنين.

لا أدري إذا كانت قد سمعت جملتي الأخيرة، كان بيدرو بلباقته المعتادة، يسحبها إلى مكان ما، وصوته يُسمع من بعيد.

- تعالي أعرّفك على الكاتب البرتغاليّ الكبير أنطونيو سواريش. شخصيّة طريفة. مهمّ جدًّا أن تتعرّفي عليه.

- آ... أعرف بعض كتبه.

- لا. هو أهمّ بكثير من كتبه.

كدت أصرخ من موقعي الذي كنت فيه، بجانب نحتي، لا يوجد رجل أهمّ من كتبه وإلاّ فهو بكلّ بساطة ليس كاتبًا ولكنّي لم أُفلح. لم أعد بعدها أسمع إلاّ قهقهات حنين وبقايا صوت كان يأتيني من أكثر من ثلاثين سنة.

الفصل الرابع
رُومَانس مُوسِيقَى اللَّيْل

-١-

قبل قليل كانوا كلّهم هنا ثمّ انسحبوا واحدًا واحدًا.

فريدريكو. هذا الهابوريجان البرازيليّ الذي لا يخبّئ أصله القادم من بعيد. شرب معنا كأسًا واحدة ثمّ اعتذر حتى قبل أن تقدّم حنين الحاضرين لبعضهم البعض. قال إنَّ أصدقاءه ينتظرونه.

- جئت فقط لأعتذر. نحن لا ناس المدن. ما زلنا نعتزّ بقليل من التخلّف. لا أستطيع أن أتجاوز ناس قبيلتي ذات الأصل الهنديّ الذين عزموني لأسهر معهم.

- هذا ليس تخلّفًا ولكنّه وجه آخر للحياة.

قالت حنين وهي تحاول أن تخفّفَ من وطأة انسحابه.

- لأنّنا نتشابه. منحوتات ياسين أكّدت لي ذلك. الحقيقة اندهشت من هذه اللقاءات التي نظنّها مستحيلة ولكنها تفاجئنا مثل الصدفة عندما نعثر على جزء منها هنا وهناك.

- ربّما الفنّ هو الخطر الجميل الوحيد الذي يتسلّل رغم عيون

العسس ويرقّع كلّ التمزّقات وينظّم كلّ الاختلالات التي يتسبّب فيها بشر هذا الزمن.

واصلت حنين وهي تفتح قنّينتي الوسكي والنبيذ الأبيض.

اعتذر فريديريكو ثمّ انسحب كالسهم.

تعرّفتُ على فريديريكو في الفترة الصباحيّة التي خُصّصت لتجربة أمريكا اللاتينيّة في النحت. لا أدري ما الذي يدهشني في هذه التجربة التي لا تشبه إلاّ نفسها. كلّما رأيتها تذكّرت فتنة التي ألصقت فيّ جرثومة حضارات المايا والآزتك البائدة.

أغلقت حنين الباب وراء فريديريكو ثمّ وضعت باقة النرجس التي تخطّيت بها عتبة هذا البيت الجميل، على مكتبها الصغير. قالت: هذا مكانها الصحيح. ثم أخذتني من يدي وقدّمت لي الحاضرين واحدًا واحدًا ثمّ قادتني نحو شابّة كلّ ما فيها يثير الدهشة، كلامها، رمشات عينيها المتوالية، تفاصيل جسدها المتناغمة، وجهها الطفوليّ، لباسها الأسود وحركة أصابعها غير العاديّة وخزرتها الدافئة التي تورث الكثير من الثقة والحبّ.

- Cette charmante demoiselle c'est Clémence, notre violoniste. C'est Monsieur Yacine c'est l'un de ceux qui font la fierté de notre art
- Enchantée. Très heureuse.

الكلمات الوحيدة التي خرجت من فم كُليمونس. لم أكن أعرف عندما قدمتها لي حنين أنّ شيئًا ما سينشأ فيّ كالنبتة.

– يشرّفني التعرّف عليك، كليمونس.

صمتت قليلاً وكأنّها تستجمع كلماتها الضائعة. تمتمت بلغة فرنسيّة نقيّة، يكاد صوتها لا يُسمع.

- Non, c'est un peu trop pour moi. Hanine exagère quand elle me présente aux autres. Je n'ai pas de grands mérites. Que suis je devant celui qui pour son art est près à laisser sa vie. Non c'est moi qui est très honorée monsieur Yacine.

كانت تتكلّم بثقة عالية لا نجدها كثيرًا عند من هم في هذا العمر.

أنا حبيس ذاكرة تقاوم الموت في الوقت الذي أتمنّى فيه قتلها. من كان هناك؟ صوت مَنْ ذاك الذي كان يشقّ القلب في الصباح الباكر. لم تكن هي ولكن كانت تشبهها. لا أريد أن أضيف امرأة رابعة أو خامسة إلى هذه الذاكرة المتعبة. أنا هنا لأنسى. لأموت على الأقلّ بعيدًا عن الأسئلة المستعصية. في كليمونس شيء منّي يصعب القبض عليه مثل الضوء الهارب. ربّما لأنّ لنا ذاكرة مشتركة بآلة اسمها الكمان. لا أتذكّر الشيء الكثير سوى وجهها، غطّى على كلّ الحاضرين. هناك سحر في البعض، بدون كلام كثير، يحتلّون أمكنتهم في الذاكرة. كليمونس امرأة لا تمرّ بشكل عاديّ أمام الأعين.

قبل قليل كانوا كلّهم هنا. قبالتي باقة النرجس التي عبرت بها عتبة هذا البيت الجميل والتي وضعتها حنين في مواجهتي. النرجس، اسم يقول الكثير. منذ أكثر من عشرين سنة لا أتذكّر أنّي أهديت شيئًا لأصدقائي الذين كنت أحبّهم غير النرجس. ليس فقط لأنّه أطول عمرًا ولكن لأنّ التصاقي به صار شبه مرضي.

كنت متعبًا وحزينًا وبي شيء من الدهشة ممّا كان يحدث لي. كليمونس؟ هاه وجدتها. كيف لم أنتبه. قالتها حنين وهي تقدّمها لي. رحمة. ترجَمتُها إلى العربيّة. تذكّرت فتنة وهي تودّع البحر

وتودّعني. حفظت منها اسمين. إذا كان ولدًا فسيحمل اسمك وإذا كانت بنتًا سأسمّيها رحمة.

كنت داخل السهرة ولم أكن فيها.

كليمونس ضحكت كثيرًا من نكت بيدرو الذي وجد ضالّته في صديقه الكاتب البرتغالي أنطونيو سواريش. عزفتْ قليلاً بينما كنت منهمكًا في تأمّل الميناء القديم. كنت أتحسّس من أنين الكمان طريقة حركة أناملها وهي تبحث عن الخيط المفقود أو الصعب. وضعتْ الآلة على الطاولة القريبة من الشرفة. طلبت منها إذا كان لا يزعجها أن تعزف سوناتات لباخ ولموزارت فنفّذتها بكلّ راحة. كان الذراع ينزلق برشاقة على الكمان. سألتها عن مصدر هذه القدرات الكبيرة. قالت مع ابتسامة خفيفة وبدون أدنى تردّد:

– أمّي. كلّ ما عزفته في هذه السهرة كان لها. كانت تحبّ شوبان كثيرًا.

ظنّي لم يكن مخطئًا. لا توجد إلاّ الأمّ التي تستطيع أن تضع في قلب ابنتها كلّ هذا الحبّ وهذا العنفوان. عيناها تنزلقان على كلّ شيء تراه مثل عينيّ عصفور صغير.

– هي التي طلبت منك ذلك؟

– لا. ماتت منذ أكثر من عشرين سنة في حادث سيّارة تافه. أحيانًا أتمنّى أن ألتقي بقاتلها وأسأله إذا كان يعلم فعلاً مدى الخسارة الكبرى التي تسبّب فيها. لكن والدي ينهرني ويقول لي إنّ تفكيرًا مثل هذا غير مأمون العواقب. قد يقود صاحبه إلى الجنون.

صعدتِ الرعشة من القلب دفعة واحدة كالماء الساخن.

– لا بدّ أنّها كانت امرأة عظيمة.

– جدًّا. هكذا يقول والدي. أنا لا أتذكّرها جيّدًا. لا أتذكر إلاّ

أناملها وهي تتزحلق فوق الأوتار أو وهي تضع رؤوس أصابعي في المكان الصحيح. حركات يديها الناعمتين هي التي جعلت والدي المسرحيّ يفتتن بها. التقى بها في إحدى جولاته بموسكو. كانت تريد أن تخرج من تلك البلاد التي علّمتها كلّ شيء وحرمتها من أن تكون حرّة.

– واستطاعت أن تخرج بدون مشاكل؟

– يقول والدي إنّها خرجت بعد مغامرات متعدّدة أكثرها باء بالفشل. عندما عاد هو إلى أمستردام فَبْرك لها دعوة من الكونسرفتوار البلدي للمدينة وتعهّدت هي من جهتها أمام مسؤوليها بالعودة ولكنّها عندما تخطّت الحدود، رمت جزءًا من ذاكرتها وأحسّت أنّها ولدت من جديد. ولم تأخذ من تلك البلاد التي تمزّقت اليوم إلاّ الموسيقى والشوق المستميت إلى الحرّيّة.

كانت كليمونس تحدّثني عن شخص كأنّ بيني وبينه حياة مشتركة. كلّما دخلت في تفصيل أكثر تبتعد قليلاً منّي وتقترب أكثر من حرقة التساؤلات.

– هل دخلتْ إلى مدرسة فيما بعد؟

– والدتي لم تكن مولعة بالشهرة. كان همّها أن تعزف لي كلّ ما تعلّمته وأن تعشق والدي دائمًا. كان والدي من حين لآخر يأخذها إلى المسرح لتعزف وكان النّاس يحبّونها لتواضعها. أدخلتني إلى الكونسرفتوار ولكني ظللت وما زلت لا أعزف إلاّ ما كانت تشتهيه والدتي.

لا أدري كيف أفلتت مني الكلمة ولكنّي قلتها وأنا لا أعرف إذا كنت أقول الحقيقة أم عكسها. مجرّد رغبة لوضع الذاكرة على حافّة الحقيقة الحادّة.

– كم أشتهي أن أضع على قبرها باقة ورد.

– بسيطة. يوم الغد راحة. لا نتدرّب. الإعادات كلّها مؤجّلة لما بعد غد. يمكنني أن أصحبك في الفترة الصباحيّة. العاشرة مثلاً. نلتقي في نادي رواق الريشكميوزم. أنا سأضطر للخروج مبكرًا من السهرة. أعرف ريتم الجماعة، ولا أستطيع أن أجاريه. البارحة سهّروني حتى الرابعة صباحًا. لا أملك كلّ هذه الطاقة.

عندما ودّعتِ الجميع وغادرت المكان، لم تنس أن تذكّرني مرّة أخرى بالموعد وكأنّها كانت معنيّة به أكثر منّي. ثمّ التفتت نحو حنين.

– حنين، أترك الكمان عندك. سآخذه غدًا.

– سأضعه في عيني. سنجبر ياسين أن يعزف لنا قليلاً.

وجود كليمونس في هذا المكان لم يكن عاديًّا. أحيانًا نحن في حاجة ماسّة لنجرح أنفسنا قبل أن يقسو علينا الآخرون لأنّهم لا يعرفون مدى رهافة وهشاشة دواخلنا. كليمونس لم تكن رحمة. التسمية ليست إلاّ ترجمة لأصل لا وجود له في ذاكرتي. لم تكن ابنتي. هناك أناس يحتلّون أمكنتهم في نفوسنا بدون فوضى ولا قوّة. تشعر أنّ أمكنتهم كانت محجوزة منذ زمن بعيد ولا يفعلون شيئًا آخر سوى استرجاعها وملء شغورها.

عندما خرجت كليمونس، حرّرتني من ثقل الحكاية. سألني بيدرو وهو يبحث كعادته عن كلّ ما يمكن أن يثير الضحك والاستفزازات اللّطيفة، عن سرّ هذه العلاقة بكمان كليمونس الذي كنت أحتضنه. وأنّ طريقة وضعه في يدي تؤكّد على حميميّة العلاقة.

– أخشى يا ياسين أن تكون قد وقعت على رأسك.

– عندما نقع نتحاشى دائمًا الوقوع على الرأس. الكمان ذاكرتي البعيدة، ولهذا أحبّه.

– هل يمكننا أن نسمع صوت هذه الذاكرة؟

كانت العيون ملتصقة بأصابعي وهي تحاول أن تفكّ سرّ الحالة. لم يتكلّم أحد. كانوا يستمعون إلى أنين لم يكن كالأنين. أنين يشبهني ويشبه قليلاً تلك الأرض التي تخلّت عن كلّ الذين أحبّوها ودخلت فراش القتلة.

باستثناء بيدرو الذي لم يتوقّف عن سخريته.

– أفهم الآن لماذا سرقْتَ منّا كليمونس كلّ الليل.

– مجرّد التباس الأسماء. لكليمونس رشاقة كبيرة وأناقة استثنائيّة في العزف لا تضاهى. مأساتها منحتها دقّة الملاحظة.

– هي إحدى أحسن عازفات الفرقة السمفونيّة الملكيّة، قالت حنين، أبوها رجل المسرح الكبير الذي تعرفه كلّ مدينة أمستردام. وأمّها عازفة متميّزة لآلة الكمان، اختارت هذه الأرض لتموت عليها ولكنّها ظلّت مشدودة إلى تربتها الأصليّة.

فيلهام، مدير المؤتمر كان الوحيد الذي أحسّ بعمق الالتباسات التي كانت تملأني. أعادني إلى أصل الحكاية التي سمعها منّي صباح هذا اليوم في نادي المتحف عندما دفعتني ماريتا لطلب مساعدته في البحث عن فتنة:

– ولكن هل تعتقد أنّ فتنة ما تزال حيّة؟

– يُفترض. أتذكّر مثل هذا اليوم أني رأيتها من وراء كثافة الضباب تستقلّ سيّارة المرسيديس السوداء وتغلق بهدوء باب الوليّ الصالح.

– عفوًا، اعذرني على غبائي وسذاجتي يا ياسين، ألا يمكن أن

تكون قد اختارت البحر هي التي كانت مولعة بالموت فيه كما ذكرت لي هذا الصباح؟

– لا يمكن أن تكون في مكانين.

– نعم. الأمر صعب.

جملته الأخيرة كانت جوابًا للمجاملة. الحقيقة لم تكن لديه الكلمات التي أشتهي أن تكون. التفتّ نحو بياضات الحيطان وواصلت عزف الجنّازات وإيقاعات الصباح التي كانت المهبولة توقظ بها سكان القرية حتى قبل أن يستيقظ الديك.

حنين ظلّت صامتة. كلّما تكلّمتُ أراها معلّقة كالريشة على صدى الأبجديّات الخشنة.

طمأنني المدير بطريقته المعتادة.

– سنسأل عن فتنة ونجدها. حنين وكليمونس تعرفان أمستردام جيّدًا.

في أعماقي كنت أنتظر أن أكون ضيفًا بغير سمة الضيوف العاديّين. لم أزر أمستردام لأعزف على شرف ليلتي الأولى في المنفى ولا لأستمع إلى نكات الآخرين. حلمي أن أرى العالم مثلما يراه بقيّة الخلق في هذه المدينة وفي غيرها. كنت أشعر بنفسي بدون وطن. لقد صفّيت حسابي مع تاريخي وجئت إلى هذه المدينة كمحطّة عابرة أدفن فيها بعضًا من ذاكرتي وأسافر إلى أبعد نقطة ممكنة على وجه هذه الكرة الأرضيّة.

– أشكرك فيلهام. أعرف أن المحاولة يائسة ومعقّدة.

– الذي لا يجرّب، لا يعرف لذّة الخطأ.

عندما تمادى الليل في غيّه، تبادلوا الكؤوس والهمسات والرقص وبعض الكلام عن هموم الثقافة وخيبات الدنيا. المدير

العامّ للمؤتمر وبيدرو وصديقه الكاتب البرتغالي سواريش وصديقته الألمانيّة التي جاءت خصّيصًا لمرافقته في المؤتمر وغيرهم وصاحبة البيت أو المخبأ كما كانت تسمّيه حنين. كانت السهرة جميلة ولو أنّي بعد العزف والحديث والإحساس بالتعب، قضيت بقيّة السهرة منغمسًا في المدينة، جالسًا على حافّة النافذة المطلّة على الميناء القديم أسترجع قسمات رحمة أو فتنة. لا أدري بالضبط.

قبل قليل كانوا هنا ثم انسحبوا واحدًا واحدًا.

-٢-

لقد ذهب الجميع ولم يبقَ إلاّي معلّقًا في الشرفة المطلّة على الميناء القديم. لا الضباب ولا الأمطار الموسميّة الباردة كانت قادرة على منع الناس من الحركة. السيارات تنزلق بهدوء على الطرقات الملساء التي تقاطعت عليها ألوان الأضواء فصارت مثل ملهى ليلي ولا تسمع تحت عجلاتها إلاّ هسيس المياه وهي تتكسّر. ناس آخر الليل يمشون كما يشتهون تحت الأضواء الخافتة والهدير المغموم للسفن الضخمة التي تبحث عن أماكن رسوّها. العالم الذي كنت أراه، كان يبدو لي واسعًا لدرجة ضياع البصر. منذ عشر سنوات لم أر ميناء في الليل وبكلّ هذه الأضواء. أحيانًا أتساءل إذا لم يكن الذي يحدث أمام عينيّ مجرّد حلم أو ربّما صدفة جميلة كان يجب أن تحصل لغيري. ليس أبعد من ليلتين كنت ما أزال داخل أمتار لا تسمح حتى بالحركة، وعندما أعبر الشارع لا أرى أكثر من المساحة التي يجب مسحها لتفادي الغفلة

والاغتيال الفجائيّ. أفضّل أن يفاجئني قلبي بصمته على أن أتلقّى رصاصة من يد تخادعني بالمصافحة.

نظرت إلى الساعة الحائطيّة، قبالتي. تقاطعت خزرتي بنظرات حنين التي لفّت نفسها في لباس صوفيّ يشبه القطنيّة. ضحكتْ.

– تعرف ياسين، والدي الله يرحمه كان لا يرتاح أيّام الشتاء إلاّ إذا وضعني تحت لباسه الصوفي. هذا. ألبسه من البرد ولكن كذلك لأشمّ رائحته.

– كنتِ تحبّينه كثيرًا.

– لقد كان كلّ شيء. تصوّر، أبي هو الذي دفعني للخروج لم يعلّمني شيئًا آخر سوى حبّها، متخلّصًا نهائيًا من أنانيّته الأبويّة. قال لي روحي يا بنتي، أرض الله واسعة. ولكنّي يوم عزمت جدّيًا على السفر، رأيته في الزاوية يبكي مثل الطفل الصغير. أصعب شيء هو أن ترى رجلاً في آخر العمر يبكي. كسّرت لك راسك بالكلام الخاوي؟

– لا أبدًا، ولكن عليّ أن أتركك ترتاحين قليلاً.

– بالعكس أنا سعيدة جدًّا لرؤيتك. العمر للأسف أنانيّ جدًّا، لا يتيح لنا دائمًا فرصًا جميلة كهذه. تستطيع أن تبقى قليلاً وسأوصلك إلى الكنال هاوس فيما بعد.

التفتُّ من جديد نحو الميناء القديم لأملأ رئتيّ بالهواء الرطب الذي كان يتسرّب مباشرة من البحر. في ساحة الميناء القديم، كان الصيّادون وعمّال الميناء ما يزالون يتدفّأون بحرق الصحف اليوميّة والكراتين التي كانوا يخرجونها من كومات القمامة ويدخّنون السجائر الرديئة واللفافات التي لا شكل لها إلاّ متعة الرقص والقهقهات التي كانت توفّرها للصيّادين.

– هكذا يبيتون قبل أن يندفنوا في آخر الليل في مكان ما داخل المدينة وينتهي فجأة كلّ هذا الضجيج. قبل أن ينطفئوا، يلملمون الشباك ثم يخبّئونها في زاوية مظلمة وينسحبون واحدًا واحدًا وعندما تفتح النافذة تشمّ رائحة الملوحة والطحالب والأسماك وهي تتحلّل بهدوء عند الحافّة.

– ياه يا حنين، قبل قليل كنت أقول في خاطري، ما أوسع هذا الفضاء وما أضيق قلوبنا.

– المدينة صغيرة كما تعرف وميناؤها بسيط ولكنّه ممتلئ بالحياة. أحيانًا أتساءل إذا لم تكن أغنية جاك بريل هي التي قادتني إلى هذا السكن. أوّل مكان سألت عنه عندما وصلت إلى هذه المدينة هو الميناء القديم.

لم يخب ظنّي رغم أنّ الصورة لم تكن مطابقة لما كان في رأسي. الاتّساع والضيق فينا وليس دائمًا في الأشياء التي تقع خارجنا. وما يبدو لك الآن واسعًا ستجعل منه أيّام المنفى ثقب إبرة. صحيح أنّنا لا نتعوّد على المنفى ولكن الزمن والفقدان يدفعان بدهشاتنا الطفوليّة إلى الذبول، فتفقد الأشياء ألقها حتى تصير عاديّة.

من أين يأتي كلّ هذا الوجع دفعة واحدة؟

كان صوتها يأتيني كهمس عمره أكثر من عشرين سنة. أفظع عذاب هو أن يعيش الكائن مع كومة من الأصوات يقضي العمر عبثًا في محاولة فكّها وفهم طلاسيمها المتداخلة.

– تعوّدت على الصمت حتى صار اللغة الوحيدة التي تؤنسني في لحظات العمل والخوف. ولا أدري ما الذي يفتح لي شهيّة الكلام الآن، أمامك. ربّما الإحساس بالأمن. تعرفين يا حنين، من

فرط التباسي بالمهبولة أكاد أصير مهبولاً مثلها. الحنين والعزلة تكاتفا لكي يصير كلّ شيء مستحيل التحمّل. منذ سبع سنوات لم أخرج من اثني عشر مترًا مربّعًا، فيها الصالة والمطبخ والتواليت والآتليه الذي أشتغل فيه وأنوّم في أكثر الزوايا سوادًا كلّ التماثيل والمنحوتات خوفًا من اغتيالها وأنسى أنّي كائن موجود عليه أن يتدرّب باستمرار على الحياة مخافة أن ينسي وجودها. كلّ مساء وكلّ صباح عليَّ تغيير نظام الأشياء حتى أشعر نفسي بأنّي في مكان غير مكان الأمس وإلاّ سأنتحر من كثرة الضيق والتكرار. سبع سنوات لم أخرج إلاّ محاذيًا للحائط لأشتري الحبوب الجافّة والرزّ والزيت والنعناع وربع قنينة من ماء الزعفران، وعندما تصير مستحيلة، أعوّضها بنبيذ معسكر العريق وباقة ورد من البائع الوحيد الذي بقي يزاول هذه المهنة رغم التهديدات والخوف الذي أصبح قاعدة المدينة اليوميّة. صحيح أنّ المكان فينا ونحمله معنا ولكنّنا نستلمه من الخارج ولا نقوم بإعادة خلقه إلاّ فيما بعد.

– تعرف يا ياسين أنا لا أريد أن أوقظ جروحك ووجعك. وجودك في هذا المكان عزاء لي على الفقدان. أنت تشرّفني بهذا الحضور. مأساة المنفى أنّك عندما تكون جديدًا على الأرض يأتيك الكثير من الأصدقاء ويقفون معك، بعدها يسكن كلّ واحد في همّه وينسونك بالضرورة ولا يتذكّرونك إلاّ عندما يصادفونك في الطريق أو في محلّ ما. قساوة المنفى أنّه لا سبيل للشفاء منه إلاّ بعذاب الكتابة والعمل الذي يجعلنا نمرّ على الحياة بشكل فجائيّ.

– حنين. أنت لا توقظين جروحًا، فأنت فيها. مرّ على تعارفنا أقلّ من يومين وها نحن نجد أنفسنا وكأنّنا نتعارف منذ زمن بعيد.

بعض الحالات محكومة بالمفاجأة والصدفة التي لا نستطيع حيالها أيّ شيء. لقد استدرجت الموت مرارًا ولكنّه لم يأت وأصدقاء آخرون تفادوه طويلاً وذات مرّة وُجِدوا في المكان والزمان الذي كان يجب أن لا يتوجدوا فيه فقتلوا. أن تقبل المنفى عليك أن تتمرّن بصعوبة على الحياة ويفاجئنا العمر ونحن ما زلنا نتمرّن. ليكن. هذا خيارنا، علينا أن نقبل به أو نسعى جاهدين لتهديمه. أنتِ لا توقظين جرحًا، أنت فيه يا حنين.

– يبدو أنّنا نتشابه والمسافات بين آلامنا ضئيلة، سوى أنّك أنت اخترتَ أن تموت دفعة واحدة وأنا اخترت أن أموت بالتقسيط. وها أنت تأتي الآن لتبدأ من بداية أنا سبقتك إليها بدون أن أملك جرأتك. لقد نسيت البلاد والعباد والحفر والطرقات والوجوه وصار كلّ شيء فيّ مثل المرض اللذيذ. عندما نغادر وطنًا ولا نعود له إلاّ لحضور جنازة إنسان غالٍ علينا. نُلحق بمنفانا كلّ التفاصيل الصغيرة حتى ننسى ولكن يكفي أن نرحل نحو البلاد مرّة واحدة ليستيقظ فينا حنين السفر متجاهلين الخوف والموت. أنا مثلك لا أريد أن أصاب بهذا الدّاء. أتركه لمن هو أكثر جرأة مني وأكثر قدرة على تحمّله ولكنّي، كما قلتَ، فيه.

لا أدري ما الذي كان يدفعني نحو حنين ويوقظ فيَّ كلّ المدافن البعيدة التي كنت أظنّ أنّ تفاصيلها صارت رميمًا. المؤذي أن يستيقظ كلّ شيء دفعة واحدة. كيف نسيّره وكيف نتحمّله؟ كان صوتها يدفع بي نحو الأفراح الصغيرة، التي صارت من كثرة بعدها تشبه الضباب. كنت أراني وأنا ممتدّ على الحصير أو داخل الفراش، أستمع إلى الراديو في آخر ساعات الليل لأرمّم الإنشاء الذي كنت ملزمًا بتحضيره لمعلّمتي. قد نحبّ صوتًا ولا نسأل عن

البقيّة ولا نكلّف أنفسنا مشقّة البحث عن صاحبته. طفل العاشرة لا يعرف الحبّ، فهو يلتصق بأشيائه الثمينة ليتملّكها. لم أكن أكثر من عاشق كان يفتّش عن أبجديّة لا تشبه الأبجديّات المتداولة بين الناس.

– أنتِ يا حنين من الذين يعلقون في القلب ويدخلونه حفاة عراة ولا يطلبون شيئًا سوى أن يُسمع صوت نداءاتهم الداخليّة. تفتحين القلب ثم تغلقينه وراءك وكأنّك لا تريدين أن يعكّر صفوك أحد.

– هذا من ذوقك. البدايات دائمًا صعبة لأنها تجبرنا على مجابهة قدرنا وحيدين ولكن مع الزمن نتعوّد على الشطط ليصير جزءًا من حياتنا اليوميّة. ومع الزمن يتلاشى الضرر لوحده كالحطب المحروق. الأيّام الأولى للمنفى دائمًا صعبة وقاسية وتحمّلها يتطلّب قدرًا كبيرًا من الشجاعة والنسيان. ما نيش عارفة وعلاش لصقنا في هذا الموضوع؟ خلّنا نحكي شوي عن الفنّ وننسى الهمّ ولو للحظة. عملك كان رائعًا، شدّ إليه أنظار الزوّار. الحديث المتداول عن تكريمك كبير، لن يكون إلاّ اعترافًا بقدرة الضفّة الأخرى على الإنجاب.

– يكثر خيرهم. ما قاموا به تجاهي حتى الآن يزيدني اعتزازًا وحبًّا لهم. البقيّة ليست مهمّة كثيرًا. تصوّري رجلاً مثل فيلهام أو امرأة مثل ماريتا يقبلان أن يتحمّلا جنوني بل أن يساعداني على الغوص فيه أكثر. جئت إلى هذه المدينة بحثًا عن وَهم، عن عهد قطعته على نفسي في صغري ولم أكن أعرف أن جملة شفويّة يمكن أن تتحوّل ذات يوم إلى قيد حقيقيّ. تعرفين يا حنين منذ زمن بعيد لم أعد أنتمي لأيّة جهة. سأخيّب ظنّك ولكن عندما

اخترت في ذلك الصباح المرتبك حمل كلّ حوائجي والخروج؛ وعندما تخطّيت عتبة الدار كان ذلك لكي لا أعود ثانية وأدرّب كل حواسّي على النسيان وتحمّل حالة الفقدان القاسية. لا أشعر أنّ لي في وطني مكانًا. وجودنا صار يضايق حتى الذين كنّا نظنّ أنّنا نحبّهم ويبادلوننا الودّ نفسه. لا أعتقد أنّي أعطيت الكثير ممّا كان يمكن أن أعطيه. يدي التي أحرّكها لأمنح حياة لتماثيلي، لا تساوي الشيء الكثير أمام اليد المجهولة لزليخة أو لأمّي. الشهرة مثل الحياة، ظالمة لأنّها رهينة المصادفة. كانت ليخا، تقول لا شيء أثمن من قريتنا لأنّنا نعرفها جيّدًا. جمال الأشياء في بدائيّتها الأولى وفي عمقها الغائب. بطريقتها كانت ليخا سيّدتي العالية ومعلّمتي الأولى. دقّة خزراتها ويداها كانوا ممتلئين بالصفاء والرشاقة ما يكفي لإحراج كبار الفنّانين. عندما تنهمك في عملها تنساني وتنسى كلّ الحماقات التي أمارسها لمضايقتها. ماذا نفعل نحن سوى السطو على هذه القوّة الحياتيّة الضخمة وعرضها في الأسواق العالميّة بحيث تنتفي الأصول الحقيقيّة ولا تبقى إلاّ الفروع؟ كم كانت أصابعها تشبه أصابع فتنة. رشاقتها مثل رشاقة راقصة لا تتكرّر مرتين أبدًا. لقد غادرت ليخة هذه الدنيا مبكرًا ربّما لأنّها كانت أكثرنا في العائلة حساسيّة وهشاشة.

– يبدو لي وكأنّك تحكي مثلما تنحت، غير منفصل عمّا تقوله.

– زعفرانك انتهى يا حنين.

نظرت إليّ وهي تحاول جاهدة أن تخبّئ ابتسامة طفوليّة متسائلة كمن يبحث عن إجابة لسؤال لا يعرف مؤدّاه.

– قلت لك ماء الزعفران... لقد نضب الوسكي.

– آه... قل لي شراب الملوك؟ شفت. أنت لم تنس بعد

عاداتك ومفرداتك. ومع ذلك، عندما تدخل مدينة غريبة، ولكي تصير منها، عليك أن تتعلّم يوميًا كيف ترتديها مثل اللباس، بدون ذلك ستبقى عاريًا وعلى الحافّة مثل المجنون. هكذا يبدأ المنفى، بالكلمات أوّلاً. أشعر بالبرد وأنت؟ أنتَ جئت في موسم الأمطار الباردة.

– أغلق النافذة؟

– أحسن. هذا لا يمنعنا من رؤية الميناء الذي لا يعرف النوم إلاّ قليلاً.

كانت البرودة قد صارت مثلجة. والأمطار زادت قوّتها. أغلقت النافذة. شيئًا فشيئًا بدأت الحرارة تعود إلى البيت لكنّ صورة المطر البارد الذي ظل يتكسّر على الزجاج كان يعطيني إحساسًا عميقًا بالبرودة ورغبة كبيرة للنوم. فتحت حنين قنّينة الويسكي. حطّتها على الطاولة الصغيرة. صبّت كأسين ثمّ وضعت فيهما بعض الثلج. عندما رفعتهما عاليًا انكسر ثمّ شعّ الضوء المنحدر من لمبة الهالوجين التي خفّضتها أكثر متقاطعًا مع ضوء الشمعة المختبئة في الزاوية، كالذهب مصحوبًا بشنشنة غير مقصودة للكأسين اللتين التقيتا في يدها اليمنى.

انتبهتُ إلى الحائط، كان مكتظًّا بالصور العائليّة لم أعرف منها إلاّ واحدة شدّتني إليها طويلاً. الرئيس المغتال بوضياف بلباس عسكريّ وبجانبه ستّة من أصدقائه ثمّ على الجهة اليمنى من المجموعة، رجل آخر في الثلاثين تقريبًا من عمره يقبض على رأس كبش أبيض. في عيون الجميع شهوة غامضة لوطن لم تكن ملامحه قد اتّضحت. أسطورة جميلة لا أحد يريد أن يفكّر فيها طويلاً.

تفحّصت الصورة أكثر، بدا لي الزمن الذي عاشته تلك البلاد مختصرًا جدًّا.

– السبعة معروفون. ديدوش مراد، ابن بولعيد، ابن مهيدي، محمد بوضياف، كريم بلقاسم، خيدر محمّد، رابح بيطاط. ماتوا كلّهم بأقدار مختلفة. ثلاثة قتلوا وهم يحلمون ببلاد تحنّ على أبنائها. وثلاثة اغتيلوا وهم لا يصدّقون أنّ الأصدقاء يمكن أن ينقلبوا بهذه السرعة، وآخر السبعة، رابح بيطاط، قاوم بالصمت قبل أن ينسحب نهائيًا حاملاً غلّه ويأسه في قلبه. أمّا الرجل الذي يقبض على قرني الكبش الأبيض، فلم أعرفه؟

– والدي الله يرحمه. هذا الكبش مثل أحد أفراد العائلة، قدّمه أضحية لرفاقه في الليلة التي تعشّوا فيها في بيتنا قبل أن ينتقل كلّ واحد إلى مكان لإعلان الثورة. والدي مات أو انتحر لا أدري، شهرًا بعد اليوم الذي ووري فيه بوضياف التراب. تقول أمي: عندما عاد من المقبرة ضرب رأسه على حائط البيت كالمجنون وظلّ يبكي كالطفل الصغير حتى أغمي عليه. بقي سبع ساعات في غيبوبة وعندما استيقظ كان مرهقًا ليموت بعد ثلاثين يومًا بخديعة قلبيّة. جيل كان يودّ أن يموت على فراش الراحة بعد أن أدّى واجبه، ولكنّه مثلما يحصل في التراجيديّات اليونانيّة الكبرى، كلّهم ماتوا في أكثر الظروف قساوة. عيب هذا الجيل الكبير هو أنّه لم يكن يفكّر جيّدًا. في لحظة من اللحظات ظنّ أنّه المالك الأوحد للتاريخ والأكثر جدارة للدفاع عن الوطن فانتهى في الشطط والبؤس الفكريّ والكثير ممّن بقوا على قيد الحياة، تحوّلوا اليوم إلى بقّارين ومهرّبي مخدّرات وأسلحة وأصحاب صفقات، يتقاسمون دم البلاد بجشع كبير. وأنجب هذا الجيل أبناء كوّنوهم

على الكراهية والأنانيّة وحبّ الحياة السهلة. عندما كبر هؤلاء مارسوا كراهيّتهم على ذويهم أوّلاً قبل أن يؤذوا بها الآخرين. في بلادنا تجربة الكراهيّة والعنف والاضطهاد تبدأ من البيت. لم أزر البلاد إلاّ لدفنه ولكن حتّى هذا الحظّ الأدنى لم يكن من نصيبي. عندما وصلت كان قد دُفِن.

ثمّ انتبهت إلى صورة كبيرة بالأبيض والأسود لامرأة في عزّ العمر كانت تحتضن آلة موسيقيّة كأنها قادمة من الفترة الرومانتيكيّة. اقتربت منها أكثر. أحسست بنوع من الألفة في عينيها وفي تقاسيمها العميقة. كانت حركة يدها اليمنى تعوم في فضاء من البياض يشبه ضبابًا فجريًا يصعد من بحر لا يكاد يُرى.

– ياه... كم تتشابه الوجوه والأشياء.

– أعرف عمّا تبحث عنه. العين تفضح صاحبها. فتنة ليست على هذا الحائط. صورة وضَعتْها كليمونس هنا فلم أشأ نزعها، فهي لإرينا فلاسوفا، سيّدة الكمان في روسيا. إحدى معلّمات أمّها. أنت تعرف أنّنا عندما نسافر لا نأخذ معنا إلاّ صور الذين نعرفهم ولا نريد أن ننساهم. في الحقيقة نفعل ذلك لأنّنا في أعماقنا نشعر بعقدة ذنب عميقة تجاههم: كيف خرجنا في ذلك الصباح الباكر وتركنا وراءنا عيون من نحبّ ترنو إلينا بشفقة وعزلة.

– تعرفين أن الصور الحائطيّة علامة عن هويّة صاحبها. ما نراه على الحائط ليس ورقًا ولكن أناسًا أحياء يتحرّكون، يتنفّسون، يدخّنون وأحيانًا يتضاحكون ويهبلون كلّما كان ذلك ممكنًا.

– ألا يزعجك إذا قلّلت من الضوء أكثر، فأنا لا أتحمّله هكذا.

– ما عليهش. في عمق كلّ واحد فينا شيء من الرومانسيّة الدفينة.

عندما انتهيت من الرشفة الأخيرة للكأس، لأوّل مرّة أرى وجهها بكامل تفاصيله. بدأتْ بعض خطوطه تنزلق من وراء الماكياج شيئًا فشيئًا. الخانة التي تنام على أيمن شفتها العليا تزداد بروزًا وتزداد عيناها اتّقادًا ولمعانًا وكأنّها لم تتعب في آخر هذا الليل الذي يشبه في كلّ صفاته أوّل ليلة للمنفى. ربما لو قيل لي عرّف المنفى لاسترجعت حتمًا كلّ هذه التفاصيل الصغيرة.

أخذتُ كمان كليمونس ثمّ وضعته على ركبتي. تحسّسته قليلاً مرّة أخرى. انتابني شعور كأنّي أكتشفه للمرّة الأولى. ربّما لأن الأشياء التي يغيب أصحابها تزداد تألّقًا.

– أعزف لي ما تشتهي أن تعزفه لامرأة.

– عزفت. ألم يعجبك.

– لا. ليس نفس الشيء. أنا طلبت منك أن تعزف ما تشتهي عزفه لامرأة. أنت عزفت للجماعة مثلما فعلت كليمونس ولكن الآن أطلب منك أن تعزف لي.

– طلبك صعب. سأحاول.

تلمّست الكمان شعرت بأنامل فتنة ثمّ أصابع كليمونس الرقيقة ويد أمّها وهي تضغط على ذراع الآلة. لا أدري لماذا اخترت هذا الرومانس لموزارت Petite musique de nuit وبقايا النشيد الأندلسيّ الضائع الذي تعلّمتُه فتنة من ميمون.

كانت حنين مشدودة إلى الأوتار وإلى صمت المدينة بعدما انسحب سكّان الميناء الليليّون وخفتت الموجات التي كانت تتكسّر بقوّة عند الحافّة.

– هذا أوّل ما علّمته لي فتنة وبه أخرجتني قليلاً من صوت المذيعة نرجس الذي ظلّ يسكن الذاكرة ولم تعد تربطني به إلاّ

موضوعات الإنشاء. بالمقابل ظللت أكتب للمرأة المجهولة رسائل لم يكن لساعي البريد أبدًا حظّ حملها لها.

– عندما طلبت منك أن تحكي لي عن قصّة الصوت وليخا قلتَ نؤجّلها. ها هي ذي الفرصة. أريد أن أسمع سرّ هذا الولع العجيب. ما حكيته لماريتا وفيلهام مدهش ولكنّك لم تحك كلّ شيء. عندما نحكي نحتفظ دائمًا بجوهر ما لنا وللقريبين جدًا. أو هكذا أتصوّر على الأقلّ.

– الحقيقة لا أدري جيّدًا. المؤكّد أنّي اليوم كلّما بدأت أشتغل على نحت ما، سبقني المستحيل والعجز الكلّي. تخيّلي، أشعر بهذا الوجه، أصنعه، ألمسه ولكنّه ينتفي كلّما اشتهيته أن يكون بجانبي في لحظات الشوق. يبدو لي أنّ الفنّان يشتهي صناعة المستحيل ليقضي عمره كلّه في البحث عنه للمس خطوطه وقسماته.

– هه، إحكِ. الشاعر عندما يُستثار فضوله يجنّ وعندما يخسره يصبح إنسانًا عاديًّا. في نحتك سرّ كلّ ما تقوله ربما حتى كلاسيكيّة اليونان ممزوجة بحسّ إفريقيّ كما تقول عنك الفنّانة والناقدة ماريتا. امرأة مهمّة وآراؤها دقيقة.

– قرأت ما كتبته في الوثيقة التعريفيّة. منطقيّة جدًا في تأويلاتها ولكنّي أشعر أنّها بعيدة عن حقيقتي. طبعًا ماريتا ليست مجبرة على أن تكون لها نفس نظرتي. هي فنّانة ولكلّ فنّان قراءاته الخاصّة. تستغربين إذا قلت لك إنّي أجد نفسي أقرب إلى الحضارات البدائيّة، في حضارة الآزتك والمايا. هؤلاء الناس كانوا ينحتون على الشجر أو الصخر كائنات منهم وفيهم ويؤمنون بوجودها والتباسها معهم في الحياة. أحيانًا يحاربونها فيدمّرونها وفي أحيان

أخرى، يعيدون بناءها ويخافونها عندما يخطئون في حقّها بل ويعبدونها. في كلّ الحالات العلاقة ليست عاديّة. مخلوقاتهم تستقلّ عنهم تمامًا. عندما أعمل على المادّة الطينيّة تستيقظ فيَّ كل هذه التفاصيل القادمة من بعيد، لهذا عجزت عن أن أتخيّل وجهًا لنرجس، لصوت أعشقه مخافة أن لا يكون هو أو أن أشوّهه. مع الزمن ازدادت الشقّة الفاصلة بيننا وزادت درجة الخوف ترسّخًا. وأعتقد أنّي لن أصل أبدًا إلى هذا الوجه فالعجز صار جزءًا من الدورة الدمويّة C'est trop tard, tout est foutu .

– إلى هذه الدرجة؟

– تعرفين قَدَرُ الكلمات أن تحمل في عمقها ضعفنا الكبير ومع ذلك نجهدها لكي تقول أقصى ما يمكن أن تقوله. نتحدّث عن الفن ونحن نعيد إلى الواجهة كسوراتنا المختلفة وأحلامنا الصغيرة التي كلّما كبرت ازدادت مشقّتنا لاستيعابها.

– صحيح. كم أشتهي أن أكتب كلّ ما تقوله. ويسكي.

– ماء الزعفران. عندما نتجاوز الكأس السابعة نصبح قاب قوسين أو أدنى من تهلكة الهوى. وها أنا قد بدأت أنسى العدّ على غير عادتي لأعرف أيّ المسالك أتّبع؟ من أين نبدأ الصور الأولى. صعب استدراجها عندما تُطلب.

كلّ شيء بدأ عن طريق الصدفة. الصدفة التي قتلت الملايين وأعطت حياة جديدة للآلاف. حتى الحبّ الكبير، بالصدفة قد يأتي وبها كثيرًا ما ينطفئ. عمري لم ينه بعد السنوات العشر، سنوات الطباشير والدهشة الكبيرة والإخفاقات الصغيرة. كنت منكفئًا على بطني أبحث في الكتب عمّا يمكن أن يوحي لي بموضوع الإنشاء الذي ازدادت كراهيتي له حتى صرت مغلقًا عن

أيّة إمكانيّة للتخيّل. على الهامش، المذياع الصغير الذي أنام على موسيقاه وضجيجه المبهم أحيانًا. لم تسعفني ذاكرتي المتعبة على النوم لإيجاد مادّة إنشائيّة. كلّما تحدّثت معلّمة المادّة عن الإنشاء شعرت في أعماقي بنوع من القلق والضجر. كنت أجد الإنشاء أكبر مساحة لممارسة الكذب وأوهام الخواء. المكان الوحيد الذي كنّا نمضي فيه ساعة من الكذب المحترم الذي لم يكن على ما يبدو يزعج أحدًا. زملائي كانوا أكبر المشتركين في تنشيط هذه الورشة. في الخارج عندما أسألهم عن الكذب، يتضاحكون عاليًا ثمّ يتحدّثون باللّغة نفسها:

– وأنت مالك يا الناشف؟ ما دامت المعلّمة تحبّ ذلك. نتقيًا لها واش تحبّ تسمع ومن بعدها ما تعرفنا ما نعرفوها.

– الناشف ما يعرفش يكذب. الناشف يشرب القهوة كحلة في الصباح لمّا يكون محظوظًا ويتغذّى بالباطاطا والبصلة عندما يجدهما. الناشف ما عندوش مرسيديس يحوس فيها مع عائلته. الناشف ما يعرفش العطل الصيفيّة على شواطئ العاصمة ووهران ولكنّه يعرف القحط والماء المفقود.

كان إنشاؤهم فاضحًا. واحد يتحدّث عن عطلته الصيفيّة في باريس بصحبة والده وأمّه وأخوته الثلاثة وآخر يمعن في وصف شواطئ عنّابة ووهران والعاصمة وهو لم يتخطّ عتبة القرية وأبوه الذي لم يعرف في حياته إلاّ القرية والمداشر المحيطة بها، لا يدري ماذا يفعل بأولاده العشرة المتلاحقين كصغار الأرانب، بعد وفاة الزوجة بالمالاريا. آخر يتحدّث عن المدافئ التي تملأ أركان البيت وتسخّن الدار كاملة ولهذا فهم لا يحسّون مطلقًا برد الشتاء القاسي، أمّه المسكينة تظلّ عالقة بذيول الأبقار كلّما نزل من هذه

الأخيرة روث لمّدته في سلّة من الحَلْفاء وعادت به إلى البيت وألصقته على الحائط لتجفيفه وادّخاره لبرد الشتاء، فناره قويّة مثل خشب الصنوبر. وآخر يباهي بسيّارته الفارهة التي يخرج فيها مع ابنة خالته ويذهبان إلى كبريات المدن وهو لم يركب في حياته إلاّ حمار جدّته العجوز، ينزل به كلّ صباح نحو العين لملء قربات الماء قبل ذهابه إلى المدرسة، وكلّما غاب والده الذي يبيع ويشتري في سوق الأغنام، ركب نعجته الشارفة، يجامعها لبعض الوقت قبل أن ينزل ليلاً للعين للاستحمام. عندما يصادفه الكبار القادمون من عمل الأرض وهو يعوم في الجابية، ينكّدون عليه عومه:

– واش يا السي عبد الرزاق، بصحتك العرس مع النعجة الشارفة. شابة يا حبيبي. ممُّو العين. نهار اللي تموت المخلوقة كيفاش راح تعمل.

لا يردّ على أحد. يستحمّ عاريًا كما ولدته أمّه ثمّ ينزلق نحو بيتهم. وآخر، عندما يقوم في الصباح، ينزع البيجاما، ويغسل فمه بمعجون الأسنان ثم يسحب الكرسيّ القديم الذي كان يجلس عليه جدّه ويأكل فطوره المكوّن من القهوة بالحليب والبيض المسلوق وشرحات اللّحم اللّذيذة والزبدة والفرماج. أقاوم انفجار الضحكة بصعوبة. أقسم أنّه ينام ببوطه الذي كلّما سقط المطر بدأ يبقبق من كثرة المياه التي تدخله. كان يرتجف من البرد لرثاثة لباسه وهو يقرأ إنشاءه. المعلّمة تقول إنّ الإنشاء هو أجمل فسحة للخيال. أحسّ من كلّ أعماقي أنّ المدرّسة التي تنهرنا عن الكذب كانت تسمح لنا به في فسحة الإنشاء وتؤسّس لأخطر مرض فينا: الكذب المكشوف الذي يعرفه الجميع ويتغاضون عنه. كانت عندما يصلني

الدور تسبقني إلى الكلام:

– وأنت يا ياسين؟ واش؟ ناشفة دايمًا؟

أتذكّر كفّي زليخة المملوءين بالطين وقد انعكف ظهرها وهي شابّة وعيون أمّي الدامعة في الكانون وهي تشعل النار لتسخين التربة. ماذا أقول؟

– والله ناشفة يا معلّمة.

منها سمّاني أصدقاء المدرسة ياسين الناشف.

يستعصي عليّ الإنشاء. أتقلّب في مكاني. أمامي زليخة ساهرة إلى آخر الليل في تحضير وتنظيف ما صنعته مع أمّي من أوانٍ فخاريّة لإدخالها إلى سوق الأحد لبيعها هناك. أترك كل شيء وأبدأ في العبث بالطين الناشف. أصنع السيّارات ومختلف الأشكال لنسيان الإنشاء. تتمتم زليخة كعادتها وهي توبّخني:

– ما دام راسك ناشف، أخدم مجمر وإلاّ قصعة وإلاّ كيسان وإلاّ روح تكتب على الأقلّ كانش ما يطلع منّك شي وتخرجنا من هذا البؤس.

أظلّ في عبثيّتي أبحث عن شيء ما كنت عاجزًا عن تحديده. زليخة على الرغم من ذكائها الحادّ غادرت في وقت مبكر المدرسة لتتفرّغ نهائيًا لمساعدة أمّي التي بدأت تتعب.

– لن أتوقّف. كيف أعاونك وأنت لا تفعلين شيئًا لمساعدتي من أجل إنجاز موضوع الإنشاء.

– على ما أعتقد، المعلّمة موجودة لهذا الغرض؟

– لا تعرف شيئًا. تأتي ثمّ تأمرنا بالقراءة وتدفن أنفها في كتاب قديم ولا نسمع بعد لحظات إلاّ شخيرها يصلنا كمحرّك سيّارة قديمة. وكلّما فتحت عينيها تتمتم... إنطق مليح الهمزة؟ إقرا مليح

يقري عليك الطلبة؟ إفتحْ فمك مليح خايف يسرقوا لك لسانك؟ إشكل الكلمات الأخيرة ما تسكّنش... قبل أن تعود إلى نومها: إعملوا فسيرى الله عملكم والمؤمنون... وعندما يدقّ الجرس تخرج بعد أن تمسح عينيها وتعطينا موضوع الإنشاء القادم.

زليخة لم تكن لتسهّل لي المهمّة في ذلك المساء. رفضت أن تمدّ لي يد العون. أمامها كتلة طينيّة كبيرة عليها أن تنتهي منها. واصلت تمدّدي والاستماع إلى الراديو وأنا أتذكّر كلمات المعلّمة. عليك أن تجد حلاً لهذه المعضلة. لا يمكنك أن تواجه العالم بضعف مدقع في الإنشاء. أنت جيّد في كلّ شيء إلاّ هذه المادّة. لا أريدك في المرّة القادمة أن تأتيني بنفس الحجّة الواهية. لأوّل مرّة أشعر أنّ خياراتي كانت محدودة تمامًا. ثمّ فجأة توقّفت عن كلّ تفكير كأنّه كان لي موعد خاصّ معها. سمعت صوت المذيعة نرجس التي كانت تعدّ برنامج: آخر الليل. ياه؟ شيء ما غامض شدّني إلى هسهسة الصوت الذي كان منغمسًا في الشعر. كان يأتيني من بعيد ممزوجًا بأحاسيس الوحدة والخوف على إيقاعات إسبانيّة قديمة ، كان يقرّبني ممّا كانت تعلّمه لي فتنة كلّما حلّت بالقرية قادمة من وهران.

من تحت الشمعات المتآكلة رأيت وجه حنين بعينيها المتّقدتين. كانت تمضغ شيئًا مبهمًا. تذكّرت المهبولة في لحظة ما من اللحظات. النبتة المرّة. عشبة اللّذّة. رغم متاعب الشرب، بقيَتْ مثل طفل صغير مشدودة إلى سحر الحكاية. غمغمتْ:

– هل تتذكّر اسم المذيعة صاحبة هذا الصوت الذي ضيّعك؟

قالتها وهي تضغط على الكلمات الأخيرة وتكتم مزاحًا مبطّنًا لم أفهم جيّدًا مقصدها.

– نرجس. لم تنتبهي؟ ذكرته. اسم لا ينسى أبدًا. لو تخلّى عنّي مخّي كلّيّة سيظلّ محتفظًا بهذا الصوت الذي لا يموت. حتى في تشكّلات الورد المختلفة لا أرى إلاّ النرجس. الباقة التي أتيتك بها هذا اليوم هي من هذا التاريخ البعيد ومن هذه الذاكرة المبهمة.

– ياه... أيّ حظّ وأيّة متعة يشعر بها الإنسان حتّى وهو بعيد عندما يطمئنّ أنّ على هذه الكرة الأرضيّة هناك أناس يحبّوننا ويفكّرون فينا باستمرار. يبدو لي أنّ الحبّ هو أجمل عزاء وجده الإنسان للتوازن.

تنهّدتْ بعمق ثمّ صمتَتْ قليلاً. كانت كأنّها تبحث عن نَفَس جديد يسمح لها بمواصلة السهرة. عيناها لم يمت اتّقادهما وشوقهما وحنينهما. حرّكت رأسها قليلاً لتسحب خصلة الشعر التي غطّت وجهها. رأيت من وراء الفجوات انكسارات الضوء. تذكّرت النخلة والمهبولة والوليّ الصالح واللّيلة التي سرق البحر منّي جزءها الأخير.

– إيه، أين كنتُ؟

– في نرجس طبعًا.

– أعجبني ما سمعته منها وتأكّدت أنّها فرصتي لموضوع الإنشاء. نقلت كلّ الكلمات التي قالتها في ذلك المساء. قصّة الرّجل الذي كان يريد أن يصعد السلم بسرعة لكي يصل إلى القمّة قبل الآخرين. السلّم كان عاليًا جدًّا ووصل منهكًا فداخ ثمّ تدحرج من الأعلى فمات. الحكمة المبطّنة هي أنّه على الإنسان أن يصعد في الحياة بهدوء وبثقة حتى يحتفظ بكامل قواه ويصحّح مزالقه الممكنة. قد لا تبدو القصّة الآن مهمّة ولكنّها في وقتها لم تكن عاديّة. وأمام معلّمة مرتبطة بالحكم وبلافونتين وابن المقفّع وزهير

ابن أبي سلمى كنت متأكّدًا أنّ الرضى سيكون كاملاً. كان من الصعب عليّ تتبّع كلّ كلام نرجس ونقله، فكنت أجد متعة خاصّة في ملء الفراغات. كان الصوت يضعني داخل حالة من الوجد تقرّبني من متعة الكتابة والتخيّل، وتدفع بي إلى الحفر عميقًا في تفاصيل حالة الفقدان. تأكّدت مع الزمن أنّي كنت مصابًا بها. بشيء غامض يشبه الإحساس الذي شعرت به حيال المهبولة. انتقلت من أكسل تلميذ في الإنشاء على الكرة الأرضيّة كما كانت معلّمتي تردّد دائمًا، إلى أشطر تلميذ استطاع في وقت قصير أن يتفوّق وأن يسترجع ثقته في موروثه الثقافيّ الأكثر خطورة: الإنشاء. عندما تصل المعلّمة إلى كلمة إنشاء تتوقّف طويلاً، تتنهّد وتتمتم: آه واش من خسارة لا تُعوّض. ثمّ تواصل بنفس الانبهار والحماس. التلاميذ الذين كانوا في القسم يقاسمون المعلّمة تنهّداتها، يتمسخرون بي ومن عبقريّتي المفاجئة: صحًّ، الناشف ولّى عالم؟ قل لنا يرحم والديك كيف نزل عليك الوحي؟ واش من حمار مات. منين دخلتك الفهامة؟ علم كبير هذا. خبزة طاحت على كلب راقد. لم أكن لأردّ على الاستفزازات ليس خوفًا منهم ولكن خوفًا من انفضاح السرّ الذي كنت أستكين إليه كلّ مساء. مع الزمن آمنوا أنّ الإنشاءات التي كنت أكتبها لم تكن من شخص غيري.

صارت العمليّة دورة يوميّة مكرورة كان من المستحيل التخلّص منها. حتى زليخة اندهشت من التصاقي ببرنامج آخر الليل ولكنّها كانت سعيدة أنّي وجدت حلاّ لمعضلة الإنشاء ولتركها تشتغل بدون إزعاج بأسئلتي المقلقة. مع ذلك، نبّهتني ذات مساء لشيء كنت أخافه دائمًا وأعمل جاهدًا على تغيير الاستراتيجيّات باستمرار لإبعاد حصوله.

– النهار اللي يفيقوا بك يبهدلوك. معلّمتك راح تنتف شعرها مسكينة. الرجل اللي اتكلت عليه باش يحرّر الوطن العربيّ بالإنشاء طلع لها فالسو Zero .

– أنا لا أسرق. واش راني ندير. أستمع وأكتب وأغيّر قليلاً.

– وإذا حصل ونقل مهبول مثلك كلمات نرجس وقدّمها للمعلّمة؟

– الكلام ليس لنرجس، هي كذلك تأتي به من الكتب.

كلام زليخة لم يكن بلا معنى. في مرّة من المرّات جاءني كريمو، أحد التلاميذ ليقول لي بطريقة خبيثة:

– أنا عارف المرأة التي تنقل عنها. عشرين دورو كلّ صباح وأسكت وإلاّ أطربقها على دماغك.

فكّرت في لحظة من اللحظات أن أقتله وأتخلّص منه. لم يتوقّف إلاّ عندما أخذ مني العشرين دورو التي حوّلها مع الزمن إلى ضريبة كان عليّ نزعها من لحمي لأتّقي شرّه. في القسم، كلّما بدأنا مادّة الإنشاء، يرفع أصبعه، فأرتعش وأقول في خاطري: يا ربّي تحفظ. خلاص، كارثة اليوم سيفضحني. ثمّ يقول أيّة تفاهة وهو ينظر إليّ بابتسامة فيها الكثير من الملعنة والخبث، وعندما نغادر المدرسة يطالب بحقّ السرّ كما كان يسمّي ضريبته. ولما بلغ ابتزازه درجة لا تطاق، اعترضت طريقه في رحبة السوق. كان المكان خاليًا. وصرخت في وجهه: بلا يمّاك ما نزيد لك دقيقة. ما عندكش خيار، تقول واش تعرف وإلاّ راح يكون نهارك الأخير. لم أكن أعرف أنّه كان بذلك الجبن. بدأ يرتعش ويصرخ: كلّ الناس يقولون بللّي هي اللي تكتب لك. زليخة... زليخة... زليخة... ردّدها ثلاث مرّات متتالية ثم صمت. تركته وعدت إلى

البيت بعد أن هدّدته بعقاب أفظع إن هو أخبر المعلّمة بما حصل بيننا.

ذات مرّة سألتني المعلّمة بنوع من اليقين، فأربكتني لحظة شعرت فيها بأنّ الأرض تنفتح تحت أقدامي ونظرت إلى غريمي فأحنى رأسه. كان التلاميذ مثل الذي ينتظر فرصة العمر للسخرية منّي. قالت:

– ما تفزعش إذا سألتك عن إنشاءاتك؟

قرأت في عينيها أشياء غامضة أرعبتني. ماذا لو يكون ابن الكلب قد قال لها حقيقة أخرى غير التي أسرّ بها إليّ لإيهامي؟ في لحظة من اللحظات فكّرت أن أعترف لها وأخلّص نفسي من هذا القلق المستمرّ. لكنّها أنقذتني إذ سبقتني إلى الحديث.

– هل تحبّ الإنشاء حقيقة.

لا أدري لماذا لم أرتبك، سؤالها لم يكن بريئًا.

– ولكن أنا أكتب ذلك كلّه برغبة كبيرة.

– لا أشكّ في ذلك أبدًا. أنا سعيدة جدًّا بما تقوم به. حتى إمكانياتك تطوّرت كثيرًا. لكن... قل لي... زليخة... زليخة أختك تساعدك في عملك؟ قصدي هل تكتب لك؟

وضعت يدي على فمي وحمدت الله أنّ سرّي الكبير لم يُكشف.

– زليخة مسكينة ما تعرفش تكتب حتى اسمها. شوي أحسن من يمّا.

ضحك كلّ القسم. شعرت بعدها أنّي حققت أكبر انتصار لي في حياتي.

– أعرف. قلت ربّما إنّها تساعدك قليلاً وهذا ليس عيبًا.

– تعرفين يا أستاذة لو كانت زليخة تعرف الكتابة لتغيّرت حياتها وحياتنا معها كليّة.

صمتت المعلّمة ولم تقل كلمة واحدة ولكنّها نظرت بكره إلى كريمو.

عندما خرجنا احتفظت به. عرفت أنّها غسلته وبهدلته ونصحته بأن يغار ولا يحسد. قبضتْه من أذنه اليمنى وقالت له إقرأ ما كُتِب على حائط القسم، وبدأ هو يفكّك الحروف ويتألّم لأذنه التي كانت تُلوى: الح... سود... لا... ي... سو... د.

بسرعة نسيت الحادثة وعدت إلى صوتي الذي كان يأتي من أعماقي ومن تفاصيلي الغامضة. كنت أجد متعة كبيرة في هذا الصوت الذي كان يعطيني متعة استثنائيّة للتسلّل عبر الصوت إلى جسد مبهم.

في نهاية السنة الموالية انطفأت معلّمتي في عمليّة جراحيّة فاشلة وواصلت ضياعي والتصاقي بالصوت الذي أصبحت أتخيّله حتى وأنا أساعد ليخة على صناعة الأواني الفخّاريّة. كلّما رسمت وجهًا لدمية تخيّلت نرجس عبثًا. فقد كان وجهها مستحيلاً وصعبًا، تخيّلي رجلاً يرسم وجهًا لم يره في حياته. محنة؟

– تعرفين يا حنين ماذا يقولون في قريتنا؟ الطمع يفسد الطبع.

هذا ما حصل معي. ذات مساء وأنا منغمس في نقل قصيدة، قلت لمَ لا أكتب أنا كذلك وأبعث لها وأسمع صوتي على الهواء؟ غمرتني الرغبة القصوى لفعل ذلك. كنت أعرفها وكنت أشعر أنّها هي كذلك تعرفني. حالة المحبّ دائمًا هكذا، يرى نفسه دائمًا في الآخر. كتبت ولم أتلقّ أيّ رد. ثمّ كتبت. وكتبت، في كلّ ليلة أنتظر عبثًا سماع اسمي. الحبّ من طرف واحد حبّ فاشل في

أصله. طمأنت نفسي.

عندما رأت زليخة شططي قالت لي:

– يا خويا هذا حبّ وإلاّ همّ؟

– وأنتِ واش دخلك فيَّ؟

– يا ولد الناس، هي الآن نايمة في أحضان حبيبها وأنت قاتل روحك على الفراغ. أقبض الأرض وأرواح تعاونني خير لك. الطّين اليوم كثير ويدّينا حفاوْا.

وتعود هي إلى تشكيلاتها الطينيّة وأنا إلى شططي ثمّ أدخل إلى الفراش وفي يدي الطّين الآجوريّ، أواصل البحث الصعب عن الوجه الغائب حتى يأخذني النوم وأنا لا أجد وجهًا مناسبًا للدمية الطينيّة. تغطّيني زليخة وفي الصباح أستيقظ على صوت الديك المريض وعلى حركة أمّي وهي تضع جذور الدوالي في النار لتسخين الشاي والتي أسمع فرقعاتها وأنا نصف نائم أو على قرقعة الكؤوس وأمّي تحضر الصنيّة وتتمتم عند رأسي: قمْ يا وليدي عاون أختك، الحال صبح. أتدرّج نحو فناء الدار وفي يدي تشكيل طينيّ عجيب من كثرة عجنه في المنام. وشيئًا فشيئًا أجد نفسي منغمسًا في تنقية الكتلة الطينيّة من الشوائب والأحجار والأتربة المتصلّبة التي تكون زليخة وأمّي قد عجنتاها بالأقدام مثل الذي يحضّر خبزة ضخمة لعرس كبير وقبل أن تبدأ زليخة في العمل الجدّي، أكون قد صنعت عروسة غريبة، عارية، بساقين طويلتين ووجه صغير وذراعين رقيقين كفرعي شجرة ميتة أو مثل ذراعَي قرد مريض بالسلّ وبطن منتفخ وأكتب في صدر الكتلة الطينيّة: زليخة عندما تصل تلعنني كالعادة ثم تشكّل نفس الكتلة وتنحت منها وجهًا رائعًا. المدهش عند ليخا هي أنّها امرأة استثنائيّة، مثل

أمّي من لا شيء تبني عالمًا مدهشًا. وعندما تنغمس بعمق تنسى كلّ ما يحيط بها. وأنهمك معها في إتمام مجموعة العرائس التي تحضّرها للبيع مع المجامر التي تصنعها أمّي والأكواب الطينيّة والأواني الفخاريّة الأخرى. منذ أن فتحت عينيّ لا أذكر أنّي رأيت أمّي ارتاحت يومًا واحدًا في حياتها. وعندما أقول لها:

– يا يمّا ريْحي شويّة.

– قدّامنا الموت ونريّح حتى نشبع.

في البداية تعلّمت من زليخة كيف أصنع هياكل العرائس من الأسلاك المعدنيّة التي كانت نادرة أو غالية عندما نضطر لشرائها ولكنّي ذات مرّة اقترحت عليها تعويض المعدن بالقصب فهو موجود بكثافة في الوادي ولا يكلّف شيئًا. قالت زليخة وأنا أضع الاقتراح بين يديها:

– شكون يجيب القصب. الوادي مليان بالذراري اللي يعومو عريانين كالعفاريت.

– أنا ندبّر راسي. نعرف الوادي مليح ونعرف الذراري.

بدأت لذّة ما تدخلني. كلّما صنعت عروسة، كما كانت تسمّي زليخة الدمى الطينيّة، شعرت أنّ بها شيئًا منّي. حكاية القصب هذه حرّرتني من الأسلاك المعدنيّة وإن ظللت مشدودًا إلى وجه نرجس المستحيل إذ تنتابني أحيانًا الرّغبة لعجن كلّ ما أنجزته مع زليخة لأنّه يخالف جوهريًا ما كنت أريد إنجازه. وعندما أقصّ رغبتي على زليخة تنهرني:

– شوف يا خويا لمّا تكون معايا أخدم العرايس اللي نحبّ أنا، ولما تكون وحدك أعجن كما تحبّ.

وهكذا بعد الانتهاء من مساعدة زليخة، أصبحت أخصّص

مكانًا لي أتمرّن فيه على ما أشتهي فعله. أشكال لا معنى لها ولكنّها كانت لي. كانت فتنة هي الوحيدة التي تستمتع بهبلي. عندما تعود من وهران، قبل أن تفقد أخاها، تخرجني من طيني وتقول لي: إقرأ لي حبيبي ماذا كتبت لنرجس وأرني ماذا فعلت. أقرأ عليها خطوطي المرتبكة وأصادف من حين لآخر عينيها المرتشقتين فيَّ فأخاف. في القرية كان الأطفال يسمّونها: المشّ الخلوي. وأواصل القراءة متفاديًا عينيها الزرقاوين. وفي مرّة من المرّات جاءتني بمجموعة من الصور البدائيّة عرفت فيما بعد أنّها من حضارات الآزتك والمايا والحضارات البائدة، بدأت أجد لذّة في تقليدها وأصبحت لا أجد ضرورة لصناعة الرؤوس. كلّ الصور التي جاءتني بها فتنة كانت بلا رؤوس.

عندما تعود زليخة من السوق تتشفّى فيَّ وهي تسخر من أعمالي التي لم يشترها أحد في سوق الأحد:

– لمّا نقول لك أنت مهبول معناه أنت مهبول. عرايسي كلّها تباعت وعرايسك رجعت لك.

لكنّ كلّ شيء تغيّر عندما زارنا لكحل جارنا الذي يشتغل بالمركز الوطنيّ للتكوين المهنيّ. طلب منّي أن آتيه بما كنت أنجزه من أعمال فخّاريّة ومنحوتات بدائيّة. كنت أعرف أنّه كان يفعل ذلك من أجل زليخة. كان يحبّها وكانت تتمنّى بعينيها أن تصير زوجته. طلى كل أعمالي بسائل أملس ومبرق، قال لكي لا يحول لونها ولا تتحلّل إذا مسّها ماء. معرض الفخّار والمنحوتات الذي نُظّم بالمدرسة لم يكن كبيرًا ولكنّه كان كافيًا لأن يجعلني أثق في نفسي بل وأشعر ببعض الغرور اتجاه زليخة. تكلّم لكحل في المعرض أكثر ممّا تكلّمت. فقد دافع عن كلّ منحوتاتي ممّا سهّل

عمليّة بيعها للحاضرين الذين يزورون المكان مرّة في السنة لمعاينة وشراء ما يصنعه شباب المركز لتشجيعهم. عندما عدت إلى البيت كنت قد بعت كل شيء.

لكحل رجل طيّب. هو الرّجل الثاني بعد ميمون الذي لم يغادر البلد إلى المهجر ولكنّه زحف نحو أقرب مدينة ليتعلّم ويعلّم الآخرين. صحيح لم يصل إلى ما وصل إليه ميمون من شهرة عالية قادته إلى الظهور على شاشة التليفزيون كأهمّ عازف كمان على الصعيد الوطنيّ. عندما يبدأ أنينه، كل العيون ترتشق فيه وفي هيأته العالية Il était comme un seigneur . لقد عانى لكحل كثيرًا من احتقار الناس وسخريّتهم ببشرته السوداء ولكنّه ظل واقفًا على قدميه كنخلة، تقول زليخة كلّما تحدّثت عنه. وعلى الرّغم من نجاحه لم ينج من دسّ النّاس. بعضهم يقول عنه إنّه يعمل حمّالاً في مدينة كبيرة والبعض الآخر يقسم بكلّ الأولياء أنه رآه يدرس بالنّهار وبالليل يشتغل في المقاهي الشعبيّة وفي الفجر يذهب نحو ماخور المدينة ليوزّع القهوة الصباحيّة على العاملات هناك. وحدها زليخة كانت تثق بما كان يفعله. عندما كان يأتي لزيارتنا، يسلّم على رأس أمّي، يشرب قهوته ثمّ يحادث زليخة قليلاً ويخرج ليعود بعد مدّة طويلة.

من عينيه كنت أعرف أنّه كان يحبّها ومن انكساراتها وارتعاشاتها كنت أعرف أنّها كانت تشتاق إلى رؤيته.

عندما عدت إلى البيت قادمًا من المعرض بكمشة دراهم، قهقهت في وجه زليخة:

– الشحّ فيك. بعت كلّ الأشكال التي صنعتها.

– كاش مهبول كيفك اشتراها؟ قل لي ما بعث معك لكحل ولا

شيء؟

عندما رأت أمّي النقود موضوعة على الأرض، صرخت:

– إيّاك تكون سرقتهم.

– لا يا يمّا. ياسين شيطان بالصّح ما يسرقش. لكحل باع لي كلّ العرايس في المدرسة اللي يخدم فيها.

الزوّار كانوا طيّبين فاشتروا كل شيء.

– يكثر خيره.

قالت زليخة.

– فهمنا ما ناش مغلوقين. ما قال لك لكحل ولا شي عليّ.

– مثلاً، واش يقول؟

صمتت فجأة. وعندما خرجت أمّي قالت بحسرة الذي خسر حربًا كبيرة.

– إيه. عندك حقّ. واش راح يدير بامرأة يدّيها معمرين طين؟

لأوّل مرّة أرى الانكسار بهذا الشكل على وجه زليخة. لا أدري الدافع إلى الكذب ولكنّي وجدت نفسي أغيّر كلّ تفاصيل المشهد مثل مخرج مسرحيّة دراميّة فاشل. الحقيقة مثل المرض، لا تُخبَّأُ طويلاً.

– أعطاني شيئًا وطلب منّي أن لا أسلّمه لك إلاّ في الغد.

أشرقت عيناها الذابلتان بنور مثل النور الذي يأتي من الأعماق في لحظة سعادة. كانت على حدود الموت فأصبحت على تخوم الجنون. وفي الغد عندما عدت من المدرسة مررت على دكّان عمّي الشريف واشتريت لها نواشة حمراء غلّفها لي البائع في ورق ملون. عندما رأتني قادمًا من المدرسة وقبل أن تسألني سرقت منّي العلبة الصغيرة وفتحتها وأخرجت النواشة الحمراء وغرستها في

الجهة اليمنى من شعرها كما كان يفعل الغجر المجاورين لسوق الأحد. كانت على استعداد لتصديق أيّة كذبة جميلة.

– شفت لكحل شحال طيّب. النّاس ما يرحموش. ياسين، قل لي، كيف جاتني النواشة؟

– هايلة. هايلة. هايلة.

لأوّل مرّة أرى زليخة بكلّ هذه السعادة. كيف تغيّر الكلمات الناس. وكيف تصير الكلمات أقسى عندما تلمس جرحًا متخثّرًا وأنعم من ماء الجنّة عندما تحاذي وجهًا حزينًا. أمّي تقول إنّ الكلام مثل البارود، يحرق قبل أن يقتل.

أمّي خرجت مبكرًا على حمارها لجلب الأتربة الآجوريّة من غار الصيّادين. أتذكّر أنّ الصيف كان قائظًا في ذلك اليوم. كنت ممدّدًا على الحصير بحثًا عن الرطوبة مثل الحشرة الصغيرة عندما سمعت زليخة ترفع صوتها على لكحل. لم أر زليخة يومًا بهذه الصورة. كانت تبكي وهي التي لم تبك أمام رجل حتّى في أقسى الظروف.

– الزهره انتاعك رايحة تهبلني. عييت منها يا خويا. ديما لاصقة فيك. لكحل أديني للحمام. لكحل أرفد معايا السلة رايحة نشري. لكحل رافقني عند الطبيب. لكحل حابة نروح عند خالتي تمشي معايا... والسلسلة طويلة. أنت عبد وإلاّ رجل حرّ؟

– الزهره، بنت عمّي، واش نقول لها. شهر وتعود لفرنسا.

– وأنت تعود لخدمتك في المدينة. وأنا واش نكون وسط كلّ هذه الفوضى؟

– أنتِ الأهمّ. هذا العام هو الأخير. حتى أنا تعبت. نخطبك من ماما ميزار ونتحرّر نهائيًّا من عيون الناس اللّي ما ترحمش .

يأتيني الهدوء دافئًا وصافيًا وأنا أستمع إلى صمت زليخة المفاجئ. أراها بقلبي كما تقول أمّي. يمكن أن نرى الذين نحبّهم بقلوبنا عندما تكون بيننا وبينهم الحواجز الصّعبة. أراها تخبّئ بصعوبة ابتسامتها المسروقة والبريق الذي يخرج من عينيها الواسعتين.

عندما عادت أمّي كانت زليخة قد هيّأت كلّ شيء وبدأت تشتغل بحماس كبير حتّى نهرتها أمّي ولكنّها لم تتوقّف. زليخة هكذا، تفرغ طاقتها في العمل عندما تكون سعيدة أو حزينة.

كانت أمّي كلّما فضّلت قليلاً من الدراهم تقول هذا لعرس زليخة. ثمّ تغرق معها في الطين بالرجلين واليدين. كان قلب أمّي واسعًا مثل غابة وكان قلب زليخة بريئًا مثل عينيّ طفل. سمعتْ بعد ذلك كلامًا أوجع قلبها ولكنّها لم تحرّك ساكنًا. أخت لكحل قالت كلامًا للجيران وصل زليخة في اليوم نفسه وأنّه سيتزوّج من ابنة عمّه وأن المطيّنة (زليخة) راها تخرف. لم تصدّق شيئًا ممّا كانت تسمعه من هنا وهناك. حتّى اليوم الذي وصلتها فيه رسالة لكحل من فرنسا. جاءت تجري نحوي وهي تحاول أن تنظّف يديها من الطين في لباسها.

– خذ إقرأ لي. ما نعرفش لفرانساويّة. هو يكتب بها. هكذا راح تسكت أخته المسمومة التي لا تتوقّف عن ترديد أنّه تزوّج بابنة عمّه الزهره وسيبقى هناك بفرنسا. وراح نمسح لها وجهها بالرسالة، الخامجة. إقرأ. لكحل ولد ناس. قلبي لا يكذّبني.

لكن هذه المرّة قلبها كذّبها.

فتحت الرسالة. كانت مقتضبة. Une lettre courte n'est jamais un bon signe. هكذا تعلّمت من فتنة في وقت مبكر.

وبدأت أهجّي الحروف التي كانت تنفصل تحت عينيّ كلّما وصلت إلى ما يؤلم زليخة. طريقنا وصل إلى نهايته. لقد تزوّجت بابنة عمي الزهره. علينا أن نقبل بالقدر المسطّر سلفًا لكلّ واحد فينا، أنتِ هناك وأنا هنا ولا يمكن أن ننشئ حبًّا يتيمًا بالمراسلة. أعتذر. لكحل.

صمتت لحظة. ارتشقت عيناها في أفق بعيد كتمثال هندي. لم تقل شيئًا. أخذت منّي الرسالة بهدوء وذهبت نحو الكانون ثمّ وضعتها في النّار وظلّت تستمع إلى خشخشاتها وهي تتحوّل إلى رماد. ثم التفتت نحوي وفي عينيها بقايا دموع منكسرة:

– شوف يا حبيبي ياسين. أنت مازلت صغيرًا. الدنيا بنت كلب، صعبة بزاف، اليوم معك وتشوف فيك وغدًا تعطيك بقفاها. عندما تحبّ لا تحبّ بكلّك وإلاّ تموت مغبونًا. خلِّ دايمًا شويّه ليك حتى تقدر توقف على رجليك.

– ما عليهش.

هذا ما استطعت قوله. لكن حفظت جملتها الأخيرة عن ظهر قلب.

طوال الستّة أيّام التي تلت، عملت باستماتة وبدون توقّف حتى مرضت ودخلت الفراش. في اليوم السابع ماتت وفي اليوم الثامن دُفِنت، لم يَسِرْ وراءها إلاّ أنا وأمي وبعض الجيران وعمّي دالي الذي حفر قبرها وعمّي الشريف الذي اشتريت من عنده النواشة الحمراء التي وضعتها داخل شعرها كغجريّة. صرت منذ ذلك اليوم يتيمًا، عاري الصدر والظهر. أخي عزيز كان ما يزال صغيرًا على المهالك اليوميّة التي بدأت أستشعرها. يبدو أنّنا عندما نكون ممتلئين بإنسان ونفقده، نشعر بعري ما وبرعشة برد تأتينا من جهة

ما من جهات الجسد.

في المساء نفسه انتقيت كؤوسًا فخّاريّة عديدة كنت قد صنعتها مع زليخة ووضعتها على قبرها. يقولون عندنا، الكؤوس تروي الميّت العطشان إذ تروي الطيور وكائنات المقابر الصغيرة، ومجسّمًا صغيرًا صنعته بيدي، كان قد أعجبها كثيرًا لكن حارس المقبرة الملتحي بشكل متوحّش ومخيف، أعطاني درسًا في الدين.

– إسمع يا وليدي، أنت صغير ما تعرفش. الميت لا يطلب الأصنام. إترك فقط ما استطعت من الأواني الفخاريّة فهذا ما يحتاجه الميت، البقيّة تؤذيه أكثر ممّا تنفعه.

في الصباح عندما عدت إلى قبرها لم أجد إناء واحدًا. فقد أُخذت كلّها. وتعرّى قبرها وخفت أن تعطش زليخة. قضيت أسبوع العطلة المدرسيّة بكامله في صناعة آنية تحفظ الماء ولكنّها غير صالحة للسرقة. عندما هممت على وضعها على القبر رغم البرودة، جاءني الحارس كالعادة.

– ما هذا؟

– أواني لحفظ الماء.

– هذه الأواني ذات الأعناق الطويلة لا يشرب منها إلاّ الثعابين.

قالت أمّي التي لا أدري من أين خرجت في ذلك الصباح البارد:

– ربّما كانت أرحم من البشر.

لم يقل شيئًا ولكنّه انسحب بين الممرّات وانسحبت أمّي بدون أن تضيف ولا كلمة واحدة، بينما صعدت أنا على شجرة في غفلة منه. التفتَ يمينًا وشمالاً وعندما لم ير أحدًا اقترب من قبر زليخة

وبدأ في نزع الأواني التي غرستها على جنبات القبر ثمّ ضربها على الشاهدة فكسرها. الأواني الأخرى التي قاومت عنفه، ضَرَبها على الصخور المجاورة لتصير فتاتًا. في لحظة ما وأنا أتأمّل المشهد، شعرت به يكسر ذراعي زليخة ويديها وكدت أصرخ لولا خوفي من سحنته التي زادت توحّشًا مع عمليّة الكسر. عندما ذكرت الحادثة لأمّي. قالت لا تفعل شيئًا. الميت يحتاج إلى الراحة. وعندما عدنا لزليخة مرّة أخرى، لم تتكلّم بتاتًا ولكنّها نقَّتِ القبر وانسحبت. لم يقترب منّا بتاتًا ولكنّه ظلّ ينظر إلينا من بعيد وظللت أنظر إليه حتى انسحب بين ممرّات المقبرة.

في العطلة الصيفيّة حملت صخرة كبيرة على ظهري كصليب المسيح واخترقت بها سياج المقبرة ووضعتها بالقرب من شاهدة القبر. وبدأت أحفر فيها كلّ يوم قليلاً. طوال الثلاثة أشهر لم أفعل شيئًا آخر غير النقش. الموت والألم أحيانًا يجعلاننا نختصر السنوات. ويوم شارفت على الانتهاء، شعرت بظلّ الحارس على رأسي، التفتّ نحو همهماته القبيحة التي كانت تشبه همهمات ميت خرج للتوّ من قبره:

– الميت يحتاج إلى الماء فهو لا يأكل الصخور.

– هو في الجنّة ولا يحتاج مطلقًا إلى أيّ شيء.

– شكون قالك هذا الكلام؟

– ربّي قاله. وقال اللي يمسّ قبر ميت يشويه على سفود في ذيك الدار.

– أمثالك يشوفوا ربّي؟

– وعلاش لا؟ هو مش امرا متحجّبة تخاف على روحها من الرجال، وإلاّ واحد خوّاف.

وواصلت نقشي بينما واصل هو البحث عن طريق له بين القبور التي تكاثرت في السنوات الأخيرة. في الشهر الثالث كان وجه زليخة قد برز بدقّة على الصخرة واسمها وتاريخ وفاتها وهذه الكلمة التي قالتها آخر مرّة:

عندما تحبّ لا تحبّ بكلّك وإلاّ ستموت مغبونًا، خلِّ شويه ليك حتى تقدر توقف على رجليك.

كان أوّل فعل نحت على صخرة ميتة أشعرني بقدراتي الباطنيّة.

أيّامها، غرست أمّي على قبر زليخة فرعًا من شجرة صنوبر كبر بسرعة واخضرّ حتّى صار بدوره شجرة عالية تظلّل القبر كلّما صارت الشمس قاسية وعموديّة.

هكذا قساوة الحياة كما كانت تكرّر عليّ المهبولة. في الحياة جزء ظاهر وآخر مطمور ونحن لا نفعل الكثير سوى الركض وراء جزئها الخفيّ علّنا نكشفه ذات يوم، وربّما قد نمضي العمر كلّه في الركض والحفر دون الوصول إلى ما نريد: البحث عن المعنى الضائع للحياة.

مثلما جاءت، ذهبت ليخا. بدون ضجيج كبير، تاركة فيَّ جرحًا عميقًا وندمًا لأنّي عندما كانت بالقرب منّي لم أعرف كيف أحبّها. لا أدري لماذا ندرك أشواقنا الحقيقيّة دائمًا متأخّرين. أدين لها بكلّ ما يحصل لي من أشياء رائعة وكلّ ما يصدر منّي من رعشات فنّيّة. كانت عندما تأخذ الطّين بين يديها لا تتركه إلاّ عندما تحوّله كإله خفيّ إلى حالة متقنة من الاستثناء والجمال.

– ياه... نسيت روحي؟ كم من الزمن مرّ على هذياناتي وهبالي؟ هل أنا هنا للنسيان أم لفتح الجرح واسعًا والتوغّل فيه عميقًا؟

نظرتُ إلى عينيّ حنين. كانتا متعبتين وكانت تجهد نفسها لكي تخبّئ دمعة قادمة من عمق بعيد.

خفّفتُ من إنارة الهالوجين ثم تمتمت:

– يبدو أنّي سمّمتُ عليك أمسيتك؟

– أنت لا تعلمين مقدار السعادة التي أشعر بها رغم هذه المرارة التي لا نستطيع حيالها فعل أيّ شيء سوى جرّها وراءنا مثل الأغلال التي لا تتركنا إلاّ عندما نندثر أو نترك منفانا. أنا على الأقلّ وجدتك في ليلة المنفى الأولى. هناك من في ليلته الأولى، لم يجد صدرًا سوى مواجهة الحيطان الباردة.

– هذا صحيح. ليالي المنفى الأولى صعبة وقاسية. عندما شعرت بأنّي سأدخل طاحونة المنفى وأنّ المسألة جدّيّة وليست حلمًا رومانسيًا، أغلقت على نفسي مدّة شهر بكامله وصمّمت أن لا أرى أحدًا وأن أموت بالتقسيط.

– تعرفين يا حنين، الخوف والعزلة والتكرار المملّ أفقدتني الرغبة في الحكي. إنّها المرّة الأولى، منذ مدّة، التي أنسى فيها شرطي القاسي. عندما كانت تنغلق عليَّ السبل في حجرتي الضيّقة، كنت أكلّم الجدران حتى أظلّ حيًّا وربّما حتّى لا أُجنّ.

– أفهم الآن لماذا صرت نحّاتًا متميّزًا. امرأة طيّبة مثل زليخة أو ليخا لا يمكنها إلاّ أن تنجب نحّاتًا من كفّيها وقلبها. لا تندم. نحن هكذا. كلّما ذهب الذين نعزّهم شعرنا كم مازلنا في شوق لهم. الأشواق تجاه الميت تخرج دفعة واحدة ولهذا يصعب تحمّلها.

– المدرسة الوطنيّة للفنون الجميلة التي كنت ثاني قرويّ يرتادها بعد أخي ميمون، لم تضف لي الشيء الكثير، فقد هذّبت ما كنت أملكه. اليوم كلّما ذهبت إلى القرية لجلب التربة التي أشتغل

عليها، تذكّرت بقوّة أصابع ليخا. فقد علّمتني بحاسّة الشمّ واللّمس كيف أعرف التربة الجيّدة من الضعيفة. ولهذا عندما نفقد حبيبًا، نمضي ما تبقّى من العمر في لملمة الكسورات بدون جدوى.

– هكذا الدنيا، للأسف هي لا تسألنا عن رأينا عندما تنوي ارتكاب الحماقات الكبرى التي لا تُداوى.

أشعلت سجارتين. وضعت الأولى في فمي والثانية في المنفضة قبل أن تضعها حنين بين شفتيها، بعدما رشفت قليلاً من ماء الزعفران.

– خدعة الحياة أنّ ردّ فعلها غير متوقّع دائمًا. طيّب، ونرجس، وسط كلّ هذا؟ أنت تقول إنّك أضربت عن مراسلتها بعد يأس، وهل نستطيع مقاطعة حبّ طفولي هكذا؟

– حتمًا لا. تعرفين عندما يتوزّع رجل بين حبّ ثلاث نساء فهو ضائع لا محالة. أختي علّمتني الصبر وحبّ التفاصيل الصغيرة. المهبولة علّمتني أن لا أسأل كثيرًا عندما يتعلّق الأمر بالسخاء. ونرجس عرفت منها أنّ للّغة سحر يمكن أن يودي بنا للهلاك أو إلى الجنّة التي نصنعها من الأبجديّات. حتّى وأنا اليوم أتذكّر المهبولة لا أعرف إذا كانت المرأة التي تعرّت على حافة البحر وتركت جسدها يغزل بملوحته أشواق الغربة وركبت تحت ضباب كثيف سيّارة المرسيديس السوداء، أم هي فتنة أم زليخة أو نرجس.

انتبهت مرّة أخرى إلى حنين. كانت صافية رغم التعب وانكسارات الظلال التي كانت تغطّي نصف وجهها.

– يبدو أن نرجس هي الحلقة الأضعف وسط هذه الحالة المرتبكة؟

– نرجس. ظللت مسحورًا بصوتها رغم خيبتي منها ولكنّي كنت أجد لها كلّ أعذار الدنيا. عندما يكون الحبّ من طرف واحد، القيم تنقلب ونفتّش عن كلّ الأعذار الممكنة.

– هل كنت تحبّها؟

– ياه. ربّما أدين لها بالكثير ممّا أنا فيه. الدنيا ليست هيّنة. أحيانًا تشبك الأقدار بشكل غريب. تعرفين أنّ برنامج نرجس آخر الليل توقّف يوم وفاة زليخة، الجمعة الأوّل من شهر مارس وكان نوار اللوز يملأ الأشجار.

لم أتوقّف مطلقًا عن الكتابة لها إلاّ متأخرًا. في الرسالة الخمسين شعرت بالإرهاق واللاجدوى. توقّفت نهائيًا وأضربت عن سماعها سبعين يومًا وفي اليوم الحادي والسبعين عدت إلى ممارساتي القديمة، الاستماع لها ونسج موضوعات الإنشاء وكتابة الرسائل التي صرت أحتفظ بها لنفسي. كنت أحسد ساعي البريد الذي يأخذ الرسائل للعاشقين. هذه المرّة صمّمت أن لا أتيح له ولا لعمّال الإذاعة الوطنيّة أن يسخروا من سذاجتي. حروفي كانت عزيزة عليّ.

– اليوم، عندما أستعيد شريط حياتي، أشعر بأنّي لم أتعلّم كثيرًا، فما زلت عندما أعشق، أرتمي بكلّي ولا أترك شويه لي حتّى أستطيع الوقوف على رجليّ، مثلما نصحتني زليخة.

– يبدو أنّ الحبّ هو المكان الوحيد الذي يجعل من أخطائنا المكرورة، أمرًا مستساغًا.

– عندما وصلت إلى الرسالة الألف، كتبت سطرين وتوقّفت نهائيًا. فقد ماتت زليخة في ذلك الربيع الهجين الذي لولا نوار اللوز لصار شتاء، وسكت صوت نرجس نهائيًا واستبدل بصوت

امرأة أخرى كانت بعيدة عنّي.

– ألف رسالة، أيّ حبّ هذا؟

قالتها حنين كمن يستيقظ من كهف. بريق عينيها ظلّ متّقدًا رغم ضوء الشمعة الذي بدأ يتضاءل.

– ألف رسالة لم أبعث منها إلاّ الخمسين الأولى، وكلّ رسالة مكوّنة من أربع صفحات، أي أربعة آلاف صفحة. تخيّلي درجة الهبل. اليوم أنا عاجز عن فعل ذلك. الهزّة الأولى استنزفت كلّ شيء فيّ وأحرقتني. كرهت الإذاعة الوطنيّة ولم أستطع كره نرجس. حتّى عندما تخرّجت من كلّيّة الفنون بعد سنوات عديدة، دخلت الإذاعة للمرّة الأولى بدعوة، للحديث عن علاقة التراث بالفنّ الحديث. ذهبت من أجل نرجس.

عندما سألتني المذيعة في نهاية الحصّة عمّا أشتهي سماعه، قلت بدون تردّد: جنريك حصّة آخر اللّيل التي كانت تقدّمها نرجس. بحثوا عنه وبعد لحظات عاد المكلّف بالأرشيف ليقول لنا إنّه تمّ محو كلّ شيء وأنّ الأشرطة تمّ التسجيل عليها. ومع ذلك بحثت عن نرجس بعينيّ المتعبتين الخائبتين في الأستوديو وفي الحيطان علّني أجد ملامحها ولكنّي لم أجد شيئًا. سألت فايزة التي دعتني وعمّال الإذاعة. لم يكن أحد يعرفها. هذه البلاد بدون ذاكرة وتأكل بدون تردّد أجمل ما تنشئه. وفي المرّة الثانية، زرت الإذاعة لا لشيء آخر سوى توديع البلاد، عندما استُضِفْتُ للحديث عن تكريمي من طرف مؤتمر أمستردام للفنون وعن سفري للولايات المتّحدة في إطار منحة من طرف الغيتي سنتر Getty center بلوس أنجلس. بعد الحوار، مررت على الإذاعة وبحثت في الوجوه ولكنّي لم أر امرأة واحدة تشبه وجهًا صنعته من عدم. حتّى

فايزة الطيّبة كانت قد اندثرت. عندما سألت أحد العاملين عنها قال بكلّ برودة: هي اللي حبّث. شكون قال لها روحي عند النقابة؟ اللي يحوس يفهم هذا واش يستناه. جلت في الممرّات الطويلة للإذاعة، لم أر إلاّ وجوهًا منكّسة مثل الرايات المهزومة وجيشًا من الناس يأكلون بعضهم بعضًا. عادت إليّ صورة قديمة لأمّي وهي تتحدّث عن هذه البلاد: بلاد الخير ولّات بين يوم وليلة بلاد الميزيريّة. ناس تاكل ناس واللي ما لحقوش اليوم الدور يستنّى نهاره غدوا. كمشة تعمل وتشقى والأغلبيّة يجدونها طايبة بلا تعب. هكذا أرادوا الدنيا فكان لهم ما أرادوه.

الأرض القاسية التي دخلناها فقراء يبدو أنّنا سنغادرها غرباء.

– وما مصير الألف رسالة اليوم؟

قالت حنين وهي تحاول أن تقاوم نومًا ارتسم على كلّ ملامحها المتعبة.

– الخمسون الأولى ضاعت في الإذاعة، والبقيّة هي جزء من حقائبي التي لا أحمل فيها إلاّ بعض الألبسة وما تبقّى من ذاكرتي. كم أشتهي اليوم أن أحمل معي صوتها وأنا أستعدّ للدخول إلى مغاور العزلة القاسية. حتّى محاولتي في الإذاعة باءت بالفشل. كلّ المادّة الأرشيفيّة تمّ محوها. هذه البلاد لا تملك حاضرًا وتصرّ على اغتيال الماضي العاشق الذي يمكن أن ينقذها. نحن من بلاد تسأم بسرعة من ذاكرتها الحيّة. في وطننا لا نتذكر إلاّ الأموات وعليك أن تنتهي تحت قبر أو أن تندثر ليتذكّرك صنّاع الذاكرة الوهميّة. أعتقد أنّي أتعبتك كثيرًا.

– أبدًا.

عندما قمت من مكاني ووقفت في مواجهة الميناء القديم، لم

أنظر إلى الساعة ولكنّي تخيّلت الوقت. فقد بدأت الحركة تدبّ من جديد في السفن وبدأ عمّال الميناء يملأون المكان.

– أعتقد أنّ الوقت قد حان لأتركك ترتاحين. لا داعي لإتعابك. إطلبي لي تاكسي.

– هل من الضروري أن تذهب. أنا كذلك أحتاج إلى الكثير من صحوك لتسمعني ليلة بكاملها. ماذا ستفعل غدًا؟

– على العاشرة سألتقي بكليمونس، لزيارة قبر والدتها. ربّما سدّت بعضًا من هذه الهوّة القاسية التي أجرجرها من ورائي كالداء المستعصي. في كليمونس شيء يصعب التخلّص منه بسهولة. أنا أبحث عن عزاءات أكثر من بحثي عن إجابات. سأستغلّ فرصة وجودي لزيارة بعض الأسواق الشعبيّة ربّما عثرت عن ملمس ما يقودني إلى فتنة. ستقولين أحتاج إلى صدفة مهبولة لأصل إليها. من يدري؟ الدنيا التي نعيشها كلّها هبال.

– عندما تنتهي مع كليمونس، مُرّ عليّ في البيت أو تلفن لي على الأقلّ ربّما رافقتك إلى السوق. سأحاول صباحًا أن أسأل نورما، صديقتي التي تشتغل في الأرشيف. هي التي حدّثك عنها فيلهام. يمكن أن تكون مفيدة. يجب أن نذهب نحو الأماكن التي توفّر لنا قدرًا من الوقت.

– يبدو أنّي سأسلّط عليك كلّ مهالكي وأحزاني وسآكل وقتك وأنت بصدد التحضير لأمسيتك الشعريّة. نريدك أن تكوني متألّقة.

– في القلب أشياء كثيرة. نحتاج إلى ليلة أطول من هذه لنسرد على بعضنا البعض ما تبقّى من الحكاية.

عزاؤنا الوحيد هو أنّنا نملك دائمًا قدرًا من التحايل يساعدنا على تذليل ضوابط الزمن. بالنسبة للتحضير للأمسية لا يوجد أيّ

إشكال. قطعنا أشواطًا مهمّة. منذ شهر، لم نفعل إلاّ ذلك. كليمونس شاطرة ولا تحتاج إلى توجيهات كبيرة. لا تنس أن تتلفن لي غدًا لنرى ما نستطيع فعله.

– يا الله. سأتعوّد مثلك على شقاء المنفى. تحمّلي إلى ذلك الحين كلّ حماقاتي وعدم اتّزاني وتضييعي لبوصلة الوقت.

– لا شيء يمكنه أن يجعل المنفى مستساغًا. حتّى الزمن على قساوته لا يصنع أُلفة ولكنّه يوفّر لنا إمكانات دائمة للتحمّل. لا نعرف أبدًا ماذا يخبّئ لنا القدر حتّى وهو يمارس معنا أسوأ أدواره ولكن يبدو أنّ في الدنيا شيئًا غلط في أصل الخلق ولا خيارات كبيرة لدينا.

تدحرجت حنين نحو التليفون. ثم عادت نحوي. عيناها رغم الإرهاق لم تفقدا ألقهما العميق. كانت الشمعة قد انطفأت ولم يبق إلاّ نور الهالوجين الخافت والمختلط بضوء الفجر المتسرّب من النافذة الواسعة المفتوحة على المرفأ القديم.

مسحَتْ على شعري. وضعَتْ رأسي بين كفّيها. التقتْ عيناها بعينيّ. كانت شفتاها ناشفتين قليلاً ولكن دافئتين.

– تصبح على خير. التاكسي يصل بعد خمس دقائق. أنت مهبول أكثر من حالتي. ما تنساش واش قلت لك.

– سأتلفن لك.

في الطريق إلى نزل الكنال هاوس، كانت أمستردام قد بدأت تفتح عينيها بتثاقل، بحرها واضح رغم غلالة الضباب وقنواتها المائيّة تتحرّك كعرائس الجنّة والزوارق الصغيرة والمتوسّطة والكبيرة تأخذ أمكنتها وتتهيّأ لاستقبال الزبائن.

نسيت كلّ شيء إلاّ قبلتها التي كان بها طعم ما يشبه الحنين.

الفصل الخامس

تَرَاتِيل الإنْجِيلِ المَفْتوح

-١-

بعد عشر محاولات متكرّرة من الإخفاق في استدراج النوم صمّمت أن أقوم من فراشي وأن لا أحاول مرّة أخرى إلاّ عندما يأتيني هو بنفسه.

كانت وراء أمستردام تنهض جنازات المدن الأخرى وضباب الأحزان التي لا تتبدّد إلاّ لتترك وراءها سيلاً من الرعشات الغامضة. كان وقع خطوات الناس الفجريّة يصلني هادئًا أو مهرولاً ليدخلني بهدوء في تفاصيل المدينة البعيدة التي لم أعد أعني لها الشيء الكثير. كان البحر الموحش الذي تركته ورائي يندفع بقوّة في الذاكرة. هو هكذا يبدأ دائمًا، هادئًا ومسالمًا قبل أن ينتهي عاصفًا. لا شيء أثمن من أن تحسّ أنّك أوّل من يضع قدميه في هذا المكان تاركًا وراءك على الرمل آثار خطواتك المرتبكة كخطوات طفل يتعلّم السير لأوّل مرّة. هذا كلّه يعطيك الإحساس بأنّك الإنسان الوحيد في الدنيا وبالتالي بإمكانك أن تعيد خلق

العالم كما تشتهي، وأن تعشق كما يحلو لك وتتعرّى للأشجار والنباتات الموحشة وتطلب من الشمس أن تغطّيك بدفء. ترى البحر كما تشتهي، تتسلّق كالإنسان الأوّل النخلة الوحيدة الضائعة على الحافّة منذ قرون، تقترب من تمرها العالي ثم تتذكّر الغواية وبعدها تضحك وتقول في خاطرك ليكن، من قال إنّك لا تشتهي سحر الغواية؟ البحر يوفّر الفرصة لانزلاقات الرّوح.

على هذه الحافّة التي كنت ألمس ماءها ورملها للمرّة الأخيرة، كان البحر يعطينا درسًا كبيرًا في سيرة الخلق ويعلّمنا في غفلة منّا كيف نصير متواضعين أمام جبروته وكيف نختبر كرامتنا أمام امتداده اللامتناهي وكيف نصير متسامحين مثل مائه وملحه. لم أكن قادرًا على تقليده. هو كذلك عندما يجنّ، يندفع بشكل أعمى نحو الكلّ بدون تفرقة. مع ذلك، المدن التي لا بحر فيها مدن يتنابها الموت بسرعة. هل سمعتم بمدينة نشأت على البحر ثم ماتت؟ سكّان الرّمل مثل سكّان الماء الأزرق، كرماء ولكن بتسامح أقلّ. ولهذا كلّما فكّرت في مدينتي الكبيرة، جاءتني باندفاع كبير، مدينة الأطياف، التي بنيتها مرارًا مع عزيز ثمّ هدمتها ثمّ أعدت بناءها. أتخيّلها على الحافّة الأخرى من البحر. أصرخ أنا وعزيز، سكرانين بنشوة الاكتشافات، الجزائر ليس ذاك مكانها؟ مكانها في الجهة المعاكسة تمامًا من الجبل. فهي بدل أن تتعانق مع البحر أصبحت اليوم تعطيه ظهرها كالمرأة المقهورة، وتتحمّل ضرباته المتتالية. يقول عزيز بحاسّة العاشق: في هندسة هذه المدينة شيء غلط.

ثمّ فجأة لا شيء. انسحب البحر من عينيّ وانسحبت شهامته. واحترقت هذه المدينة الإنكشاريّة. مدينة البتر التي لا ذاكرة لها.

عندما تركتها للمرّة الأخيرة، كان الذين غادروها يعودون ليحتلّوا صوامعها وأبوابها الرئيسيّة. أتذكّر أنّي يوم حملت حقائبي، لم يحاول أحد أن يثنيني عن عزمي. ولهذا لم ألتفت ورائي. كلّ الذين ملأوا قلبي، سقطوا في أيام الموت الأولى وما تبقّى أكلتهم المعابر والحواجز المزيّفة منذ أن عاد القتلة إلى شوارعهم التي احتلّوها عندما كانت المدينة لهم ولا تشهّد إلاّ بهم. عادوا وكأنّ شيئًا لم يكن، إلى ألبستهم الفضفاضة والكحل والألقاب وتمطيط الأنساب إلى الرسول وذرّيته. أحيانًا أتساءل إذا لم أكن أنا كذلك أحمل قدرًا من الحقد ضدّ الآخرين يجعلني عاجزًا أن أرى النّاس بالمنظار الذي كنت أراهم به قبل عشر سنوات. كشفتْ لي الحرب الثانية أنّي أملك قدرًا لا يُستهان به من الرّغبة في القتل. كان يمكن أن أغفر لقاتلي جريمة قتلي أمّا عزيز وعمّي غلام الله لم أجد حيالهما إلاّ ما يوقظ حزني وكراهيتي الدفينين. أحتاج ربّما إلى قدر من العزلة لأربّي حاسّة الغفران من جديد. طلبت سلاحًا لم أطلبه حتى في الأيّام الصعبة ثمّ تساءلت يوم جاءتني الموافقة لماذا نطلب السّلاح عادة؟ السّلاح للقتل؟ طيّب، أقتل من؟ الذي قتل عزيز وعمّي غلام الله أم أستمع إلى الحواسّ التي تعمل بالصدفة؟ أين هم؟ لا أعرف ولكنّي أعرف الذين يشبهون القتلة ويسيرون في حوافرهم. من يضمن لي أنّي لن أقتل إنسانًا بريئًا؟ ثمّ من يحرس هذا السلاح؟ من يضمن لي أنّه لن يُسرق ويوضع بين أيدي القتلة من جديد. كلّ هذه الأسئلة تزاحمت في رأسي وأنا أغادر بيتي للمرّة الأخيرة. لا . لا أريد شيئًا. لقد عاد القتلة إلى ذويهم وعاد أهل القتلى إلى المقابر التي سرقت منهم أجمل الوجوه وأكثرها دفئًا. واحد يشطح ويردح وآخر يبكي ويكمّد. عندما تسأل يقال

لك هذه هي الدنيا. هذا وحده كاف لأن يجعلني خارج أسوار هذه المدينة أحاجج نفسي ببلادة. هل هو الخوف أم الأسئلة المحيّرة هي التي دفعتني إلى المغادرة بالضبط في يوم موعدي لاستلام سلاح الدفاع الذاتيّ نحو أرض أخرى ربما كانت أرحم من التربة التي سرقت معظم أصدقائي؟ أرى نفسي أحيانًا ديناصورًا شاءت الصدفة أن لا ينقرض. وجودي حيًّا عن طريق الخطأ ووجودهم في تربة المقابر، ينغّص عليّ الحياة. لقد صار البؤس الذي نعيشه ترفًا. أريد أن أنسى أنّ الحياة ترف.

كان من الممكن أن يأخذ عزيز مزيدًا من الحذر كما تعوّد أن يفعل سابقًا ولكنّه ظنّ مثلما يحدث في جميع البلدان أنّ الحرب انتهت وأنّ المتناحرين قد وضعوا أسلحتهم في المتاحف وبدأوا يكتبون تفاصيل التاريخ.

كان يمكن لعمّي غلام الله أن يمتعنا بحكمته التي كان يريد أن يرجع من خلالها الناس إلى الصواب. هو نفس الصواب الذي قتله. عندما هدّدوه ضحك طويلاً، قال وهو يغمز الحاضرين المأخوذين بكلامه: لقد وصلتم متأخّرين يا أصحاب الجاه والجلالة. الحرب انتهت وتصافح أهل المقتول مع القاتل وطووا صفحات الموت وتوجّهوا نحو الحياة. كان يمكن أن لا يموت عزيز وعمّي غلام الله، لو لم يصدّقا بنيّة طفوليّة أنّ البلاد صارت بخير وأنّ السكاكين دخلت أغمادها إلى الأبد.

آه يا عمّي غلام الله، أيّها الصّحابيّ الغالي، لو تدري؟ ولكنّك طيّب وسلاحك الوحيد لغتك. واللغة يا عمّي غلام الله لا ترجع لنا الذين ملأوا قلوبنا وعيوننا بالأشواق وعلّمونا كيف نحبّ الآخرين. ما عليهش يا عمّي غلام الله أنت مقطوع من حجرة، لا

تملك حتّى حقّ الانتماء إلى شجرة. شجرتك اندثرت منذ أن قتلوا نواره وأبادوا داخلك. إنّي أبكيك يا عمّي غلام الله، ولا أدري لماذا أراك في عزيز وأرى عزيز فيك. أنت وحدك يا عمّي غلام الله تدري أنّ الذين مرّوا من هنا هذا الصباح رافعين يافطات الصلح كانوا قتلة لأنّهم أوهموك وأوهموا عزيزًا أنّ الحرب انسحبت وأنّك كنت من المتأخّرين.

ربّما كان هذا الإحساس هو الذي يجعل من نومي حربًا أخوضها كلّ مساء لأتوصّل لإغماض عينيّ قليلاً. بعثرت كلّ الأوراق على الطاولة. رسائل، ملفّ الألف رسالة التي كتبتها قبل عشرين سنة لامرأة ربّما أكون أنا من صنعها كما اشتهاها. امرأة هي سيل من الأحاسيس المبهمة وخيط من الكلمات التي تضيء الشموس وتنزل الليالي حين تشاء. امرأة لا يجمعني بها إلاّ همس ليليّ لا ينتهي. العشرات من الوريقات التي سجّلت عليها كلام عمّي غلام الله وقرآنه الاحتجاجيّ.

عمّي غلام الله كان معلّمًا في باب الوادي. عمل مدرّسًا للقرآن في مسجد السنّة ثم كوّن نفسه والتحق بإحدى المدارس واشتغل أكثر من أربعين سنة في التعليم الأصليّ ثمّ الثانويّ العامّ. وعندما قتلت نواره، ابنته الوحيدة عند مدخل باب الوادي مع الموجات الأولى لأحداث أكتوبر ٨٨، ليس بعيدًا عن المديريّة العامّة للأمن الوطنيّ الذي اختلطت عليه السبل. ماتت لأنّ حظًّا بئيسًا شاء أن تمرّ من هناك وهي راجعة من الجامعة في وقت كان يجب عليها أن تسلك طريقًا آخر. الموت أحيانًا ينادي صاحبه. ظل عمّي غلام الله يقرأ القرآن ويطلب الرحمة لها في الطرقات والأماكن العامّة والأسواق والمقاهي قبل أن يجد نفسه على الرصيف متّهمًا

بالجنون والخطورة. قيل له إطلب حقّك من الدولة مثلما فعل بقيّة الناس. قال: طلبي الوحيد أن أعرف وجه قاتل ابنتي وأطالبه أن يعيد لي نواره.سيق بعدها مباشرة إلى بهو المجانين بمستشفى مايو Maillot، مجموعة من البنايات الصمّاء والحيطان الهرمة، يسيِّجها حزام من الأسلاك والأشجار الميّتة وتجّار السجائر والقهوة. الحجرات تشبه المقابر الوطنيّة في كلّ تفاصيل الإهمال. وكلما رفعتَ رأسك رأيتَ إنسانًا إمّا يبكي أو يأكل نفسه. الصحافة هذه الأيّام فتحت ملفًا جديدًا عن العمليّات الفاشلة وحالات انتحار المرضى المتكرّرة.

الصحفيّ الذي كتب أنّ كلّ ما يحدث في المستشفى هو قتل عمديّ وأنّ وراء ذلك كلّه شبكة لتهريب الأعضاء، أُخِذ وهو في الطريق إلى عمله ولا أحد يعرف مصيره. البعض يقول إنّه غادر البلاد تحت التهديدات المتكرّرة وآخرون، على دراية أكبر بأسرار المدينة يقولون إنّه بيد ذات العصابة التي تتاجر بالأعضاء. والأكثر غرابة أنّ كلّ الضحايا المنتحرين هم أناس جاؤوا من داخل الوطن ومن عائلات أمّيّة فقيرة، تقبل الموت كقدر لا جدال فيه وتدفن بقايا جثث وهي لا تعرف. أمّا المصحّة العقليّة فهي عبارة عن بناية ضخمة منفصلة عن بقيّة البنايات العامّة، معروفة بشبابيكها الحديديّة المغلقة باستمرار. من حين لآخر يطلّ من ورائها شخص يصرخ طويلاً قبل أن يُكمّم ويُصرع بحقنة. الوحيد الذي ظلّ صامتًا في تلك البناية هو عمّي غلام الله. عندما تدخله رعشة نواره، يفتح المصحف ويقرأ القرآن بصوت مهموس. ثم يضع الكتاب في الزاوية ويبدأ في التمتمات. الوحيد الذي يُسمح له بالخروج من البناية الموصدة بإحكام ويعود بالضبط في الوقت الذي يحدّده له

الطبيب. في مرّة من المرّات سأله الطبيب:

– عمّي غلام الله، واش جابك لهذا المكان.

– مانيش عارف. إسأل اللي جابوني.

– من؟

– لا أعرفهم. وليس مهمًا أن أعرفهم.

الذين عرفوا عمّي غلام الله قبل هذا التاريخ يقولون إنّه مدّ عمره للوطن، وعندما كان الناس يتقاسمون التركة الاستعماريّة، أخذ ابنته نواره من يدها وذهب إلى قبر مايو، نقّاه من الأعشاب الضارّة ثم قال لها هذا لا يشبههم. أعطانا كلّ شيء ولم نعطه إلاّ النسيان. وبكى اليوم بكامله عن شيء هو نفسه لم يكن قادرًا على إدراكه. بكت نواره معه وهي لا تعرف لماذا كانت تبكي. عندما أُدخل إلى مستشفى مايو لأوّل مرّة، قاوم وقال أُصِبت في القلب ولكن الرأس ما يزال سليمًا. وعندما لم يسمع لصوته أحد، قال ليكن. وظلّ يضحك ويحادث مايو، كلّما زاد ضيمه واختلى إلى نفسه: شفت يا مايو خويا واش داروا فينا؟ ها أنا وأنت هنا في هذا المكان، لحفظ المدينة من خطرينا. أنا رجل يخاف الله وهؤلاء القوم الغامضين، حفظ القرآن عن ظهر قلب حتى صار جزءًا من دمه وتنفّسه وصنع إلهه على شاكلته، عاشقًا ومحبًّا للنّاس وأنت شيوعيّ فرنسيّ وضع كلّ ذكائه في خدمة بلد لم يكن له. أيّ قدر من الشجاعة ونكران الذات كنت تملك وأنت تسلّم الأسلحة إلى الجبهة وأنت تعرف سلفًا أنّها ستوجّه باتّجاه صدور الذين كنتَ منهم؟ لا بدّ أنّك كنتَ خارقًا وحازمًا في قرارتك. كنتُ أريد أن أسألك وأنا أقرأ في عينيك الطفوليّتين أشياء مبهمة في الغابات الممتدّة من تنس . عين الدفلى ومرتفعات الشلف . ونحن نفرّغ

الأسلحة، كنتَ أنتَ ورفيقك منزويين تتأمّلان الغابة وتتساءلان عن هذه الكمشة من الناس التي تعطي الانطباع أنّها مكوّنة من الآلاف وربّما الملايين وهي عدديًا لا تساوي الشيء الكثير. كنّا خليطًا من الفرنسيين والجزائريين الغاضبين على السلطات الفرنسيّة التي اهتمّت بالأوربيين من ضحايا زلزال الأصنام ١٩٥٤ وأهملت العرب. وتكوّنLe maquille rouge في نفالغابات. وعندما سألتني، أين ذهب الآخرون؟ لم أكن قادرًا أن أقول لك: لا يوجد آخرون. أنا من أعطاك كأس القهوة الأولى التي اشتهيتها مرّة، لتروي خوفك. أحسست في لحظة من اللحظات، أنّك على الرّغم من قوّتك، كنتَ هشًّا. النّاس لا يعرفون هذا. وعندما أردتَ أن تشعل أوّل سجارة، نظرت إليك بعينين مرتبكتين، عرفتَ من تلقاء نفسك البقيّة. فأدخلتَ السجارة في العلبة أغلقتها. أنا وأنت نملك ما لا يملكون. بعضهم شكّ فيك ولكنّي من عينيك كنتُ على يقين أنّك رجل استثنائيّ. كم كنت تريد أن تحكي ارتباكاتك لمن يفهمك، لكنّ الزمن كان مغلقًا والحرب كانت عمياء ولأنّك فرنسيّ وشيوعيّ فقد ظللت في دائرة الشبهة. وعندما نزلتَ إلى مدينة الأصنام، طلبت من مُزارع أن يشتري لك بعض السجائر وقليلاً من النبيذ، ففوجئتْ صاحبة الدكّان من مزارع مسلم يشتري بضائع مخصّصة للأوروبيين فأخبرت الأمن الذي استطاع أن يطوّق الغابة ويدمّر كلّ الفيلق الشيوعيّ وهو ما اضطرّ مجموعة منه أن تتفاوض مع الجبهة التي قامت بتوزيعهم على نواح مختلفة وداخل الشبهة حتى ماتوا واحدًا واحدًا في العزلة والخوف والنسيان. وكنتَ يا مايو من الأوائل الذين دفعوا ثمن حياتهم. حظّك اليوم مثلي، مستشفى للأمراض العقليّة، نتقاسم محنة هبل الآخرين. قل

لي مايو، أليس هذا وطن المهابيل؟ قتلوا نواره وجاؤوا بي إلى هنا؟ ألم يجدوا لك أنت على الأقلّ شيئًا أفضل من هذا المكان؟ لو سألوني، وهم لا يسألون مهبولاً مثلي، لوضعتُ لك مزارًا، أنبت فيه نخلة أستلّها من الواحات، أحفر في العمق بئرًا وأطلي الحيطان بالجير الأبيض وأدعو كلّ الناس ليأتوك وليأكلوا من وعدتك. فأنت قدّيس ووليّ صالح يا صاحبي. أنا حملت السلاح لأنّ أرضي سُرقت. لم تكن لديّ خيارات كبرى. وأنت؟ ألم يكن بالإمكان الانتهاء من واجبك العسكريّ والعودة بعدها إلى شوارع مدينتك، تعشق وتنام مع الجميلات وتفتخر بشجاعتك الكبيرة؟ ولكنّك اخترت القيام بأصعب شيء لا تشفيه إلاّ القناعة الكبيرة بوطن عادل.

وعندما غادر عمّي غلام الله المستشفى مجبرًا لأنّه تعوّد على الوجوه التي تكاثرت في السنوات الأخيرة، ولضيق المكان الذي لم يعد قادرًا على استيعاب كلّ الحالات، وجد المدينة تمارس حرائقها وجنونها وخديعاتها المتتالية. كان هو قد تغيّر كثيرًا وبدأ يقول كلامًا حزينًا لم يكن يفهمه إلاّ القليل، لكنّ كلّ من كان يسمعه، يحسّ بألفة نحو حديثه، حتى عندما يستعصي الفهم وتنغلق مسالك اللغة على نفسها. بعد ضياعه الطويل داخل شرايين المدينة، حطّ متاعبه وأثقاله بشارع عبان رمضان. قال وهو ينشر حوائجه الصغيرة على الأرضيّة ويبيع الجرائد اليوميّة: هنا، مثل المستشفى سأقيم مع رجل آخر أعرفه ويعرفني قليلاً، عبان رمضان. ظُلم مثلما ظلم مايو الله يرحمه. لم تُتَح له فرصة الشهادة ولكنّهم شهّدوه بالقوّة. قُتِلَ من طرف عصابة الشكارة والحبل التي كانت تصفّي كلّ من يخالفها. تاريخ الموت لم ينزل على هذا البلد

من السماء كمطر الصيف. له ناسه ورجاله الذين يجيفون بلا أدنى
تردّد ويذبحون مثل أيّ جزّار من جزّاري الحيّ، القريب من بيتي.
أن تكون من القطيع أو تندثر. التفكير خطيئة. قتلوه مثل أيّة حشرة،
وبعد أيّام مسحوا صراخاته واختناقاته الأخيرة في أقمصة
الاستعمار. كلامه الحادّ ضدّ الذين أكلوا البلاد والعباد سبّب له
كلّ العداءات. كنت أعرف أنّه ما راحش يطوّل. الناس الذين
يشبهونه أعمارهم قصيرة. الولاية الخامسة كانت تتنعّم بمليار فرنك
بينما كانت الولاية الثالثة والرابعة على حافّة المجاعة والفقر. ولاية
واحدة أصبحت بلادًا. صرخ بأعلى صوته حتى سمعه أصحاب
الشكارة والحبل: الجزائر لن تسقط في الاستبداد الشرقيّ. سأعمل
بهذا الاتجاه. الثمن سيكون غاليًا. سنُهلك لا محالة. ثم ولّى وجهه
صوب الذين ماتوا وهم لا يعرفون أنّه يمكن أن يأتي يوم ويذبحون
فيه على أيدي الذين أكلوا الرماد وشربوا الحمى بصحبتهم. الله
يرحمك يا عبان رمضان لقد كنتَ تعرف كلّ شيء. اللي يفهم
بزّاف في بلادنا، يُقتَل. أول كلمة يقولونها لك عندما تطلق لسانك
قليلاً للريح: هاه؟ أنت بديت تحلّ فمك؟ العاقل هو الذي يزمّ فمه
ويمضي في ظلال الحيطان، يرى الناس ولا يراه أحد.

وها أنت اليوم تُختزل في تسمية شارع بعد أن قتلوك؟

عندما نصحوك بالذهاب إلى سويسرا للراحة قليلاً، صرختَ
في وجوههم: أيوه... مليح. حابّين تتهنّاوا مني. كلّكم اتّفقتم على
رأسي، السياسيّون والعسكر؟ والله ما تكون. نسوا الموضوع
وأنسوك خوفك. بعدها كلّفوك بمهمّة في المغرب لم تكن مهيأً لها
ولكنّك لم ترفض. حضّرتَ حقيبتك الصغيرة وخرجتَ وأنت
تعرف أنّك ربّما لن تعود إلى هذه الأمكنة مرّة أخرى. في ٢٢

ديسمبر ١٩٥٧ نزلت الطائرة التي كانت تحملك برفقة كريم
بلقاسم ومحمود الشريف. كان في استقبالكم بوصوف. ضحكته
كانت باردة وصفراء كضحكة الميت. قلت في خاطرك: هو لا
يحبّني وأنا لا أملك تجاهه إلاّ الحذر. نظرتَ مرّة أخرى إلى وجهه
وهو منغمس في الحديث مع كريم بلقاسم، بدا لك باردًا وأملس
كالحديد. تمتمتَ: لا يمكن أن تكون الثورة قد غيّرت الناس إلى
هذا الحدّ وغيّرتْ كلّ ملامحهم؟ ركبتم بعدها سيّارة قادتكم نحو
مزرعة بتطوان المغربيّة. لم تُتح لك حتّى فرصة اكتشاف المكان.
بمجرّد دخولكم، استلمتك جماعة أشبكت أياديها على عنقك بعد
أن غطّت رأسك بشكارة وشدّت عليك بقوّة. تخبّطتَ طويلاً قبل
أن تستسلم للموت وأنت تحاول أن تصرخ: لا يمكن أن تكون
الثورة قد غيّرت الناس إلى هذا الحدّ وحوّلتهم إلى وحوش؟
صديقاك استسلما للخوف والصّمت. ماذا قلتَ يا ترى وأنت
تحاول أن تغمضَ عينيك على دمويّة بوصوف الذي اشتهى أن
يفعل ذلك بيديه؟ لا أدري. المؤكد أنّك لم تبكِ على هلاكك بقدر
بكائك على الأيادي التي كانت تشبك على عنقك بكلّ قوّة وعنف.
ستدفن هي بدورها في الزاوية المظلّلة داخل الحديقة حتى يُحفظ
سرّ الثورة.

هل تصدّق ماذا حدث بعد؟ لقد مشى في جنازتك، رفاقك
الذين قتلوك؟ أخرجوا المناديل وبكوك، بل منهم من ضرب رأسه
على الحائط لفقدانك حتى سال الدم. وبعد خمسة أشهر، بالضبط
في ٢٩ ماي ١٩٥٨ نشروا في جريدة المجاهد، على صفحتها
الأولى وفي إطار مجلّل بالسواد: عبان رمضان يستشهد في ميدان
الشرف. في النصف الأوّل من شهر أفريل وقع اشتباك عنيف بين

قوّاتنا وقوّات العدوّ. وخلال المعركة التي دامت ساعات طويلة جرح المجاهد عبان رمضان جروحًا بليغة أودت بحياته. إنّنا اليوم نبكي أخًا في النضال. ذكراه ستكون منارة في طريق الثورة. وحقّ ربّي ما فهمت والو في هاذ القوم؟ والله ما يحشموش. يحفرون قبرك ثم يسبقون أهلك إلى البكاء. كيف تجرّأوا؟ أوف، أنا أخرّف. واش يمنعهم؟ هم أصحاب الحلّ والربط. هم أصحاب الاستقلال. وهم من يتحمّل تبعات الخراب اللاحقة. سبحانك ربّي؟ ها هم هنا، في كلّ مكان، ينشدون قسمًا، ويتقاسمون بقايا التركات ودم البلاد وكأنّ شيئًا لم يكن. لو كنت في مكانهم ندير حبلْ ونشنق روحي. ولكن...

ها أنت اليوم يا صاحبي مجرّد شارع أخرس، تحيط به الزبالة من كلّ جهة. لو فقط كان الشارع الذي يمشي عليه يوميًا أحد أو بعض قاتليك، يتكلّم، يصرخ بأعلى صوته ألمًا: عفوني. خلّوني في همّي. ما تذكرونيش. أنسوني من تاريخكم يرحم والديكم. ولكن من سوء الحظّ أو حسنه أنَّ الشوارع التي تحمل أسماء الشهداء، لا تتكلّم فتستر الأسرار، وإلاّ لصرخَتْ ألمًا وحسرة.

وعندما طُرد عمي غلام الله من شارع عبان رمضان، لأنّ الأمن رأى أنّه كان يعطّل حركة المرور، انتهى به المقام عند مدخل سوق كلوزيل. في البداية عندما نزل في هذا الشارع كبائع للجرائد في مكان مارينغو، كره اسمه بسبب الأطفال الذين غيّروا معناه وظلوا يصرخون وراءه: عمّي طحّان ربّي. عمّي طحّان ربّي. عمّي طحّان ربّي. قبل أن يقبلوا به ويستمتعوا بكلامه. هذا كلّه لم يمنعه أبدًا من السخرية المرّة.

– شوف يا سيدي هاذ الوالدين؟ من أين جاءتهم هذه الفكرة

المهبولة؟ اختاروني أن أكون غلامًا؟ لمن؟ لله؟ زغمَ، زغمَ كرّموني. يا خي فهامة يا خي؟

وذات صباح عندما بدأ الناس ينتبهون له كان قد وجد مسلكه. يبيع الجرائد ويقصُّ للأطفال والكبار أحيانًا، رحلة الموت. الذين لا يعرفونه ويستمعون لصوته الجميل يظنّونه يقرأ قرآنًا والمتفحّصون يعرفون أنّ قلبه كان ممتلئًا بالحرائق ولم يكن يقول إلاّ الخيبة ملوّنة بالكلمات وظلال الدين. وهو نفسه يقول: أنا لا أنطق عن الهوى. إنّما هو كلام السرائر، من أراد أن يسمع نحيبي فليفعل ومن لم يشأ، لكلّ امرءٍ ما نوى. أنا لا أنطق عن الهوى. كنت كلّما مررت على سوق كلوزيل الممتلئ بالبشر، أقف أمامه وأستمع إلى صوته وأفتح خفية المسجّلة في جيبي وأنسى قليلاً الخطر المحدق بي. كلّما رآني يبتسم لي منذ أن وضعت بين يديه مجسّمًا صغيرًا لوجهه. كان عمّي غلام الله يأسرني بقصّته وصبره ولغته وتاريخه المبهم. فيقول:

– واش راه صحيبي الفنّان؟

– والله ما تشكرش يا عمّي غلام الله.

– شوف يا وليدي ياسين. نهار من النهارات، عندما أعثر على صورة بنيتي نواره، سأطلب منك أن تصنع لها وجهًا مثل الذي صنعت لي ونخلّصك غالي.

– يا عمّي غلام الله. نديرها بقلبي. هات لي الصورة والبقيّة خلّها عليّ. الدنيا ما زال باقي فيها ناس الخير يا عمّي غلام الله.

– إيه... هذه البلاد يا وليدي الحياة نفسها صارت فيها حاجة زيادة، فما بالك بالسعادة. إنس الهمّ ينساك.

إسمع... إسمع... أنا نحبّ نخرّج واش في قلبي قدّام الناس

اللّي نحبّهم.

ثمّ ينغمس في شدوه وتراتيله:

وإذ يهمس النّاسُ في آذانِ بعضهم البعض أنْ رأوا ما يُثقِل الروح ويُشيب الرّأس ويُنهض الميت من قبره، يتباكى الذين يقهرهم الخوفُ ولا سبيل لهم في الدنيا غير الصَّيْحِ. أولئك لا خير من ورائهم ولا من أياديهم التي اقترفتْ ما لا يريده الأكْرمُون. ربّكم عالم بما تُخْفون. وويْل للذين يُخفون. سيأتي عليكم يوم فيه تتآكلون. الابن يقتل أمّه والبنتُ تهلك والدها وهل تعلمون ما قَتْلُ الوالد؟ نارٌ في الوارد وعذاب أليم. والأحياء فيكم يدْخلُون الأرضَ كالجرذانِ وما تبقّى يهيم على وجه الصُّدفة. سيأتي عليكم وقتٌ تضيع فيه السُّبل ويضيعُ الطّريق، لا يعرف الشقيقُ الشقيقَ وينفرُ الصّديقُ الصّديقَ. وإذ تتساءلون؟ أأنتم من هذه الأرض أم أنتم من سماء زمن الأوَّلين. وما زمن الأوّلين. تقرأون فلا تَفْهمون وتَنْظرون فلا تُبْصِرون وتفكِّرون فلا تعلمون وتمْشُون فلا حراكَ بكم ولا هم يحزنون. ربّكم عالم بما تَسْتُرون. يضع لكم المسالك علّكم تفهمون. تأتيكم سبعٌ عجاف وسبعٌ لرتْق الجُروح ويرسل لكم ربّكم طيرَ الرحمة وأنتمْ غافلون. أولئك هم النّاجون. الذين إذا سَاروا لا يلتَفِتون لا يمنة ولا شمالاً. أمَامهم قِصَصُ الأوَّلين الذين عرفوا كيف يَمْحو الدَّمع سحرَ العُيون. تَساءَلون؟ ألَمْ تمّحِ سَادوم؟

ويوم وقع الحادث المروّع الذي قتل فيه شابّ أبويه، ظلّ عمّي غلام الله يصرخ لوحده: وعلاش؟ علاش يا ربّي سيدي هذا الجنون؟ تقول الصحف اليوميّة إنّ الشابّ كان تحت سطوة أمير مجنون، أعمى وزحّاف وأطرش. أمره ليختبره فلم يستطع عصيانه.

عندما دخل البيت كان الظلام قد سكن عينيه. طلب من والده الذي كان يصلي أن يُشَهِّد قبل أن يُقْتَلَ. لكنّ الوالد لم يوقف صلاته. وعندما انحنى برأسه على الأرض في الركعة الأخيرة بقي هناك منكفئًا على فمه والدم يملأ السجّادة البيضاء التي عليها بيت المقدس وصوامع الحرمين وهو لا يعرف بالضبط لماذا قُتِل وهو الذي نزع لحم جلده وجَوَّعَ بقيّة العائلة مقابل أن يعلّم ابنه ويصبح إطارًا في شركة السونلغاز. عندما سمعت الأمّ العيار الناريّ، قبل أن تسأل عن السّبب كانت الرصاصة قد اخترقت دماغها. ماتت وفمها مفتوح من الدهشة.

في ذلك الصباح لم يبرح عمّي غلام الله بعينيه، الجرائد الصباحيّة التي كان يبيع بعضها ويتضوّر ألمًا ويبحث في عيون المارّة عن نشيده الحزين. كان يقف بالضبط في المكان الذي كان يقف فيه سالفه، مارينغو، الذي قُتِل لأنّه لم يوقف بيع الجرائد.

– هذا الزمن لا يستحقّ أن يكون على الأرض ولا ناسه. فالنّاس يشبهون زمانهم وخيامهم وبيوتهم وحيواناتهم وعويلهم. البلاد مشات وتاهت في وادي حامل، وتشدّ في عود راشي. الناس شي يبكي شي يهوّل وأنا نقول وينكم يا الغاشي. إنّي أرى الغيمة تأكل الغيمة والحيَّة تأكل الحيَّة والنعجة تأكل النعجة. إنّي أراه وأرى من يراه. عندما فاجأ النار تشتعل في البيت، قال يا أبتي أنا روحك التي لا تموت، فاخرج وسأكون لك من الضامنين. وإذ رآه، قال له سأكون لك من القاتلين. أوَ لم تعدني؟ قال بلى يا أبتي ولكنّني لست أؤمن بما تضمرون. وأنا مأمور ممّن جاء بالقول المتين، أمير يخاف الله ويحفظ السرّ المكين. قال الأب والعين في العين، يا ابني أنت على ضلال مبين. إرجع إلى صوابك وصواب المتّقين.

قال يا أبتي أنتَ كفرتَ بما رأيتُ ورآه أهل الذّكر الحكيم. مآلك جهنّم وبئس المصير. قال الأب يا دمي ويا روحي، بيننا اثنان. حقيقة أو بهتان. لنحتكم لمن أجلُّ وعلم وعرف أسرار الدنيا وما يحرّك الأكوان. قال الابن لا اثنان إلاّيْ. ثم أخرج سعيره من غمده وصفّق باليدين، فجاءه القتلة من كلّ حدب وصوب يرشقون الأنصال في الصدر الهزيل. وإذ فاض الدم خرجت طيور الرحمة وعمَّ الحقد أرض العالمين. بكت الملائكة في السماء وسبَّحت: ها قد وصلنا الزمن الذى قد روى عنه الأوّلون. تُباد البلاد ويقتل الجور والفجور العباد. لقد مهّدوا طريق الذلّ وهم لا يعلمُون. يسرقون هواءَ الأحياءِ وماء الروح وقوتَ المتعبين، يقولون وهم أكبر الكاذبين: وإذ نأتيكم بالخبر العظيم لنعلِّمكم أنّنا كما شئتم، ذاهبون ونترك وراءنا ذرّيّة نحن لها من الخالقين. سيَحْرقون الأخضرَ واليابس ويُعِدُّون نارًا للمتّقين. جئناكم بالخير وأنتم غافلون. فذوقوا ما اقترفت أياديكم، إذْ لم تكونوا، فجعلنا منكم قومًا وكنتمْ حُطامًا يبابًا وحطبًا للحروب. ويوم امتلأت عيونكم بالخير ونور العلم فقلتم وأنتم أسوأ القائلين: كيف نقبل بين أيدينا من يعيث فسادًا ويقيم على رؤوسنا كالطير الشُّؤوم؟ وما الطيرُ الشُّؤوم، طيور لا رأس لها، صمٌّ، بكم، عُمي، يبيعون ويشترون. فالنفس عندما تخسر تَروم وهم لا يرومُون. هذا ما اقترفت أياديكم من شططٍ عظيم وإذ كنتم خيرَ قومٍ عند ربِّ العالمين، صِرتُمْ أسفل سافلين.

ظلَّ عمّي غلام الله يبيع الجرائد اليوميّة وينشد أحزانه وأشواقه المرتبكة عند مدخل سوق كلوزيل ولم يتجرّأ أحد على لمسه بضرر. وعندما عاد القتلة، وغادروا مخابئهم الجبليّة، واحتلّوا الشوارع الخلفيّة التي ضيّعوها منذ سبع سنوات. قالوا له إسكتْ يا وجه النّار. أوقفْ بيع الجرائد. ولكنّه في الصباح الموالي عاد إلى شدوه. ثم قالوا له إسكتْ. في اليوم الثالث ضربوه وأحرقوا جرائده وقالوا له هذا تعزير فقط. أنت لم تر شيئًا. ضحك منهم طويلاً ثمّ أطلق العنان لشدوه: وإذ يأتونكم جماعات جماعات، يسألونكم عمّا أنتم فاعلون؟ ردّوا عليهم بكلام اليقين. أَوَ لا تعرفون؟ بئس ما تكنّون. تُخفون أكثر ممّا تُظهرون. أين أنتم غافلون؟ الساحات كنّست آلامها وإذ يقول الإنسان ما لها، رُدَّ عليه أنّ الحرب لملمت أوزارها وعاد الناس إلى الطريق المستقيم، طريق الذين اختاروا بيت الوئام على بيت الظلام. أولا تعلمون؟ عودوا إلى الصراط المستقيم. وإذ يضحكون منكم، قولوا لهم سنكون نحن عليكم، إن شاء الله، من الضاحكين.

ثمّ منعوه ومنعوا عنه المكان. في اليوم الخامس وجد زاوية صغيرة بقلب السوق يظلّل تحتها كلّ من أتعبه السّير، فحطّ فيها الرّحال والجرائد اليوميّة. جاؤوه بأعداد مضاعفة. رابطوا اليوم بكامله على مقربة من الشجرة وداخل لحاهم الفحميّة تدلّت أحقاد السنين. لم يقل شيئًا ولكنّه همس لكبيرهم: إذا كان تخريفي يجرح آذانكم فلا تستمعوا. ويسألونك، ثم يسألونك وهم لا يدرون. إنّما هم الخاطئون. يقولون يا غلام الله تنحَّ عن هذه الأرض واذهب حيث لا يراك الله ولا الملائكة ولا المتّقون. قلْ لهم إنَّا هنا باقون إلى أن يرث الله أرضه وترابه وناسه الصالحين. بهُتَ قوم الضّلالة وهم لا يعلمون. وإذ يقولون، إنما عَلَّمَ الله آدم الأسماء جميعًا، قل لهم بئسَ الذي تُظهِرون وبئْس ما تُخفُون. تبارك الاسم العالي الذي لا يُذِلُّ إلاّ القوم المتجبّرين.

دوّن كبير الملتحين كلّ كلامه على ورق أصفر كأسنانه وفي مساء اليوم نفسه اختطفوه وفي صباح اليوم السابع وُجِد مسمَّرًا، مصلوبًا على الشجرة الوحيدة التي في المكان، كُتِبَ على ورقة رُشِقتْ على صدره العاري: هذا مسيلمة الكذّاب. عاشر الشيوعيين وهم الذين سمّوه غلام الله والعياذ بالله، لذمّ العزيز الحكيم. نُصح فلم يعمل بالنصيحة. عُزِّر فاستكبر وتعدّى حدود الله ومن تعدّاها فقد ظلم نفسه وضرعه وزرعه وأهله. وفي الصباح الموالي كان القتلة يمشون في الجنازة ويتساءلون عمّا حصل ويتأسّفون. وكلّ النّاس كانوا يعرفون الحقيقة ولكنّهم لم يسألوا عن دمه. هؤلاء القوم هكذا كما كان دائمًا يقول عمّي غلام الله: وإن رأوك وأنت تقول ما لا يستطيعون. بك يسعدون. يرفعون إرم ذات العماد عند رجليك. ويصرخون لبّيك يا سيّدي لبّيك، وإذا قتلك الطغاة الهالكون، قالوا ربّنا احفظنا من غيّ الضّالين. أهَلْ ظَلَمَ الذين تواصّوا بالحقّ؟ لسانه طال وكانوا له من النازعين. ربّنا احفظنا من القوم العابثين. ألا أنتم الظالمون لأنفسكم ولذريّتكم وللتابعين. وإذ تصلكم نار الفتنة تقولون يا غلام الله أنت لم تنطق عن الهوى ولم تكن من الخاسرين. ألا أنتم هم الخاسرون.

لو تدري يا عمّي غلام الله، كم أنتَ محقٌّ في أناشيدك وتراتيلك المهمومة ولكنّك ذهبتَ قبل الوقت. فمن يسمعك الآن وأنتَ رجل اليقين؟ كلّ الأبواب قد أوصدت والنوافذ أُغلقت من الداخل والآذان تلاقى عليها الصمم والجبن وانسحب، نحو القبور الباردة، كلّ أحبابك واحدًا واحدًا.

-٢-

فتحت النافذة قليلاً.

شوارع أمستردام وقنواتها ومساربها المائيّة تبدو حيويّة. على الرّغم من برودتها، كان يعبرها خيط رفيع من الدفء لا أعرف مصدره. ربّما كان شعاع الشمس الذي اخترق للحظة الغيوم الثقيلة، متسرّبًا عبر الفتحة ليستقرّ في النهاية على الحائط المقابل.

لملمت قصاصات عمّي غلام الله ونشيده الممزق، ربّما وجدت يومًا وقتًا لتجميعها وترتيبها. عمّي غلام الله كان يقصُّ الهاوية التي كانت تسحب البلاد نحو الأنفاق. ثمّ فجأة انزلقت وسط هذا الكمّ الرسالة الأخيرة التي بعثت بها لعزيز. تردّدت في فتحها. أنا أعرفها من غلافها الجميل الذي انتقيته له مثلما يحبّ.

تساءلت وأنا أتّكئ على خشب النافذة، أنا أبحث عن ماذا إذن؟ ربّما عن كلّ ما يبعدني عن تلك الأرض. عن النسيان الذي لا يوقظ في هذه المدينة إلاّ ما يهزّ الذاكرة بعنف كبير. كم نشتهي أن نغيّر الأقدار التي تحرج حالاتنا الهادئة ولكن كم تشتهي نفس الأقدار أن تراوغ وتتخبّأ لتفاجئنا في الأوقات الأقلّ انتظارًا بمزيد من السخرية والقهقهات من سذاجتنا. كليمونس مثلاً؟ أشتهي أن أسمّيها رحمة، لا أدري لماذا؟ لم تكن ابنتي التي سحبتُها معها فتنة في تلك الليلة الغريبة على حافّة بحر ابتلعه الضباب. كلّ هذا لا يهمّ. فإذا كان فيها شيء منّي ومن فتنة سينهض حتى عندما يموت صانعوه.

لم أنم طوال اللّيل لأنّه، ربّما، أولى ليالي المنفى أكثر امتلاء من أن تحتويها ليلة. شيء ما كان يخترقني.

الوجوه التي تفاجئنا لا تترك لنا فرصة الراحة. تنغّص علينا كلّ السعادات الممكنة وتحمّلنا عقدة ذنب نظلّ نجرُّها وراءنا إلى آخر العمر. من كثرة التعب والتلاشي، أشعر أحيانًا وأنا بين النوم واليقظة أنّ قلبي يريد أن يخدعني فجأة ليتخلّى عنّي، ثمّ تحت وطأة التردّد والحبّ الغامض، يؤجّل كلّ شيء ويمنحني بعض الوقت الإضافيّ.

أمطار أمستردام الباردة تعود من جديد لتنقر زجاج النافذة. هذه الأمطار الباردة بالذات تعمّق هوّة الجرح المتمادي.

مرّة أخرى عزيز؟ ما الذي يوقظه فيّ؟ كان محبًّا للدنيا ولم تعطه الحياة إلاّ القليل ممّا أشتهى.

تسحبني البرودة، شيئًا فشيئًا، نحو محارق الذاكرة. عندما نظنّ أنّنا تخلّصنا من التفاصيل وتناسيناها، نجدها قد ازدادت توغلاً فينا. منذ أن وطئت قدماي تربة هذه المدينة وأنا أنام على الوجوه التى ما تزال تحتلّ أمكنتها على الرّغم من الزمن الذي مرّ. عزيز الذي كان يحلم دائمًا بأن تتغيّر الدنيا بسرعة ونعود كما كنّا، نحلم ونتقاسم الضحكات نفسها في بيت أمّي القديم الذي كبرنا فيه جميعًا، انسحب كالظلّ ولم يعد. أصيب بالمرض الذي يعتريني كلّما شعرت بالحياة قريبة منّي. جعلته يشترك معي في عشق مدينة وهميّة كنّا نؤسّسها كلّ مساء ببصرينا. عندما ينسحب جميع الناس نحو بيوتهم الرطبة، نقف على حافّة الخليج البحريّ ونغرس عيوننا ليلاً في الأنوار التي تتزحلق على حافّة البحر من سيدي فرج إلى جميلة . لمَذراك. أصرخ بدون إرادة منّي :

– أرأيت يا عزيز؟ ما أجمل هذه المدينة.

ينتفض عزيز في مكانه.

– ولكن أين هي هذه المدينة؟

– هي في رأسي. أنظر على هذه الحافّة التي تمتدّ إلى قرابة الخمسين كيلومترًا. أترَى هذه الأضواء التي تتلألأ وكأنّها تأتي من وسط البحر؟ هناك... لا... لا... على يمين المنارة... أيوه، بالضبط هناك حيث كلّ يوم أبني مدينة لم يفكّر فيها أحد. هنا مكان العاصمة الحقيقيّ، خارج الأدخنة حيث لا شيء سوى الزرقة والامتداد اللاّمتناهي. مدينتي التي أشتهي، بشوارعها الجميلة وباراتها الأنيقة ومسارحها وفنونها ومساحاتها الخضراء.

يتنهّد عزيز قليلاً وفي عينيه أرى لمعانات خافتة تحت أضواء الساحل.

- Tu sais grand frère, c'est encore trop loin. Mais, Il n'est jamais interdit de rêver, ni d'ailleurs d'imaginer une autre terre. Ce sont les grandes utopies qui nous donnent cet ardent désir d'aimer.

– لا يا عزيز. أنت لم تفهمني. هذا ليس حلمًا ولا خيالاً مستحيلاً. أنا متأكّد أنّ كلّ حبّ هو أوّلاً يوتوبيًا. ويمكن أن يأتي محبّ قويّ إلى هذا المكان ويأمر ببناء مدينته. مستحيل أن أكون الوحيد على هذه الأرض الذي يهتزّ لهذا المكان وإلاّ سأكون مجنونًا.

– لكن من ينشئ هذه المدينة؟ لقد بلعوا كلّ شيء حتّى الهواء.

– لا. أنا على يقين أنّه سيأتي رجل وسيصاب بحالة افتتان بالمكان، عنده قدر من الهبل وسينشئ مدينته في هذا المكان بالضبط. الأمر لا يتطلّب أكثر من بعض الجنون.

وعندما نرتاح لنشرب بيرة على الحافّة.

– أنظر. حتّى بحر هذه المدينة لا يشبه بقيّة البحار. في موجه

أصوات لا تحصى. كلّما جلست هنا، على حافته الأكثر قربًا، تسلّيت بتعداد تنوّعاتها فتذهلني هذه التقلّبات التي قد تصل إلى أكثر من عشرين صوتًا. تريد أن تجرّب. إفعل مثلما أفعل أنا دائمًا، أغمض عينيك واسمع فقط ولا تفكّر في أيّ شيء آخر.

ثمّ يغمض عينيه السوداوين ويترك نفسه لهزّة الموج ودوخة البحر.

– أتسمع؟

– أكثر. إنّي أرى كلّ أبواب البحر الموصدة تُفتح دفعة واحدة. أدخل إلى مدينة الأطياف. أسمع. عشرات التنويعات المذهلة، الموجة الهادئة، بقايا موجة تكسّرت، العنيفة التي تسحب بصوتها كلّ هدوء المكان. والموجة المرتطمة بالصخور. التي تتمزّق قبل أن تصل. الموجة الخفيفة والمثقلة بالرمل، الموجة السعيدة، الأنثويّة والذكوريّة... وحقّ ربّي أنت مهبول وهبلتني معك.

– هذا بدون ذكر أمواج الروح التي لا يسمعها إلاّ قريب القلب إلى البحر. ومن يستطيع أن يرمي بنفسه للهدهدة والانخطافات.

وصار عزيز كلّما زارني، يقترح عليّ زيارة مدينة الأطياف كما كان يسمّيها. أصابه مرضي المزمن حتّى نسي الأخطار المحدقة بنا.

عزيز جرحٌ، كلّما حاولت رتقه، انفتح من الجهة الأقلّ انتظارًا مثل صاحبه. اليوم أحاول أن أنسى أنّه مات، أكتب وأحاول أن أجبر الحلم ليفتح لي شبابيكه المغلقة وأراه مرّة في الشهر على الأقلّ. يزورني عندما أدعوه. هو هو، ما عدا مسحة الحزن التي لم تكن على قسمات وجهه من قبل؟ لم أرث منه الشيء الكثير غير نزعة الالتصاق بالحلم حدّ الخبل، والرسالة الوحيدة التي كتبتها له، لن تصله أبدًا. الموت لم يمهله فرصة التأكّد من قلبي تجاهه.

لا أتذكّر مطلقًا أنّي فكّرت في الكتابة إليه يومًا ولم يطالبني هو بذلك، ربّما لأنّي كنت أراه دومًا معي حتى أيّام الغياب الكبير عن العائلة والدار. لقد تحمّل شطط البقاء مع أمّي ومؤاساتها لوحده.

لم يكن يطلب منّي الشيء الكثير سوى المحافظة على نفسي حيًّا. أن تبقى حيًّا، هكذا كان يقول، ليس مطلقًا فعلاً أنانيًّا تجاه الذين ماتوا ولكنّه سخاء وتفكير صحيح تجاه الأحياء الذين يحبّونك ويخافون عليك. كلّما فتحت رسالته زاد ارتعاشي وبدأ قلبي يهدّدني بالتخلّي عنّي. اليوم لم أعد أخاف السكتة المفاجئة فقد صار الموت جزءًا من ليلنا ونهارنا. ولم تعد الحياة بكلّ ذلك الألق الكبير. لست أدري بالضبط من أين جاءتني تلك القوّة يوم قُتِل. لم أستطع البكاء ولا حتّى العواء مثل الذئب المجروح. إلى اليوم لم أبكِه. كلّما شعرت بالحزن وبنار الفقدان تحرقني، أقنعت نفسي بأنّه ما يزال حيًّا وأنّي وسط كابوس لابدّ أن يتوقّف. لم أجد يومها ما يؤنس الوحشة إلاّ الكتابة. بها أستطيع اليوم رؤية عزيز وحبّه أكثر من أيّ زمن مضى. عندما نحبّ بصدق نستطيع أن ندعو من نشاء من الموتى لوليمة الفرح. الأقربون يستعصون في البداية ليمتحنوا مقدار حبّنا لهم وعندما نصرّ، يأتون بلا تردّد. كلّما احتجناهم ضربوا لنا موعدًا في أقرب حلم نعيشه معهم كما يشتهون. أتساءل أحيانًا، كيف استطاعت امرأة مثل أمّي، التي عبرت قرنًا بكامله كقذيفة، أن تتحمّل جرحًا مؤلمًا كهذا وهي التي اطمأنّت للموت بعد أن دفعت له زوجها في عزّ شبابه وابنتها الوحيدة، زليخة، قبل أن يخادعها مرّة أخرى في عزيز؟

عزيز... الجرح الحيّ. كلّما فتحت الرّسالة التي لم يُكتب له أن يقرأها، رأيت حروفها واقفة باستقامة كالمسامير، ترتشق في

القلب والعينين. حتّى الغلاف اخترته مورّدًا مثلما كان يشتهي. عزيز طفل رومانطيقيّ. يقول دائمًا: الغلاف هو عنوان الرّسالة وليس قبرًا باردًا تُوارى داخله ورقة أو مجموعة أوراق مليئة بالحروف المرتبكة وحرائق الشوق. الغلاف هو الغوايات الأولى...

-٣-

حبيبي الغالي عزيز.

كم هي مضنية مسالكك أيّها الغريب...

هكذا تنسحب من الدنيا بصمت مثلما جئت. بدون ضجيج، على إيقاع نحيب خافت لأمّ دفنت في قلبها، منذ أكثر من أربعين سنة، زوجها الذي لم تعرف قبره مطلقًا، ثم ابنتها وانتظرت شرف النوم الأخير بين يدي الابن الوحيد الذي رفض أن تبدّد حنينه مغريات المدينة. لا شيء يملأ القلب الآن إلاّ بقايا صورة لوالد لم تمهله الحرب الوقت الكافي ليمارس حبّه الأبويّ.

حبيبي المستعصي على الفهم، هل كان من الضروريّ أن تمنحني رغبة الكتابة مقابل موتك؟ لم تكن في حاجة إلى ذلك كلّه لتثبت لي أنّ الدنيا مجرّد سجارة تندثر بالحرقة وأنّها لعبة طارئة لا تمارس إلاّ باستثنائيّة وأنّ كلّ شيء مؤقّت. الموت وحده هو المطلق.

أيّها الغريب في قلب الغريب...

ضفافنا ضاقت والقلب لم يعد كما كان، المحنة زادت والدنيا صارت عين إبرة، السبل الممكنة توارت والليل صار فينا، يمارس

خلوته مع كأس القهوة الأولى التي نشربها قبل أن نفتح أعيننا على الناس وعلى أخبار الجرائد اليوميّة. منذ ستّ سنوات لم أرك كما أشتهي ولم ترني لتخبرني بأنّ البلاد تغيّرت كثيرًا وأنّ الحزن لا يمكن أن نعيشه إلاّ فرادى. مَنْ مِنَ الناس يعرف أنّك منهك وأنّ أشياءك الصغيرة مطحونة إذ تواجههم في منعطفات المدينة وأنت ذاهب لموعد فاشل أو لعمل مملّ، يسألونك:

– كيف حال الدنيا؟

تردّ وأنت ترسم ابتسامة تسخر بها من انكسارك وتحافظ بها على خلوتك وتوازنك وإنسانيّتك:

– الحمد لله Heureusement qu'il y a le rêve منذ أن دفنتُ عمّتي على هذه التربة في ذلك الشتاء الموحش واختارت هي الموت لتختصر خمسين سنة من المنفى، لم ألتفت إلى هذا المكان. ها أنذا اليوم أعود له بعد ستّ سنوات فقط لأقنع نفسي عبثًا أنّك رحلتَ وأنّ أشياءك الصغيرة غيّرت أمكنتها وأنّك ابتداء من اليوم لن ترابط في شرفتك ولن تطلّ منها لتقول لنا: صباح الخير يا سكّان الطوابق السفلى، صباح النور يا سكّان البحر الذي يختبئ وراء المرتفع الصغير، تحفظكم عين الولي من كلّ مكروه. عليّ أن أروّض نفسي كثيرًا لأقتنع أنّ ما حدث كان من فرط الصدفة المميتة ضمن ألف احتمال للحياة.

لماذا ذهبتَ؟ ألم يكن ممكنًا أن لا تذهب؟

أنت دائمًا هكذا. لم تتغيَّر إلاّ قليلاً. مازلتَ تستدرجنا نحو قدر وحدك تعرف مخاطره ونهاياته. وتتمادى في غيّك وأنت لا تعرف أنّ اللّعبة يمكن أن تصير مؤذية عندما تتكرّر. كلّما طلبت منك التوقّف عن استدراج القدر نحوك، تضحك بسماحة وأنت تمحو

أوراق الرهان الرياضيّ الذي كنت تحبّه، تحكّ رأسك من تحت شاشيّتك الزرقاء التي تشبه شاشيّة الحوّاتين، وتحرق سجارة وعيناك شاخصتان في وجه ابنك يوسف وفي إطار صورة مبهمة لوالد لم تعرفه:

- لا بد أن أربح يومًا الرهان، يمكن أن أكون ذلك الواحد في الألف أو المليون الذي يربح. لا بدّ أن يملّ منّي سوء الحظّ ذات يوم وأنتزع منه الفرصة الوحيدة.

لقد خذلتك السنوات بسرعة يا ابن أمي. لم تكن تعلم أن الموت سيقلب كلّ المعادلات وسيختارك لتكون الرقم الواحد في الألف في لعبة الموت. عندما دخلتَ إلى المستشفى لم تكن تفكّر مطلقًا في الاحتمال الأوحد للموت ولكنّك فكّرت باستماتة في ٩٩٩ فرصة للحياة.

أرأيت أيّها الغريب أنّ رهانات الدنيا غير مأمونة وأنّ تماديك في اللعبة عواقبه كبيرة.

أيّها الغريب الذي لا يلتفت وراءه أبدًا حين يلعب مع الدنيا لعبة الموت، أَمَا آن لك أنْ تنسى هذه المخاطرة؟ أَمَا آن لك أنْ تترجّل قليلاً وتفكّر أنّ الموت قاس وأنّ هشاشتنا لم تعد تتحمّله؟ ألم يحن الوقت بعد لتدرك أنّك طوال الثلاثين سنة التي عشتها كنت فقط تتدرّب كيف يمكنك أن تملك قدرك وتلوّح به كالفراشات الملوّنة التي تملأ كفك عندما يصير سجينًا لنزواتك.

أيّها الغريب...

يا ابن أمّي الصغير الذي كمش ذات صباح الموجة الهاربة من ذراعها اليمنى ورماها في البحر وهو يصرخ بأعلى صوته: إرجعي من حيث زلّت قدماك، وزاغ بصرك وغامت رؤاك، بعد زمن

سينفرك أقرب الأقرباء، فلا مكان لك إلاّ البحر ولا سقف لك إلاّ الماء، الانطفاء على صخرة الشطّ المهجور أهون من أن يملكك الذي لا يعرفك أبدًا. ويا ابن أمّي الذي وضع النّور في كفّه ورماه في برّيّة القفر ليجعل منه صاحبًا أبديًّا للرمل. أيّها الغريب الذي مشى نحو زمن، وحده كان يعرف قساوته وسار نحو شمس سال ظلامها على الدنيا. من يعليني نحوك، من يفكّ الآن حروفك؟ من يعطي لأبجديّاتك معانيها الخفيّة؟ من يأتيك بحفنة تراب لتغرس وردتك ورجلاك في الماء؟

وحدك أيّها الغريب تعرف كم أنّ الدنيا خادعة ولهذا تقابلها بصمتك وبضحكاتك الساخرة وسحرك الذي لا يفنى. وحدك مثل الله إذ تحزن تضع الموجة في جيبك وحقيبتك الوحيدة في عينيك وتسافر.

- إلى أين تهاجر وحدك هكذا أيّها الطفل الصغير؟

تتوقّف قليلاً، لا تلتفت وتواصل انحدارك بصمت لأنّك تعرف مسبقًا أنّ لا أحد يملك القدرة على السير معك إلى منتهى الرحلة. تستهويك غوايات الموت وشطط اللّعبة المبهمة. كلمة واحدة نقولها تكفي لتوقظنا من خديعة الوهم. تتوقّف قليلاً، تهزّ رأسك ثمّ تواصل سيرك بصمت أقلّ. تتمتم:

- Boof, La vie c'est comme les mots: éphémère et fragile.

لك أيّها الغريب كلّ ضفاف الدنيا الجميلة إذ تمضي حيث يشاء انتشاؤك لا حيث يشاء قدر الله. الله يا ابن أمّي لم يعد يسأل عن أحد، لقد أحرق سلطانه وتوسّد الرّماد وشواهد الموتى. الحياة قوس طارئ في جملة غير مفيدة، تفتحه يد رقيقة وتغلقه يد حتمًا ليست هي نفس اليد الأولى.

وحدك أيّها الغريب الذي قبل أن يتوضأ بالنور ويولد بين مرارة موتين.

عندما كنت نطفة عمرها سبعة أشهر، كان الوالد قد احترق قبل مجيئك بشهور مع المواكب الأولى التي حلمت طويلاً بوطن سرق منها ومن أبنائها مع الطلقات الأخيرة من الحرب الميتة وعندما فتحت عينيك على الدنيا رحلت زليخة، هي كذلك لم تلتفت وراءها عندما اختارت الذهاب. لم تكن تؤمن كثيرًا بالحلول الوسطى، لم تعط الحياة أكثر من مهلة يوم واحد في الفراش ثمّ انطفأت.

ليخا أحبّت، فانتحرت حبًّا.

ولدتَ عاريًا بين ألمين وشوقين مستحيلين.

فتحت عينيك في خلاء موحش، وحيدًا كنبيٍّ ضائع وككتاب ممنوع.

أراك الآن تعود من أكثر من ثلاثين سنة عندما جئت لأوّل مرّة إلى الدنيا، كان ذلك داخل خيمة قديمة، كلّما اصطكت الرياح الشتويّة تسابقنا إليها جميعًا، ماما ميزار، وزليخة وأنا، نقبض على عمود الارتكاز حتى لا تقتلع الخيمة وأنت صغير، تسترقّ السمع إلى تمزّقات الرّياح في الخارج وتتأمّلنا بعينين دافئتين وتظنّنا نلعب فتناغي وتضحك ونظلّ اللّيل بكامله واقفين وعندما تتبدّد العاصفة يكون النّوم قد أخذك بعيدًا.

عندما بدأتَ تكبر، لم تتحمّل ثقل الكلمات الغائبة. لم تجد في حضرتك إلاّ أمًّا، عندما سألتها عن أبيك، وضعتك على صدرها، كان حليبها مرًّا، ثمّ نظرت إلى السماء الفارغة ولم تقل شيئًا أبدًا. وظللت تؤمن طوال حياتك أنّ أمّك تشبه والدك، كانت مثله

تمامًا، بل هو تمامًا. تأخذ الإطار الأوحد في البيت وتبدأ في تفحّصه لتنتهي إلى جملتك الوحيدة التي سمعتَها من كبار القرية:

- شفتوا! سبحان الله، قطرتان من نور!

وأستفزّك:

- وين راك تشوف الشبه؟

تضحك. لا تعرف شيئًا آخر إلاّ الضحك. عندما تزعل و يمتلئ قلبك بالرماد تضحك أو تصمت لتردّ كلّ جحيم الغليان إليك وحدك.

- أنتم ما تعرفوا والو.

لم نعرف إلاّ بعد سنوات أنّك كنت تصنع شبائهك مثلما تشاء، مثلما يصنع الغريب وطنًا من اللغة، يمكث فيه طويلاً، وطن لا يبلى ولا يموت ولا يستعمره أحد. وحده يملك مفاتيح السرّ والشبهة وتخطّي العتبات.

وعندما يذهب نحو الموت يأخذه معه لأنّه وطن لا يقبل اليتم.

أيّها الغريب، وحدك خضتَ غمار البداية، ومثلما فتحتَ أقواسك بيدك اليسرى، أغلقتها بيمناك متحدّيًا جبروت الله. قلتَ، الذي لا يعرف اختيار موته لا يعرف أبدًا كيف يختار ميقات حياته.

أيّها الغريب؟ ألم تجد وقتًا مناسبًا للانسحاب الهادئ غير هذا؟ أم أنّ القتلة لم يمهلوك لكي تسند رأسك على ركبة أمّك وتقول لها مثلما كنت تفعل صغيرًا: يمّا افلي لي. حكّي لي راسي. وتبدأ هي بلمسات أصابعها السحريّة البحث عن شجنك حتى تنام.

هذه المرّة لم تكن تمزح أبدًا، كنتَ جادًّا إلى حدّ الانسحاب من كلّ الأمكنة التي تعوّدت ارتيادها. اليوم لم أعد أملك القوّة الكافية التي تؤهّلني لتقبّل خروجك، فقد نسيت أن تغلق الباب

وراءك لتذكّرني دائمًا أنّك خرجت. منذ أن تركتها، أمكنتك فقدت أسماءها من فرط التصاقها بك.

تصوّر، كنت خائفًا عليك من موت آخر صار كلّ من يحلم يخشاه، ولكنّك دائمًا تفاجئنا وتأتي حيث لا أحد ينتظرك. حتى في الموت لا تنس أن تكون صوفيًا وبسيطًا وخطيرًا كالماء.

يكفي، الدنيا ليست بهذا القصور. البارحة عندما فتحت الخزانة وجدت بعض ألبستك المتداخلة، معاطفك الصوفيّة وكوفيّاتك الكثيرة، طاقمك الأبيض الذي لا تلبسه إلاّ في المناسبات والأعراس، جواربك المبعثرة عبر رفوف الخزانة، كلّ شيء يقول بأنّك كنت ههنا، قبل ثوانٍ قليلة تتهيّأ لموعد وحدك كنت تعرف اتّجاهه.

قلت في خاطري وأنا ألمس فوضاك الجميلة هذا الطفل لا يتربّى أبدًا. عزيز! يكفيك من الفوضى، مانيش عارف سروالك من سروالي، نظّم روحك شويّه. وعندما ألتفتُ نحوك أجدك بجديّتك الصارمة تقاوم ابتسامة ملعونة ترتسم في عينيك الصافيتين. أنت هنا. كلّ شيء يتنفّسك، الزهور التي نسيت هذا الصباح أن تسقيها، العصافير التي تعوّدت أن تأكل من كفّيك، الحبق الذي يملأ أطراف البيت، بساطتك وصوفيّتك العالية التي لا تطلب من الدنيا الشيء الكثير، قهقهاتك الأخيرة وأنت تستمع إلى آخر نكتة فبركناها جميعًا.

أربعون يومًا مضت وأنت غائب كيوسف. بابك ما يزال مفتوحًا وأصدقاؤك يسألون عنك كلّ صباح.

مررت هذا الفجر على قبرك لأغرس بعض النوّار. لم أفكّر إلاّ في النرجس. سافرت من أجله واشتريته من المدينة. كنت برفقة

ابنك يوسف. يقولون إنّ الزيارة قبل الفجر تسمح لمن في القبور بسماعنا. أعتقد أنّك كنت تسخر من سذاجتي التي لن أشفى منها أبدًا.

كانت التربة ما تزال طريّة. سألني يوسف:

– الرّجل الذي ينام تحت هذا التراب هو بابا عزيز.

لست أدري ما الذي دعاني إلى ترتيب هذا الجواب.

– لا، الرّجل الذي ينام تحت هذه التربة الدافئة هو أخي الصغير الذي تعوّد أن يفاجئنا في كلّ شيء.

هو عزيز إذن الذي لم ينس أبدًا أن يلعب لنا الأدوار ويدفع بنا إلى نفس التمادي لقبول موته. لقد قتلتك البلاد التي اشتهيت أن تتظلّل يومًا تحت راياتها الخفّاقة كما تعلّمت في المدرسة. قتلك حلم الأطياف التي ستظلّ أطيافًا حتّى يأتي الرّجل الغريب ويجعل منها مدينة يشتهيها العشّاق الضائعون والرومانسيّون الحالمون.

قال يوسف بعد أن أسكن حيرته:

– إذن عندما يستيقظ عزيز سيجد نفسه مكلّلاً بالنوار والنرجس؟

– وسيكون سعيدًا أنّ مكانه في القلب له وحده دومًا. الغريب في حاجة إلى كلّ أنيس.

أشرق نور ما في عينيّ يوسف الطفوليّتين وواصل دفن بذور النوار الدقيقة وغرس النرجس عميقًا حتّى لا تأكلها الطيور ولا يقتلها الصقيع.

–٤–

تنفّست بعمق.

سمعت وأنا أعبر عتبات الكنال هاوس الخشبيّة صوت راشيل، الموظّفة الأمريكيّة:

– نهارك سعيد، أستاذ ياسين.

– ونهارك أسعد راشيل.

رفعت رأسي، لقد انكسر شعاع الشمس الهارب وعادت الغيوم الثقيلة. تلقيت أوّل الأمطار الباردة على وجهي. وعلى الرّغم من البرودة وقلّة النوم، شعرت بسعادة كبيرة.

لم آخذ شيئًا مهمًّا معي لأواجه قبر امرأة لا أعرفها، سوى هذه الكأس الفخّاريّة الصغيرة جدًّا والتي صنعتها مع سلسلة بكاملها، ذات ليلة بعدما قمت مذعورًا وأنا أرى زليخة وهي تحاسبني على تركها في القفر وحيدة تموت عطشًا.

فضّلتُ أن أتدحرج قليلاً باتجاه الريشكميوزم على الرّغم من المسافة الطويلة، بدل أن آخذ الترام الذي بدأ يمزّق هدوء المدينة بحركاته الدائبة. قلت في خاطري، لا بدّ أن تكون كليمونس الآن غارقة في فراشها الطفوليّ الملوّن.

الطرقات في أمستردام سهلة. عند متحف آن فرانك قطعت معبري الأمير والقيصر والهيرين لأجد نفسي بمحاذاة قناة السنغل، فاندرت عبرها حتّى واجهني سوق الورود. كانت التشكيلات الموضوعة على الرفوف الخارجيّة مغرية. اشتريت باقة النرجس وتركتني أتمادى في انحداري باتجاه الريشكميوزم.

هذا الفجر يعمّق اشتهاءات المشي.

لأمستردام طقوسها، وهي مدينة تلتصق في الحلق كالغصّة، كلّما حاولت تفاديها، زادت توغّلاً فيَّ كالنصل القاطع. كنت أشعر بوقع كلّ تلك الأمطار الباردة فيَّ، تعبر عروقي كندف من الثلج

الرقيق.

شيء ما يسير في هذه المدينة بشكل ثقيل، ربّما الحزن والوحدة هما السبب. الإحساس بالموت لم ينسحب. صحيح أنّي لم أعد أنتظر مفاجآته في زوايا المقاهي والمعابر الصغيرة ولكنّي أصحبه لأنّه صار فيَّ. يبدو أنّ للموت أمزجته الخاصّة التي تتجاوز نوايانا الخاصّة، فهو عندما يريد أن يستيقظ لا يسألك عن رأيك. من فرط يقيني بأنّي أخذت معي كلّ أشيائي الصغيرة، كدت أنسى صورة عزيز المعلّقة في إطارها المذهّب على الحائط المتآكل. ما الذي دفعني إلى الالتفاتة الأخيرة لأرى وجه عزيز وقد تغيّر كثيرًا وأصبح رماديًا وانسحبت ابتسامته المعهودة قبل أن يعود إلى وضعه الأوّل؟ صباح بارد مثل ذاك لا يتيح للذاكرة فرصة صحيحة للملمة شؤونها الصغيرة. لا نتذكّر فيه عادة أشياء كثيرة ونحن نستعدّ لمغادرة مدينة لم نعد نشعر حيالها بالحبّ الكبير ولا حتى بالكراهية، فالكراهية تقتضي وجود حالة حبّ ملتبسة أو مقلوبة. المدينة عندما تكفّ عن أن تكون عشيقة، الأفضل أن نتركها ونقبل منها تخلّيها عنّا. لقد عادت الزغاريد والضرب بالملاعق على الأواني المطبخيّة التي سمعتها قبل سنوات عندما كان القتلة يستعدّون لطحن النّاس وحرق المدينة. تأمّلت وجه عزيز. كان حزينًا ووحيدًا مثل الماء الصحراويّ، وبريئًا كصبيّ وناعمًا كوجه صينيّ.

يوم أصيبت أمّي بمرض السكّر، بسبب إصراري على البقاء، صرخ في وجهي بأعلى صوته مثل المجنون. لم يتمالك أعصابه كمن مُسّ في أعزّ شيء لديه. لم أر في حياتي عزيز بهذه الحالة الهستيريّة:

– يا خويا تحبّ تموت؟ الله يسهّل عليك. متْ بعيدًا. أمّي سيقتلها خبر قتلك، يا خي أخرج وانتحر بعيدًا حيث لا يسمع بك أحد. لو غادرت البلاد لأرحتنا وأرحت نفسك. أحشم على عرضك. خَفْ على أمّك على الأقلّ، إذا كنّا نحن لا نعني لك الشيء الكثير. مرض السكّر بدأ ينخرها بسببك وأنت عايش في هذه الحفرة كالجرذ ولا على بالك...

عزيز لم يكن عزيز الذي أعرفه دائمًا صافيًا كالماء. كان في حالة ثانية لا تنتمي له إلاّ بشكل مؤقّت وزائل. لم أقل شيئًا. أخي الأصغر. كلّما ارتكب حماقة، وجد وراءه أمًّا تدافع حتى عن خطئه. ما يْعاودش. أصبر. خوك صغيّور يا وليدي ما عليهش. أمّي كانت بالنّسبة له أمّه وحده والبقيّة كلّهم دخلاء على حبٍّ لم يكن لهم. عندما سقط الوالد على أطراف القرية، سلاحه في يده، في الحرب الوطنيّة الأولى، كان هو يتكوّر ويلعب الألعاب الجنينيّة في بطن أمّي.

كم أشتاق لعزيز صافيًا. أتهيأ عبثًا لاستقباله. يفرض عليّ دائمًا مساره. ما زلت كلّما زارني في الحلم، يأتيني مضببًا حزينًا. ينظر طويلاً إلى الجبال المحيطة ثمّ إلى البحر المصطخب، يهزّ رأسه ثمّ ينسحب عبر امتداد شاطئ مدينة الأطياف حتّى يأكله الضباب. لا يقول ولا كلمة أبدًا. ذهابه المبكر يشعرني بعقدة الحياة وبالبرودة في ظهري. كان غطائي أيّام المحنة الكبرى. لم أقل له هذا في حياته. كلّما اضطررت لعبور شوارع العواصم، أحسّ به ورائي. فقد ولد بعدي ولهذا فهو يغطّيني كما تقول أمّي. كان مثل شجرة عالية أو نخلة أتّكئ عليها كلّما تعبت من المشي زليخة حمتني من الموت، فهي وقاء الصدر لأنها وُلدت قبلي. أمّا أنا فلا

استطعت أن أحمي صدر عزيز ولا ظهر زليخة. فقد ذهب الاثنان بعد أن يئسا من إخفاقي. كلّما مشيت اليوم في شوارع العاصمة أشعر بقوّة الفراغ والبرودة في الظهر والصدر.

أصادر خوفي وأحاول أن أنسى.

عندما يصبح الحضور مستحيلاً نتدرّب على غيابهم المؤقّت. أحاول اليوم أن أقنع نفسي أنّ عزيز ذهب كما تعوّد أن يفعل كلّما شعر بضيق الدنيا وسيعود. هناك جراحات في الحياة تغطّي على كلّ المآسي وجرح عزيز محا كلّ سوابقه. مثل الأخدود، حفر مهاويه بصمت ثم استقرّ. عزيز كان شدوًا مقموعًا وحنينًا صمت قبل الأوان. عزيز لم يكن مخطئًا. عليَّ أن أبحث عن أرض أخرى للموت.

كان سعيدًا في المرّة الأخيرة عندما جاءني، في ذلك الفجر، نازلاً لتوّه من قطار اللّيل لأنّ حرب الموت كانت قد انتهت أو هكذا اشتهى، وأصبح بالإمكان لملمة الجراح ورتق الأشواق. كان مقتنعًا أنّ الخير انتصر.

– ولكنّهم عادوا إلى عاداتهم القديمة.

قلت وأنا أحاول أن لا أخيّبه.

– لقد عادوا. أشهد أنّي رأيتهم. إنّهم يرابطون بجانب البيت ولكنّي على يقين أنّهم يدركون أنهم خسروا حربهم المقدّسة. الناس ينظرون لهم بعين الشكّ وهم يردّون بنظرات صفراء منكسرة لا حياة فيها. خلاص، لم يبق أمامهم إلاّ التسليم بالأمر حتّى يستطيع المجروحون نسيانهم.

– إحذر يا عزيز. الكلاب الضالّة غدّارة.

– واش راح يديروا؟ البارود اللي كان عندهم، أحرقوه.

ثمّ سألني بدون سابق حديث:

– وأنت يرحم والديك. تعرف فقط تنصح الآخرين. ألم تفكّر أنّ هناك أناسًا كلّما فتحوا التليفزيون، شُدّت أعينهم على النشرات اليوميّة والأخبار؟ أنت واش قابضك هنا؟ لا دار لا دوار. أما زلت تصرّ على الهبلّ؟ لماذا لا تخرج؟

– لأذهب إلى أين؟

صمت ثم واصل.

– إلى الخارج. أنت معروف ولن تجد صعوبة في الحياة هناك. لو كان جيت كيفك والله ما نبقى دقيقة واحدة. يمّا ويوسف، الله غالب.

– أنا كذلك، الله غالب. ها أنذا مثلكم جميعًا صرت بلا تردّد أؤمن بأسبقيّة الأقدار. عاجز أن أرى نفسي خارج هذه الطاحونة التي يسمّيها بعض المتفائلين وطنًا.

– أنت تقول هذا الكلام؟ لم أعد أفهم شيئًا.

– وماذا يمكنني أن أفعل. لم أؤذِ في حياتي حشرة. في مثل هذه الحروب الغامضة إمّا أنْ تكون قاتلاً أو مقتولاً. أُفضِّل أن أُقتل على أن أصير قاتلاً.

– المشكلة معك أنّك تملك الكلام الذي تواجه به الآخرين وتسكتهم. ولكن نحن منك، ولهذا لا نسكت حتّى عندما نكون على خطأ.

– ما رأيك في المدينة؟ نسيت؟

– مدينة الأطياف. من ينسى هبلك الجميل؟

ونذهب نحو البحر. نعبره من سيدي فرج إلى لَمَذراك. الأرجل الحافية بين حبّات الرمل الناشف وزبد الموجات التي تنكسر عند

الأقدام لتدغدغها بلذّة عالية. نتمشّى بصمت وعندما نحاول أن نتكلّم تبدو المدينة الوهميّة، مدينة الأطياف كما يسمّيها عزيز ممتدّة على طول الساحل بألوانها وناسها الرائعين، جميلة ومدهشة لدرجة يصبح الكلام عنها أقلّ بكثير ممّا تراه العين. نواصل السير والاستماع إلى تمزّقات الماء الأزرق ونتشبّث أكثر بالحياة. نتدحرج حتى تدركنا لمسات المساء الأولى وعندما تشتعل الأنوار في مدينة الأطياف يهتزّ:

– يا ربّي لماذا لا نملك مجنونًا يبني عاصمته هنا، في هذا المكان بالضبط؟ على الأقلّ يبدأها ليأتي بعده مجانين آخرون يكملون الإنجاز.

– في كلّ البلدان مجانين عشّاق إلاّ هذه الأرض كلّما ولدت مجنونًا عقّلوه وإذا استعصى قتلوه. ليس بعيدًا عن البلارحة كنت أقرأ عن مدينة لوس أنجلس كيف انقلب القفر إلى جنّة، لأنّ المدينة تجيش بالمجانين من هذا النوع. هناك رجل كاليفورنيّ غنيّ عشق فينيسيا الإيطاليّة وعندما عاد اختار الجزء الجنوبيّ من ساحل لوس أنجلس وحفر أربع قنوات مائيّة تقسم المدينة في الوسط وسمّاها فينيسيا. سكّان المنطقة يزورون بعضهم البعض بالزوارق. جنونه ظلّ مبتورًا لأنّه توفي قبل إنهائه ولكنّي متأكّد، سيأتي ذات يوم من يكون أكثر جنونًا منه وينهي المشروع.

بقي عزيز معي، في العاصمة، أسبوعًا ثمّ ذات صباح قال لي ببراءة طفل: اشتقت إلى أمّي ويوسف. الآن الحمد لله. أصبحت تخرج كما تشاء ليس كما الأيّام الأولى. الدنيا هانية والسما صافية، ولكن أحرز نفسك من أبناء الكلب. ركب قطار الصباح الباكر ليصل مع منتصف نهار اليوم نفسه. القطار تأخّر كثيرًا ولم يصل

مبكرًا كما توقّع.

ماذا لو لم يأت القطار؟ ثمّ ماذا لو لم يتأخّر مطلقًا وحضر في وقته؟ أحيانًا ترتبط حياتنا بخيط رقيق من الصدفة التي يصنعها لنا الآخرون. القطار انتظر في الشلف أكثر من نصف يوم بكامله بسبب عراك تافه بين مدير المحطّة وسائق القطار ولم يُفكّ الشجار إلاّ عندما تدخّلت دوريّة الدرك الوطنيّ. عندما وصل وغادر القطار، شمّ رائحة القرية ليس كما تعوّدها. اقترب منه ثلاثة شبّان كما تقول شهادات الحاضرين. نادوه باسمه. التفت نحوهم. ابتسم. المؤكّد أنّه كان يعرف بعضهم. نظر إلى وجه قاتله طويلاً قبل أن يغمض عينيه للحظه يرى فيها وجه أمّه وينسى البشاعة المحيطة به، ثمّ سار نحو المخرج الرئيسيّ.

رصاصة واحدة ثمّ انسحبوا أمام العابرين. قُتِلَ وهو يعبر الدرج الثاني المؤدّي إلى حارة المعطوبين. هو الذي لم يكن يحبّ الضجيج، ودّع هذه الدنيا بدون صخب. في قلبه آخر نكتة وهو يقسم أنّه أوّل ما يصل إلى القرية سيحكيها إلى يوسف. وهو يتدحرج وينزف بالحياة، وضع يده على جبهته حتّى يوقف الدم المتدفّق كالشلاّل على عينيه، تمنّى أن يمهله الموت دقيقة واحدة يضع فيها رأسه في حجر أمّه ويسمع إلى نهاية القصّة التي بدأتها له وهي تفلّي شعره.

وهو يغمض عينيه للمرّة الأخيرة، قريبًا من حارة المعطوبين، رأى مدينة الأطياف وقد صارت رمادًا وزرقة البحر حالت نحو السواد الضارب باتجاه اللون الأحمر. رأى حرائق لا نهاية لها واشتعالات لا شيء تحتها إلاّ الرماد الذي تصعد منه رائحة الزفت واللحم البشريّ المتفحّم.

عند باب نادي رواق الريشكميوزم رأيت وجه كليمونس وأنا أحاول أن أخبّئ باقة النرجس من الأمطار الباردة، والقطعة الفخّاريّة. نسيت المدينة ولم أعد أرى إلاّ وجهها الطفوليّ. هي هي باستقامتها الجميلة داخل معطف الكاشمير الأسود.

عندما رأتني ركضت نحوي، تسبقها ابتسامة طفوليّة:

– أنت هنا؟ عظيم.

قلت وأنا أحاول أن أجد كلماتي الضائعة:

– طبعًا. هذه الأمطار تدخل العظم مباشرة؟

– تعرف أجمل شيء في أمستردام هو خداعها الجميل. تؤمّلك بالشمس وبفسحة صيف وعندما تتورّط فيها تفاجئك بسيلاناتها وثلوجها. على كلٍّ هذا وقت أمطار أمستردام الباردة.

– أسمع كثيرًا عن هذا الفصل.

– تحبّ أن نشرب قهوة في النادي أم نمشي، راشيل ثرثارة ولم تتركك تشرب قهوتك؟

– لم أشربها، ليس بسبب راشيل ولكن بسببي. ما زلت تحت وقع هذه المدينة البريئة.

– في هذه الحالة نشربها هناك. بالقرب من المقبرة، مقهى أثريّ جميل سأجعلك تكتشفه. المقبرة بعيدة نسبيًا، الأفضل أن نأخذ تاكسي.

-أفضل، لقد مشيتُ كثيرًا.

الفصل السادس
أغْصَانُ اللَّوزِ المُرّ

-١-

من الخارج، تعطي البناية الآجوريّة القديمة الانطباع بالضّيق ولكنّها من الداخل كان اتّساعها محسوسًا وظاهرًا. كلّ شيء منظّم باستقامة كبيرة. كان الممرّ المؤدّي إلى الأرشيف الوطنيّ ضيّقًا لا يتحمّل مرور أكثر من شخص واحد. ربّما كانت العمليّة مقصودة، للرقابة ومعرفة الداخل والخارج لهذا المكان المهمّ بالنّسبة لذاكرة البلاد.

سألَتْ حنين إحدى الموظّفات عن السيّدة نورما:

- Goedendag. Norma alstublieft.

- Goedendag. Norma, ya.

غابت الموظّفة داخل معبر صغير ثم عادت بعد دقائق لتقول لنا إنّ نورما مشغولة قليلاً بمادّة أرشيفيّة ضروريّة وستحضر بعد قليل. الأفضل أن ننتظر في القاعة المجاورة فهي أكثر راحة.

- Danku.

ردّت حنين ثمّ جلسنا ننتظر.
التفتتْ نحوي.
– يبدو أنّها تعمل من أجلنا، فقد اتّصلتُ بها صباحًا وحكيت لها قصّتك بالتفصيل. وعدتني بفعل أيّ شيء يمكن أن يساعدنا. لم أسألك، ماذا فعلت اليوم مع كليمونس.
– كليمونس، كانت طيّبة. فقد جابت بي المقبرة من أوّلها على آخرها. كانت تعرف جيّدًا أنّنا لا ندخل المقابر لنتجوّل ولكن لنبحث عن عزاء خاصّ حتّى نستطيع تحمّل قساوة الحياة المتبقيّة.
– هل عرفَتْ قصّتك بالتفاصيل التي حكيتَها لي؟
– هي لم تسأل. أعتقد أنّ الأمر لم يكن مهمًّا بالنّسبة لها، لكنّي في لحظة من اللحظات شعرت بها قريبة مني، ربّما لاسمها الذي لا يمكنه إلاّ أن يقودني نحو فتنة.
– ربما أكثر من ذلك كلّه. ألم يمرّ في ذهنك أنّها يمكن أن تكون ابنتك؟
– ابنتي؟
كلمات حنين كانت حادّة كالشفرة وقاسية كيوم جافّ وصادقة إلى حدّ الإرباك. ذهبتْ مباشرة نحو الجرح المفتوح. قالت ما كنت أحسّ به دون أن تكلّفَ نفسها مشقّة البحث عن السبل الأكثر تقبلاً.
– ربّما. أنا أحمل في الذاكرة أسماء، بعضها موجود وبعضها الآخر كان يمكن أن يوجد. كليمونس أو رحمة، التي أعرفها هي مجرّد احتمال من بين آلاف الاحتمالات اليقينيّة. هي على كلّ حال عزاء دافئ.
– تعرف، هناك بعض الصدف لا ترحم ضحيّتها وكنت خائفة

عليك منها. صدفة مثل هذه لا يمكن إلاّ أن تكون قاتلة. لا أدري لماذا، ليس لك وحدك ولكن للآخرين كذلك.
– تعرفين، شعرت أنّي أيقظت فيها شيئًا غامضًا عندما سألتها: هل تذكرين ملامح أمّك؟ لم تجبني للتوّ.
صفنت قليلاً ثمّ تمتمت بصوت لا يكاد يُسمع: أبي يقول إنّ بها الكثير من ملامحي ولكنّي لا أرى ذلك، فقد كانت أجمل منّي. اليوم كلّما حاولت أن أستعيد وجهها أشعر به بعيدًا جدًّا. حتّى عندما كانت تقبض على أصابعي لتثبّتها على الكمان لم تكن لي الفرصة لرؤية وجهها. كنت لا أرى إلاّ الكمان وأصابعها الناعمة وكانت لا ترى إلاّ ظهري. في تلك اللحظة نشعر بأنّ الذين نحبّهم سيبقون معنا العمر كلّه ولهذا لا ننتبه للتفاصيل الحياتيّة الصغيرة. الصدفة قاتلة. لم تكن مضطرة للخروج في ذلك الصباح للذهاب إلى المسرح ولكنها كانت في حاجة ماسّة للتذكّر، يقول والدي. في المعبر سقطت وهي تحاول قطع السكّة الحديديّة بالضبط عند عجلات الترام الحديديّة. قيل لي فيما بعد إنّها انتحرت، لكنّي أعرف أمّي لم يكن لديها ما تنتحر عليه كما يقول أبي. حادثة تافهة. أتساءل أحيانًا في لحظات الألم الحادّ: أين كان رأس السائق؟ وهل كان بإمكانه أن يفعل غير ما فعل؟ عندما علِم بالمأساة، سلّم نفسه للقضاء وبعدها انطفأ من المدينة نهائيًا. ما زلت إلى اليوم أنتظر عودته لكي أتمّ عزائي، فأنا أشعر دائمًا أنّه لا يعرف مدى الفداحة التي ارتكبها.
المقبرة التي دخلناها كانت مليئة بالورود. مقابرهم جميلة وتعطي للموت خصوصيّة. مقابرنا باردة لا تدفئها إلاّ الزيارات الدائمة. النّاس هنا قليلون جدًّا. عبرنا ممرّين صغيرين قبل أن نصل

إلى المكان المطلوب. لا أدري الشعور الذي اعتراني وأنا أضع باقة النرجس قريبة من قبرها الرخاميّ والكأس الفخاريّة التي حملتها معي وصنعتها بيديّ. قلت لكليمونس، هذه للذكرى فقط. لكي تشرب منها الطيور العطشانة. سألتني هل هي عادة، فأجبتها أنّنا عندما نحبّ إنسانًا نتمنّاه أن لا يصاب بالعطش. الماء عندنا يكاد يكون مقدّسًا في ذاكرتنا. في بلدان غارقة في الماء وأخرى متصحّرة تختلف القيم حتمًا. ثبتت الكأس جيّدًا بالقرب من رأس أمّها وانسحبنا.

– كنتَ تكذب على نفسك، قالت حنين، أنتَ كنتَ تضع كأس الماء عند رأس فتنة وليس عند رأس أمّ كليمونس. وكليمونس كانت في عينيك المتعبتين، البنت التي جرّتْها وراءها في بطنها عندما غادرتْك في تلك الليلة الغريبة التي قد تكون قد ماتت فيها على حافّة البحر.

– لا أدري يا حنين. أحيانًا لكي نستطيع أن ننسى علينا أن نفترض حقيقة ونقنع أنفسنا عبثًا بجدواها ونمضي نحو ما تبقّى من حياتنا وإلاّ سيأكلنا جحيم الأسئلة التي لا أجوبة لها. خارت ركبتاي وأنا أنحني على الصورة المنقوشة على الصفيحة الرخاميّة. تأمّلتُ الصورة جيّدًا. تفحّصتُها بحثًا عن أيّ تفصيل صغير.

– وهل وجدتَهُ؟

– لا أدري، ولكنّها في لحظة صفاء، بدت لي بعيدة جدًّا عن المهبولة. لم يكن هناك أيّ قاسم مشترك بينهما. قالت كليمونس بأنّ الصورة اختارها والدها لأمّها وهي في عزّ شبابها. سألتها إذا ما كانت تتذكّر هذا الوجه. هزّت رأسها بلا. لم أسأل بعدها لأنّي أنا نفسي كنت خائفًا من الصدفة القاتلة. هذه المرّة خرجتُ سالمًا.

لكن في الطريق سألتني أسئلة غريبة، دخلت منها إلى تفاصيلي الحياتيّة. بدت لي هشّة كقلب عاشقة. أجبتها عن كلّ شيء إلاّ الاسم الذي اقترحتْه عليَّ المهبولة في آخر ليلة: رحمة، كنت أنوي الاحتفاظ به لنفسي. لكنّها سبقتني إليه. سألتها كيف عرفَتْ، قالت إنّها التقت باكرًا بفلهام، مدير المؤتمر وحكى لها القصّة، وألحّ عليها أن تساعدني في مسعاي وفي معرفة المدينة وفكّ هذه الألغاز.

– إذن كليمونس كانت معك وهي تعرف حقيقتك.

– ولكنها كانت تعرف كذلك أنّ في الدنيا مليون كليمونس.

– ولكن بالنسبة لك لا توجد مليون كليمونس أمّها عازفة كمان وقادمة من بلد غريب ومن ثقافة أخرى.

– ولكن...

فجأة رأينا امرأة مستقيمة كقلم، ورقيقة كريشة. قامت حنين من مكانها بعد أن بترت حديثنا الذي كان قد بدأ يزداد قساوة وقدّمت لي السيّدة.

– نورما وفي يديها ملفّات الدنيا كالعادة. امرأة خدومة وعالية. من الذين ساعدوني يوم وطئت رجلاي هذه الأرض. صديقة حميمة لفلهام.

حيّتنا نورما ثمّ أشرت برأسها أن نتبعها لنندفن داخل حجرة صغيرة. قالت وهي تفتح الملفّات التي كانت بين يديها.

– لا أدري إذا كان ما وجدته مفيدًا ولكن هذا كلّ ما استطعته.

ثمّ فتحت ملفًّا كبيرًا مملوءًا بالأوراق التي سحبتها من الطابعة. وضعت نظّارتيها على عينيها ثمّ بدأت تتأمّل الكمّ الكبير من الأوراق التي كانت تملأ مكتبها وتحاول أن تفكّ كلّ طلاسمها.

- لم أجد شيئًا مهمًا، لكن هناك أشياء رأيت صلاحيّتها ربّما استطاعت أن تفتح أمامكما طريقًا للتوغل أكثر. في كلّ الأسماء التي عبرت بالقرب من عينيّ، لا توجد إلاّ امرأة جزائرية واحدة واسمها كنزة، تعاطت الفنّ في وقت مبكر. مسجّلة عندنا منذ خمسين سنة. جاءت إلينا بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية وقصّتها غريبة بعض الشيء وكذلك مدهشة.

- هذا التاريخ بعيد جدًّا. ولا علاقة له بفتنة.

قاطَعْتُ حنين بشكل عفويّ.

- ما عليهش، نعرف على الأقلّ قصّة كنزة.

- هذه المرأة عازفة بيانو. وصلت إلى هذه المدينة بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية، بالضبط في شتاء ١٩٤٦ . وصلت لدرجة أنْ أصبحت عضوة في الفرقة الكلاسيكيّة الملكيّة. كان الناس يأتون من بعيد لسماعها هي تحديدًا. قدرتها على تأدية السامفونيات كانت فوق كلّ تصوّر.

- كم كان عمرها عندما دخلت إلى مدينة أمستردام؟

- الوثيقة لا تقولها ولكن المؤكّد أنّها كانت شابّة. فقد جاءت بصحبة أمير هولّندي كان مقيمًا في باريس وكان مولعًا بها، يستمع لها كلّ مساء وهي تعزف في المقاهي العربيّة القديمة بباريس. الملوك أحيانًا يجنّون فيفكّرون بشكل صحيح.

ضحكت حنين.

- لم أفهم جيّدًا؟

- هذا الملك لو لم يكن مجنونًا لما تزوّج بهذه السهولة، وفي غياب العائلة المالكة. الضوابط العائليّة ليست أمرًا بسيطًا. عندما نكون أحرارًا يبدو لنا كلّ شيء سهلاً، لكنّ الأمير بفعله ذاك كان

يراهن على حصان أصيل وفي الوقت نفسه كان مهدّدًا بفقد اللّقب الأميري. عندما دخل بها العائلة، بسرعة اندمجت في الوسط، واحتُضِنَتْ بِحُبّ.

- هل عرفتِ من أيّة مدينة كانت؟

- الوثائق التي بين يديّ تقول من مدينة بجاية.

كنت أعرف أنّي كلّما سألتُ عنها ازددتُ بعدًا عن هذه المرأة التي سرقت راحتي. أحيانًا أتساءل ما الذي يقودني إلى هذا الخراب وأنا هنا للبحث عن قسط من الراحة والحبّ والنسيان. تذكّرت كلام فتنة وحنين. الإنسان عندما يبدأ يبحث في التفاصيل الصغيرة هذا يعني أنّ منفاه قد بدأ يحفر خدوشه العميقة في الروح.

- وماذا وقع لها؟

قلتُ وأنا أنتظر بقيّة القصّة التي رمتني نحو ذاكرة أخرى صاحبتها انطفأت. قالت نورما وهي تحاول أن تفلّي الوثيقة بعينيها الصغيرتين:

- الناس لا يعرفون عنها الكثير سوى أنّها انتحرت بأن رمت نفسها في البحر. في الميناء القديم. على حافة الميناء هناك تمثال صغير لها، مواجه للبحر صُنِع من أجود أنواع الرخام. شيّده على روحها زوجها الأمير الهولندي.

- ولكن لماذا انتحرت؟ كانت في عزّ كبير. شهرة وراحة.

- لا يوجد إلاّ تفصيل صغير ومع ذلك فهو يُبقي على الإبهام كما هو. خرجتْ من دار الأوبيرا القديمة بعد سهرة لم يحضرها زوجها. كانت حزينة. نفس البيانو يوجد اليوم في الأوبّرا الجديدة Musiektheater . يقال إنّه في إحدى جولاتها في المدينة تعرّفت على رجل غامض، حرّك شجونها وهزّ كلّ يقينها في نفسها. فقد

كان عابرًا قادمًا من نفس المدينة التي وُلدت فيها. صارت تلتقي به في نفس المقهى. تشرب معه وتسمع لحكاياته. لم يكن يريد منها شيئًا، سوى أن ترحل معه وهو ما كانت ترفضه. استمرّت على هذه الحالة مدّة قصيرة من الزمن. لم يكن نصّابًا ولا محتالاً. كان كلّ مساء يدفع بيرته ومشروبات كنزة التي كانت تفضّل الويسكي.

في يوم من الأيّام ملأها الحنين فتركت نفسها تتدفّق مثل الماء الصافي. عزفت في البار الذي كانت فيه. اندهش الحاضرون. بعضهم عرفها ولكنّه لم يصدّق. ثمّ سألته: هل عرفتَ لمن هذه القطعة؟ قال لا. قالت له أنتَ لا تعرف أرضك. هذه مقطوعة ألّفها رجل من طينتك كان في الكونسرفتوار الملكي: إيقربوشن. ثم ودّعته وصمّمت أن لا تعود له ثانية وأنّها ستحاول أن تنساه وتنسى المدينة التى شوّقها إليها. فقد حملت معها لحنها وذهبت مباشرة إلى الميناء القديم. وهناك أنهت أيّامها. الحبّ السريع عنيف وقاتل. كانت ممزّقة بين شيئين بين الوفاء لرجل أخرجها من الموت البطيء وحياة المقاهي العربيّة القاسية التي لا يُفرّق فيها بين الفنّانة والعاهرة، وبين رجل ضائع، تروبادور لا يحمل معه إلاّ زوّادته اليوميّة وحبّه الغجري وضعفه الإنسانيّ.

– أتساءل أحيانًا، ما الذي يقود امرأة تعيش أعظم حياة ممكنة أن تنهي أيّامها بهذه السهولة؟ المرأة تحبّ بصدق ولهذا فهي قادرة على الذهاب إلى أقصى درجات الجنون بلا تردّد. الرّجل حساسيّ، لا يستطيع أن يكون هو في أكثر اللّحظات عسرًا لأنّه لا يريد أن يخسر أبدًا. والمحبّ لا يربح شيئًا إلاّ اللّذّة الضائعة وألمًا لا يطاق. أنانيّة الرّجل نحو عالمه الصغير مقرفة.

– هذه المرأة، كنزة، كأنّها خرجت من كتاب. التروبادور عندما

علم بموتها، ذهب إلى زوجها وأخبره بحبّه لها ووفائها لزوجها وأنها عندما أدركت أنّه أيقظ فيها وطنًا وعندما بدأ هذا الوطن يصير أرضًا وحبًّا فضّلت أن تنتحر على أن تخون زوجها أو حبّها لأرضها. زاد الأمير الهولنديّ التصاقًا بها وفضّل أن يكون هو من يختار الفنّان الذي ينجز لها نحتًا رخاميًّا بدل البلديّة التي كانت تعتبرها ابنة المدينة الكبيرة. فقد كانت تحيي أكبر السهرات الكلاسيكيّة في القصر الملكيّ وفي الأوبرا وتعيش بعملها بدل أن تكون عالة على زوجها. البيانو الذي كانت تعزف عليه، وُضِع في الأوبرا الجديدة.

– ما أصغر هذه الدنيا وما أقساها.

كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي خرجت من فم حنين وهي تشكر نورما على مجهودها، بينما بقيتُ مبلّمًا كحجرة ميّتة.

عندما خرجنا من بناية الأرشيف الآجوريّة بأوراق كثيرة في أيدينا، طلبتُ من حنين أن تقودني إلى الميناء القديم حيث تنام كنزة منذ سنوات.

– لو لم تقل ذلك لكنت قد فعلت من تلقاء نفسي. رأيتُ التمثال، وأمرّ عليه يوميًا ولكنّي لم أتساءل يومًا أن يكون وراءه قصّة تراجيديّة من بقايا القصص القادمة من بعيد.

التمثال لم يكن كبيرًا ولكنّه كان شديد البياض، ناصعًا وحميميًّا وكلّما وسّخته الرّطوبة نظّفته أمواج الليل. نظرت إليه طويلاً. تمثال رخامي جميل لامرأة لباسها الكلاسيكيّ ضائع في الهواء تخترق بذراعيها الفضاء، باتجاه البحر كأنّها تصرخ لاسترداد شيء سُرِقَ منها ولكنّها لم تفقد عزّتها وقوّة نظرتها. كُتِب عند قدميها: على هذه الحافّة تنام عازفة البيانو كنزة، زوجة الأمير الهولندي الحزين.

تخيّلت حتّى الألوان التي كانت ترتديها. للمواعيد الاستثنائية نتزيّن بشكل استثنائيّ. المرأة وحدها تعرف سرّ هذه التفاصيل. فكّرت أن أسأل عن زوجها وأسمع فقط لنحيبه الدّاخليّ بفقدان صوت روحه ولكنّ الزّمن الأوّل كان قد انسحب. مع ذلك اعتبرت نفسي كثير الحظّ. سألمس البيانو الذي لامسته بأناملها الرقيقة. أكثر من هذا كلّه، فقد صادفت في مهالك المنفى الخالية صديقة مثلي أكلتها حالة عشق مستحيلة وهي في عزّها.

حبّ الوطن ليس كالوطنيّة. جنون ومجموعة من الأشياء الغامضة التي يصعب تفسيرها. كومة من الصدف التي يصعب تسييرها. الوطن أرض تُشمّ كلّ صباح وأشواق تتجدّد باستمرار في التباساتها. سخاء كلّ حساباته فاشلة لأنّها معاكسة دائمًا لكلّ التوقّعات. أمّا الوطنيّة فحساباتها دقيقة. يمكن أن تأكل نفسها بلا تردّد إذا اقتضت المصلحة.

عمّي غلام الله لم يكن مخطئًا في ألمه عن عبان رمضان، فقد قُتِل باسم الوطنيّة. حبّ الوطن شيء آخر. مساحة بلا حدود لأنّها بلا ثمن. إمّا أن تكون أو لا تكون. لا تُكتسب مثل الوطنيّة. تكاد تكون غريزة بلا ناظم لها. وهَمٌ جميل، نشتهيه ولا نطلب منه شيئًا إلاّ سعادة الألم. عندما تتراجع كلّ القيم، ينهض هو فينا كمرض لذيذ تصعب مقاومته.

– ما أعظم هذه السيّدة. أرضنا مثلنا مجنونة. تنجب أجمل الأشياء ثمّ تتخلّى عنها في منتصف الطريق للآخرين وكأنّها ربّت مع الزمن حاسّة مضادّة للحياة؟

– ربّما أحسن. هنا لها على الأقلّ حقّ الاعتراف بخيرها ونبلها ولو داخل برودة المنافي القاسية. مهما يكن، المنفى أرحم من

النسيان والقبر المعزول في أرضك. في بلادنا نركّع الأرض وعندما نموت لا يتذكّرنا إلاّ الذين تضيق بهم الدنيا في غيابنا. وقد نُقتَل كأيّ مجرم أو قاطع طريق وتُجلّل بعدها الصحف بالسّواد، وهذه المرّة كذلك لا يبكينا إلاّ الذين يحسّون كلّ مساء بفراغ المكان الذي خلّفناه. خلِّ يا ولدي البئر بغطاه. في بلادنا كلّما مددت يدك عميقًا، أحسست أنّك تلامس غليان بركة من الدم وتختصر حياتك.

سألتني حنين عمّا أنوي فعله بعد زيارة الأرشيف.

– شفت الدنيا بنت الكلب؟ والآن ماذا تقترح.

– لا شيء. أتعبتُكِ بما فيه الكفاية.

– بالعكس، معك اليوم اكتشفت خفايا كان يمكن أن أظلّ هنا زمنًا طويلاً بدون معرفتها. أنا رهن إشارتك حتّى الساعة الخامسة، بعدها لن تستطيع رؤيتي إلاّ غدًا، في الأمسية الشعريّة والتكريميّة. كنت أتمنّى على الأقلّ أن أتمكّن من حضور سهرة الموسيقى لهذه الليلة في الميوزيكتياتر ولكنّي أعتقد أنّي لن أتمكّن من ذلك رغم وجودي بنفس المكان، في صالة التدريبات. إحضرها إذا استطعتَ، فهي من أداء الفرقة السمفونيّة الملكيّة لأمستردام التي كانت فيها كنزة عضوة أساسيّة.

– هي نفس الفرقة التي تعمل معها كليمونس.

– نعم، ولكنّها اعتذرت لهذا المساء نظرًا للتدريبات على الأمسية الختاميّة.

– إذن راح نحاول نهمل في السوق الشعبيّة. قالت لي كليمونس إنّ اليوم يوم سوق ويمكنني أن أعثر على شيء ما يخصّ فتنة. من يدري، الصدف تصنع أقدارًا كثيرة. سمعت منذ زمن بعيد في

القرية من يقول إنّه رآها تشتغل في المقاهي والأسواق الشعبيّة، بعدما افترقت عن زوجها لأنّه كان يأكل عرقها. لكن معظم أحاديث القرية أحاديث مزايدة ونفخ. كلّ واحد يثبت للآخر أنّه يعرف أحسن منه.

– سأذهب معك وأترك لك فرصة إنهاء مشوار اليوم لوحدك. ليس أمامك إلاّ يوم الراحة هذا، بعدها يصعب عليك أن تقوم بشيء مفيد. غدًا ستكون محصورًا بين محاضرات متحف فان غوخ والأمسية الختاميّة بأوبرا الميوزيكثياتر. وبعد غد تسافر.

تركنا الميناء القديم واتّجهنا نحو السوق العربيّة. كانت مكتظّة بالنّاس وكأنّنا في أسواق فاس أو المدينة الجديدة بوهران أو جوطيّة مغنية. الروائح والألوان. هناك وسط هذه الفوضى ما يخفّف شطط المنافي. أوّل شيء قمت به، اشتريت باقة نرجس حمراء لوضعها على قبر فتنة مثلما فعلت صباحًا. واصلنا تدحرجنا بتصميم مسبق. سألنا كثيرًا عن المهبولة، عن فتنة، عن امرأة تعزف على آلة موسيقيّة، بدون جدوى، حتى بدونا كمجنونين في بلاد كلّ أناسها لا يتكلّمون نفس اللغة. حتى الأعمى الذي سألناه في سوق الخرداوات لم يعرنا أيّ انتباه ومضى إلى سبيله وكأنّه لم يحسّ أبدًا. لم يزعجني ذلك ولم يثنني عن عزمي. لم يكن هناك شيء قادر على تبرير إصراري إلاّ حبّي لفتنة الذي استيقظ كالبركان. بعد ساعات من التطواف والأسئلة غير المفضية إلى أيّ شيء مهمّ، وانقضاء جزء من النهار، عادت حنين إلى عملها بعد أن اعتذرت منّي طويلاً.

– وحياتك أشتاق أن أمضي اليوم بكامله بصحبة رجل مثلك ولكن الله غالب.

– لا يوجد أيّ إشكال. أنا الآن أمارس عبثيّة المجانين وأنت فوق كلّ هذا لست مجبرة على هذا الهبل.

– أنت تريد تهبلني بهذا الكلام. لو ما تسكتش راح نرمي كلش ونبقى معك وأحمّلك مسؤوليّة الفياسكو.

– طيّب. سأحاول، ربّما وجدت من يفيدني وسط هذه الفوضى التي لا نهاية ولا بداية لها.

– حبيبي، إذن سأتخلّى عنك مؤقّتًا. تحتاج بالفعل إلى بركة عليا لكي تجد جوابًا على أسئلتك المستعصية. ولكن الدنيا هكذا Qui ne tente rien n'obtient rien, c'est clair.

– ما عندي ما نخسر. فرصة قد لا تتكرّر أبدًا. الفرص أصلاً لا تتكرّر وإلاّ ليست فرصًا ولكنّها حالات اعتياديّة من التكرار والابتذال. سأبذل جهدي وإذا لم أجد أحدًا سأذهب لأيّة مقبرة وأضع باقة النرجس هذه على أوّل قبر أشمّ فيه رائحة تقرّبني من ضياعي.

عندما ودّعتها، نظرت إليّ مطوّلاً كمن يكتشف شيئًا غريبًا فجأة ثمّ قالت:

– تعرف يا ياسين، إصرارك يدهشني ويأسك يخبّلني. أحيانًا أقول لنفسي إذا لم يكن هذا الرجل الهامل يبحث عن نصّ ينحته أكثر ممّا يبحث عن امرأة من لحم ودم؟

– أنا نفسي لا أعرف ولكنّي أدرك مسبقًا أنّي لست بكلّ هذه الشطارة.

– طيّب. تعرف كيف تعود إلى النزل. إذا اعترضك أيّ إشكال تلفن لي في الأوبرا، صالة التدريبات. أنا موجودة حتّى ساعة متأخّرة من اللّيل. السكرتيرة تعرف الإنجليزيّة وقليلاً من الفرنسيّة.

– معي بطاقة النزل والعنوان وأرقام المتاحف والأوبرا. ثمّ من يضيع في سوق المدينة الجديدة هذه؟

عندما نظرت إلى وجهها، كانت الشمس قد خرجت فجأة من دكنة الغيم. رأيت صفاء لم أره أبدًا في وجه امرأة. نزعت من الباقة التي كنت أحتضنها نرجسة حمراء ودفنتها بين تفاصيل شعرها ثمّ انسحبت داخل فوضى الباعة وضجيجهم المتصاعد. لم أسمع إلاّ بقايا بحّتها الجميلة:

– ياسين؟ قلّلْ شويه من هبالك وفكّرْ فينا. ما تنساشْ روحَك.

-٢-

بعد تدحرج غير مجدٍ دخلت إلى مقهى لأرتاح قليلاً. كانت حركة النّاس قويّة. هذه السوق الشعبيّة يأتيها الناس يومين في الأسبوع. بدأت أتأمّل الوجوه التي كانت تدخل وتخرج علّني أعثر على من أعرفه أو على الأقلّ أشعر بانجذاب نحوه، ولكن عبثًا. فجأة ترنّح سكّير طويلاً بين الطاولات ليستقرّ به المقام بالقرب منّي. جلس. بدأ يهذي ويقول أيّ كلام. في البداية عكّر مزاجي لكن شيئًا فشيئًا تآلفت مع وجوده. بدأ حديثه بالهولنديّة وعندما لاحظ أنّي لم أستجب، غيّر حديثه باللغة العربيّة.

– باين على وجهك عربي. آه يا وحد الذيب؟ أنت تستنّى عشيقة هولنديّة مبلبلة كالكرة. بناتهم زوينات ولكن مش كما المغربيّات، مش مسرارات. أنتاعنا حاميات وسخونات، عندك واش تقبض وتعضّ. نساهم واعرات، يروحو مع اللي يسبق. صبر شي شوي، تكمّل مع صاحبها وتجيك. أفطن يا ذاك الرجل الزين

راها تلعب بك كما الدومينو. أنا كما أنت. كنت مع واحدة لما وجدت صاحبها خلّتني في نصّ الطريق. دارتني نعالة حتى وجدت الصباط. من ذاك اليوم ما شفتهاش. هزّ راسك للسماء آ مولاي وشوف الفوق. كلّ ما حنيت رأسك، نساء هذا الزمن ياكلوك.

لم يكن مؤذيًا ولكنّه كان بئيسًا ورائحة المشروبات الرديئة تخرج من فمه كلّما تفوّه بكلمة.

– وأنت سهل؟ أكيد كنت تشرب حتى كرّهتها في حياتها.

– صحيح. حتّى أنا خايب. خلّيك منّي. انْسَني وجاوبني، تستنّى شي واحد؟

– أنا لا أنتظر أحدًا.

– كلّ من يجي لهذا المقهى يستنّى شي. إلاّ إذا كنت تستنّى الفراغ؟

– تمامًا. أنت لم تخطئ. أنا لي موعد مع الفراغ.

– آه يا صاحبي لو كان تعرف واش هو الفراغ تندب وجهك ووجوه جيرانك؟ ولكنك جاي من بعيد وما تعرف والو. الفراغ هو البداية اللي نرجع لها ديما. آش سماك الله؟

– ياسين. تحبّ الصحّ الصحّ. أنا نستنّى واحدة من العائلة.

– دارت شي حماقة وهربت؟ جاي باش تقتلها. آواه يا صاحبي. هنا مش كما البلاد. تقتل وتمشي وتقول كنت ندافع على شرفي. الشرطة تباصيك. اخطيك يا ولد الناس.

– لا لا. عازفة على الكمنجة. قالوا لي كانت تجي لهذه السوق العربيّة.

– هنا ما كاين غي العميان اللي يضربوا على الكمان. أعرفهم واحدًا واحدًا. عمّرني ولا شفت معهم امرأة. إذا تحبّ، شرّبني

بيرة ونديك حتّى لعند باباهم، الحارة نعرفها كما نعرف جيبي. دير النيّة والصفاء.

كنت أظنّ أنّه كان يكذب ومع ذلك لم يكن لديّ ما أخسره. دفعت له ثمن البيرة لمجاراته قليلاً. عندما انتهى منها أخذني من يدي وأخرجني من المقهى.

– يا الله. نتوكّل على بركة الله.

– إلى أين؟

– اتبعني واسكت. أنا عارف آش نعمل.

أغمض عينيه، اتّكأ على عصاه وبدأنا نشقّ عمق السوق وهو يصيح كالأعمى:

– لله يا محسنين.

كان بعض الأجانب يعطونه قليلاً من النقود. التفت نحوي لِيُبَرّر حيرتي:

– لو كان ما انديرش هكذا نموت بالجوع.

وقبل أن ينهيها، وكنّا في زاوية ضيّقة وشبه مظلمة، نزلت علينا يدان بقبضة حديديّة. في البداية انتابتني حالة خوف ولكن سرعان ما أدركت أنّها مجرّد توقيفة تأديبيّة.

– دير روحك مهبول تشبع كسور. ياكْ قلت لك هذيك المرّة ما تجيش من جهتنا. قل لي آش جابك لهنا؟

عندما رأيت وجهه، عرفته من هيأته. كان الرجل الأعمى الذي صادفته أنا وحنين في المعبر الآخر الذي يقود نحو سوق الخردوات.

– وما تتفلاّش عليَّ.

– ما تاكلش روحك يا صاحبي. إحنا جايين لعندكم. وهذا

السيّد للي معايا ناوي على الخير.

– واش يحبّ عند العميان؟

– هذا السيّد يبحث على عازفة عربيّة كانت تجي لهذه السوق.

– واش يعطينا؟

– الرجل مولى دراهم. يدفع غالي.

ظللت أجوب المدينة بدون جدوى. ريّشني العميان والسكارى. لا أدري إذا كان السكّير يمثّل عليّ ولكنّه كان يدافع عنّي ويساعدني. لكن كلّ الذين أعطيناهم الدراهم لم يعودوا بالمعلومات المطلوبة كما وعدونا. كلّ ما فعلوه، مقابل القسم بأغلظ الإيمان الذين قطعوه على أنفسهم، هو أنّهم كانوا يبعثون صديقًا لهم، يريّشنا بدوره ثمّ يغيب ولا نرى وجهه مطلقًا. في لحظة من اللحظات انتابني صفاء ذهنيّ مفاجئ ربّما كان مصدره اليأس. فقد شعرت بحالة عبث كبيرة. دفعت للسكّير بيرة أخيرة هو نفسه لم يطلبها منّي كمقابل لخدماته وقلت له بأنّي سأترك كلّ شيء وأعود إلى نزلي أفضل من هذه اللعبة البئيسة وأنا لا أعرف أصلاً ما إذا كانت فتنة في هذه المدينة أم تكون قد اندثرت منذ أن دخلت البحر أو ربّما هي الآن مع الرّجل، صاحب المرسيديس السوداء التي رأيتها أو خُيّل لي أنّي رأيتها وهي تتوقّف بهدوء وسط الضباب الكثيف، عند باب الوليّ. بدا لي أنّه من الصواب أن أنسى هذه الرحلة وأعود إلى النزل على الأقلّ أشبع نومًا. كنت جادًّا ولم أكن أهدّد السكّير الذي شعر بنوع من الذنب.

– لا أريد أن أكلّفك مشقّة أخرى. لقد تعبتُ ولم أعد قادرًا على بذل أيِّ مجهود.

أحنى السكّير رأسه كمن يحفر الأرض بعينيه. لاحظت أنّه لم

يمسس البيرة التي قدّمها له النادل. ثمّ التفت نحوي فجأة كمن وجد سرّه المخبوء.

- أنت تعذّب في روحك مع العميان والشفّارين. ربّما، كما قلت، تكون هذه السيّدة قد ماتت، هذا إذا افترضنا أنّها وصلتْ إلى هذه الأرض ولم يأكلها البحر.

- ولهذا، من الأصوب أن أعود إلى النزل. تعبت كثيرًا وأنهكتك بدون فائدة.

فكّر السكّير قليلاً، ثمّ كمن اكتشف سرًّا جديدًا:

- شوفْ يا السي... واش سمّاك الله؟

- ياسين.

- شوفْ يا السي ياسين، حتّى ما توضعنيش مع العميان، ما تخسر والو وأنت راجع، على يمينك، قدّام الماك دونالد، هناك بيت مغربيّ صغير. بابه أخضر. دقّ عليه بهدوء، سيخرج لك شيخ طاعن في السنّ، أو امرأة. قل لها حبّيت نشوف سيد الشيخ. هو رجل طمّاع ولكنّه طيّب. يرأس جمعيّة خيريّة سمّاها سكّان الناحية: جمعيّة المودّرين والذين لا أرض لهم Association des perdus et des sans terre. الناس هنا يسمّونها بسخرية La peste (الطاعون) وهي في الأصل L'A.P.E.S.T، الحروف الأولى لاسم المشرف على دفن الموتى الذين لا يحملون هويّة في مقبرة البحر المنسيّ. الرّجل على كلّ عيوبه، خدوم جدًّا خصوصًا مع الذين لهم وجاهة. عندما تلتقي به لأوّل وهلة ضع في حجره ورقة ثقيلة، سيرفضها في البداية قل له للبركة فقط، أنا متأكّد أنّه سيفيدك.

- وإذا...

- أجرك على الله. لا. لا. هو لا يشبه العميان.

خرجت وفي رأسي أن لا ألتفت ورائي بعد هذه الرحلة التي لا تشبه في شيء زيارة مقرّ الأرشيف أو المقبرة مع كليمونس. كانت العلاقة مع هذا المحيط الضائع صعبة وعنيفة. من حظّي أنّي لم أعثر على سيّارة أجرة بجانب السوق لأنّي لو وجدتها، كنت نزلت مباشرة إلى نزل الكنال هاوس.

عندما رفعت رأسي رأيت شارة الماك دونالد والبيت المغربيّ الصغير ببابه الأخضر. وبعد تردّد قلت في خاطري ماذا سأخسر بعد كلّ الذي حصل؟ وسرت على هدي كلمات السكّير. في البداية لم يطمئنّ الشيخ لي. ظنّني من الشرطة ولكنّي عندما حدّثته بالعربيّة عن قصّتي وأضفت له الورقة الثقيلة التي رفضها ضاغطًا على يدي لإبقاء النقود في مكانها، امتلأت عيناه بالثقة. كرّرت عليه كلمات السكّير: للبركة يا الشيخ. سحبها بسرعة منّي وقادني من يدي إلى الزاوية الضيّقة من البيت حيث ينام كرّاس قديم مليء بالأسماء والألقاب، كان يضعه مفتوحًا على المتكأ الخشبيّ مثلما يوضع القرآن. وضع النظّارتين على عينيه ثم ترك بصره ينزلق بين الخطوط المكدّسة، منذ عشرين سنة.

- من عشرين سنة واطلع.

- من عشرين سنة واطلع.

كرّرت وراءه بشكل ببّغائيّ.

شربت شايًا من يد المرأة التي تسهر على خدمة سيّد الشيخ وفي الكأس الرابعة توقّف قليلاً ونظر إليّ مليًّا كمن يريد أن يكتشف سرًّا ظلّ عالقًا في حلقه:

- أنت على يقين أنّك تبحث عن امرأة وليس عن رجل.

– طبعًا يا سيّد الشيخ. هي من العائلة، خرجت منذ عشرين سنة ولم تعد. قيل لي إنّها كانت عازفة في السوق العربيّة لهذه المدينة.

– ومدفونة في مقبرة البحر المنسيّ؟

– لم أفهم يا سيّدي؟

– قصدي المقبرة التابعة للجمعيّة. قطعة أرض صغيرة اشترتها الجمعيّة لهذا الغرض، ليس بعيدًا عن غابة المدينة، على حافّة مصنع قديم للآجور، هُدِم في الحرب العالميّة الثانية بعدما حوّله المقاومون إلى مصنع للذخيرة. من يومها لم يعد ترميمه. ندفن فيها الذين لا قبور لهم. الناس هم الذين سمّوها مقبرة البحر المنسيّ لأنّها محاذية لخليج متوحّش، لولا الغابة لمسحتها أمواج البحر.

– في الحقيقة لا أعرف. هي مقطوعة من شجرة. عندما خرجتْ من البلاد، منذ عشرين سنة، في ذلك الفجر كانت قد خسرت جميع أفراد عائلتها، الأخ والأب والأمّ. من يدري؟ ربّما تكون اليوم قد ماتت.

في الحقيقة لم أكن أكذب. كلّها احتمالات، كنت أتمنّى أن لا تكون صحيحة. سمعت الكثير عنها في القرية، أنّها تشتغل في المقاهي بعدما انفصلت عن زوجها الذي استغلّها كثيرًا وتعيش بعزفها مع صغيرها، آخرون من الذين ادّعوا أنّهم عرفوا من عرفها، يصرّحون بل ويقسمون أنّها تعيش في قصر واسع ومذهّب ولا تخالط إلاّ كبار البلاد. وبعض الذين حلموا بها في أسرّتهم يؤكّدون أنّهم رأوها واقفة على باب من أبواب الحيّ الأحمر Red light district الذي كلّما حاولنا تفاديه وجدنا أنفسنا في أعماقه العطرة والملوّنة. والذين يثقون في كلام الإمام مثل أمّي، لا يدخلهم الشكّ مطلقًا في كونها غرقت وهي تحاول أن تعبر البحر.

فالفقيه يقسم بأنّه غسّلها ودفنها بيديه اللتين لا تمسسهما النار.

– شوف يا السي ياسين واش من الأسماء المبهمة والقصص التي دوّنتها منذ أن تأسّست جمعيّة الموذّرين والذين لا أرض لهم L'A.P.E.S.T. وراح يقصّ عليَّ قصصًا لم تكن لها علاقة بالعازفة ولكن بالعميان الذين ماتوا بعيدين عن هذه الأرض. القاسم المشترك بينهم وبينها هو أنّهم كلّهم كانوا عازفي كمان. في البداية لم أدرك جدوى ذلك ولكن بعد لحظات عرفت عندما أكّد لي أنّه من بين العميان كانت هناك امرأة لم يُعرف جنسها إلاّ عندما ماتت وغسل هو جسدها قبل تكفينها. عرف بسرعة عندما رآها كتلة باردة عند مدخل السوق أنّها هي الأعمى الذي تعوّد عليه في تلك الزاوية. فقد غالطت النّاس مدّة طويلة. عندما سأل عنها الذين عرفوها قالوا إنّها كانت من عائلة كبيرة ووجدت نفسها في هذه الفجوة القاسية من المدينة لكن لم يكن هناك واحد يستطيع أن يذكر مكان سكنها ولهذا دُفنت في المقبرة التي تقع على حافة البحر المنسيّ.

– يقول أحد الأثرياء، الذي دفع ثمن تكاليف الدفن أنّ اسمها: تينا الوهرانيّة. لهذا قلت ربّما يكون أصلها من يهود وهران. والله أعلم.

رنّ الاسم في ذاكرتي بقوّة المطرقة الثقيلة، فأوقفته لأتحقّق أكثر في الاسم:

– يا سيد الشيخ شوف مليح، تينا أم فتنة، الاسمان متقاربان. ربّما الخطّ غير واضح في الكرّاسة عندك؟

– الله يبعدنا عن الفتنة يا ابني وعن كلّ شبهة أو ضلالة. اسمها المقيد عندي [ت.. ي.. نـ... ا]. من المستحيل أن أخطئ في اسم

الأموات. أمانة على الظهر يا ولدي. هذه السيّدة يقال إنّها جاءت مع زوجها من بلاد المغرب. اشتغل بها في المقاهي مدّة طويلة وعندما باع المقهى، تركها بطفل كانت تجرجره أينما حلّت. أيّام السوق العربيّة تأتي إلى هنا، بلباس رجاليّ، في إحدى زوايا السوق، وتعزف مع العميان. في الأيّام العاديّة، أي في غير أيّام السوق، تعمل في أحد مقاهي المهاجرين. كلّ هذه المعلومات عرفناها من بعد. كنّا نظنّها رجلاً لولا تغسيلها الذي كشف لنا السرّ. و يمكن أن يكون كلام الناس كذبًا وبهتانات مركّبة.

– هل تعرف اسم أيّ مقهى من هذه المقاهي التي حدّثك عنها هؤلاء النّاس؟

– النّاس هنا يقولون كلامًا عامًّا درءًا لكلّ مسؤوليّة، ولا أحد يدقّق في التفاصيل. الشيء الوحيد المؤكد أنّها ماتت. وأنّها لم تكن رجلاً ولكنّها كانت امرأة وأنّها يوم ماتت رفض يهود المنطقة دفنها في مقبرتهم لأنّهم لا يعرفون أصلها ورفضها المسلمون لأنّها يهوديّة ورفضها المسيحيّون لأنّ لا أحد يملك حقّ اتخاذ القرار. بقيت شهرًا كاملاً في برّادات المدينة قبل أن تستلمها جمعيّة المودرين والذين لا أرض لهم واستطاعت أن تجد لها مكانًا بتدخّل من أحد أثرياء المدينة الذي أخذ الطفل، الله وحده يعلم ماذا فعل به، قال إنّه سيتبنّاه في سبيل الله. أنا قلت في خاطري لا بدّ أن تكون لديه رابطة بالمرأة وإلاّ لما كلّف نفسه كلّ تلك المعاناة. فقد حضر كلّ مراسم الدفن وتحمّل مشاقها المادّيّة. سألته فلم يجبني، وعندما ألححت قال دلأّل خير.

شيء ظلّ مترسّبًا في الحلق. هل يمكن لفتنة أن تموت بهذه الطريقة الباردة والغامضة؟

أحسّ سيد الشيخ بحيرتي.

– تعرف يا ابني نقوم بذلك حتّى لا تأكلهم الكلاب الضالّة. هذه المقبرة هي العنوان الوحيد للعابرين الذين نسوا أنّ للأرض هويّة، بدونها لن يلتفت نحوهم أحد.

– كيف يمكن الذهاب إلى هذه المقبرة؟

– الوصول إليها صعب. يحتاج إلى عارف يخاف الله وسيّارة. سأرافقك. منذ مدّة لم أذهب لها. حتّى الآن والحمد لله لم يمت منسيّ جديد. هذه حالات خاصّة ولهذا المقبرة صغيرة.

– وهل هناك شخص يسهر على المقبرة؟

– إنسان مسكين مقطوع من شجرة، يسكن في المصنع القديم ويعيش على مساعدات الزوّار النادرين الذين حينما تسألهم عن قرابتهم بالميت يقولون إنّهم لا يعرفونه ويقومون بذلك لوجه الله. أنا أشكّ أنّ المسألة فيها وجه الله فقط. هم يقولون، ونحن لا نصرُّ على معرفة الحقيقة.

خرجنا بعد أن أوصى سيّد الشيخ المرأة التي معه بأن تحضّر العشاء. ولكنّي أكّدت له بأنّي مرتبط بموعد، فلم يصرّ. سيّارته قديمة ولكنّها كانت قادرة على تحمّل كدمات الطريق المملوء بالحفر والانحدارات. في الطريق اشتريت باقة نرجس ما تزال مندّاة كخدّي عاشقة.

عندما وصلنا لم يكن الرّجل بالمقبرة. طمأنني سيّد الشيخ. قال إنّه يعرف مكانه. وقفنا بجانب مصنع الآجور وصاح ثلاث مرّات: عبد الباقي. عبد الباقي. عبد الباقي. فخرج ثلاثة أطفال كالأرانب وكأنّهم يخرجون من تحت الأرض.

– نعم ... آ سيد الشيخ؟

- عيطوا لبّاكم. قولوا له سيد الشيخ جا يشوفك.

ثم التفتَ صوب الغابة.

- المقبرة هناك. بالقرب من البحر المنسيّ، خليج مهمل لا تستره إلاّ هذه الغابة الكثّة. كانت صغيرة وأصبحت اليوم واسعة. المنفى يا ابني يبدأ بنكتة أو برغبة ويتحوّل إلى حقيقة دامية. أنت هنا من زمان؟

- لا منذ يومين.

- هل المرحومة من الأهل.

- كبرنا مع بعض. أنا في الحقيقة يا سيد الشيخ قطعتُ على نفسي وعدًا، منذ عشرين سنة، أنّي إذا مررت على هذه الأرض أن أزورها. لم أكن أعرف أنّ الوعود مثل الدعاوي، تلحق أصحابها في آخر العمر. فتنة كانت تكبرني بعشر سنوات وهي التي علّمتني كلّ الأشياء الجميلة التي أتباهى اليوم بها.

- إقامتك طائلة بهولندا؟

- يومان. وبعدها أذهب إلى أمريكا، إلى لوس أنجلس.

- تطوّل هناك؟

- بالضبط لا أعرف. ولكن سأبقى على الأقلّ ثلاث سنوات.

- هكذا المنفى. يبدأ بيوم وينتهي بالموت، بعيدًا عن الأرض الأولى. إذا جابتك الأقدار لهذه التربة مرّة أخرى، زرني. ما تستغربش. عساس المقبرة مثلاً، يتمنّى الموت ولا يعود إلى أرضه في تازة. لو كان تمدّ له مال قارون، لن يرجع. فقد صمّم أن يموت هنا، على أرض ليست له ولكنّها آوته. الأطفال الذين رأيتهم كلّهم مولودون هنا. هم عندهم أوراق الإقامة وهو يعيش بدون أيّة وثيقة. دخل إلى هذه الأرض بصعوبة وكاد أن يموت. أُنقذ مرّتين من

غرق محتوم على متن زورق صيّادين في الحدود الإسبانيّة وفي المحاولة الأخيرة مرّ عبر سفينة تجاريّة. أصحابه الذين كانوا معه ماتوا وهو عمره طويل كالقطّ...

- مساء الخير سيد الشيخ.

قالها الرجل الذي قبّل رأس سيد الشيخ ومدّ يده نحوي بدون أن يرفع عينيه فيَّ. كان منكسر الظهر. يشبه في الكثير من صفاته الجسديّة كازيمودو.

- عبد الباقي، هذا السي ياسين وليد ناس طيبين ووليد خيمة كبيرة.

وحكى له القصّة بكلّ تفاصيلها ونحن متّجهون نحو المقبرة.

بدأ عبد الباقي الذي داهمته الشيخوخة مبكرًا، يجول بنا القبور المحفورة بشكل فوضويّ، علتها الأعشاب الضارّة التي تكاد تغطّيها وتمسحها. وكنّا كلّما وصلنا إلى قبر، يمدّ يديه نحو الحشائش العملاقة، يحنيها قليلاً ثمّ يقصّ علينا قصّة الميت كما رويت له. ذاكرته كانت متّقدة رغم التجاعيد التي كانت تنزل بعنف على وجهه: هذا قبر شابّ جاء من البلاد الفقيرة ليجمع ثروة ويعود إلى بلاده لإنجاز مشروع، عندما مات لم يجد حتّى من يطالب بجثّته ونقله إلى أرضه. الدنيا بنت الكلب. ينام هنا وبجانبه حلمه الذي لم ير النور.

- وهذا قبر طالب كان يشتغل بمقهى أوصى أنّه عند موته يفضّل أن يدفن في مقبرة البحر المنسيّ على أن يعاد إلى أرضه، كان مقطوعًا من شجرة يابسة. ناقش الدكتوراه، وفي طريق العودة إلى بيته، وقعت له وعكة أودت بحياته، فجيء به إلينا. بنى حياته العلميّة على مشقّة التعب والعمل في ماك دونالد وفي السوق

العربيّة.

القبور التي اندثرت معالمها بفعل الإهمال، كثيرة. فجأة توقّف عبد الباقي لحظة يتذكّر. ثم أزال النباتات، فأطلّت شاهدة قديمة. سألته بحشرجة. تلعثمت. فقد نشف ريقي وفقدت صوتي فجأة.

– هل هذا... قبر تي..نا؟

– لا. لا تندهش. نحن تعوّدنا على هذه القبور. نشقّ الأمكنة مثلما نشقّ حقلاً. نحرثها بأقدامنا مثل الذي يحرث أرضًا تعوَّد عليها. حكمتنا اليوميّة: الحيّ يتعذّب واللّي مات، ريّح. في يوم ما سيأكلها البحر، كلّ سنة يزحف قليلاً وسط هذا الخليج الصغير، لولا الغابة لكانت المقبرة هي بدورها قد ماتت. المقابر مثل البشر، هي كذلك تموت بفعل النسيان. لا تهتم. كثرت القبور وامّحت الأسماء من الذاكرة ولكن بعضها أتذكّره.

ثمّ فجأة تسمّر في مكانه. صمت طويلاً قبل أن يواصل:

– خسارة. هذا قبر فنّان عراقيّ مات في العزلة التامّة. هرب من العراق ودخل عن طريق لجنة حقوق الإنسان ليجد نفسه ضائعًا على هذه الأرض. أحبَّ امرأة سنّيّة من أرضه ولكن أهلها أفسدوا هذا الحبّ. أسكن في صدره سكّينة هتكت الحجاب والأغشية والقلب. هكذا يُحكى. كما ترى المنفى لا يقتل الأحقاد والغيرات ولكنّه ينوّمها وعندما تستيقظ تكون قد ازدادت حقدًا وعنفًا. وهذا، بجانبه، شابّ جزائريّ. كان شرطيّ مرور في بلده. وحيد أمّه وهي التي شجّعته على الخروج. ماتت بعده بسنة. نجا من محاولتي اغتيال، دخل عن طريق إسبانيا، مات قبل ثلاث سنوات هنا بنزيف دماغيّ. وُجِد مرميًّا على حافّة أحد الشوارع. عندما أبلغنا السفارة، جاءنا الردّ بسرعة: هذا الرّجل غير مقيّد في سجلاّت

السفارة، وتُرك لوحده حتّى وهو ميت. ثمّ مال نحو قبر كان يبدو أصغر من غيره. توجد على واجهته علامة غريبة: أرجو أن لا يُكتبَ اسمي على قبري ولا اسم أرضي...

– الظاهر هذا قبر طفل، ولكن ما سرّ هذه العلامة؟

– لا. مظاهر القبور كثيرًا ما تكون خادعة، مثل مظاهر الرجال. لا أدري ماذا يقع للجزائريين. حالة هستريا. من يموت بالنصل يموت هناك ومن ينجو ينتحر هنا بشكل فجائعيّ. هذا كذلك قبر فنّان جزائريّ. يبدو أنّه مقطوع من شجرة. لا أدري إذا كنّا دفنا إنسانًا أم رمادًا. الأرض لن تجد معه ما تأكله سوى الرماد والجسد المتفحّم. غادر العاصمة في نهايات ١٩٩٤ وبقي أربع سنوات في الشطط الباريسيّ بوثائق إقامة مؤقّتة. كلّ ثلاثة أشهر كان عليه أن يتقدّم للشرطة لتجديد الإقامة بصعوبات وإهانات كبيرة. هرب من الذلّ وجاء إلى هذا المكان لكنّه وجد حالاً أسوأ من الأوّل. وذات صباح، لبس أجمل ألبسته كعاشق يهيّئ نفسه لموعد استثنائيّ. مرّ على محطّة المحروقات فاشترى خمسة لترات من البنزين ثم جلس في الحديقة العامّة يتأمّل المارّة والطيور التي كانت بالقرب منه تنقر الخبز الذي كان يفتّته ويبعثره أمامها طوال النهار ويستمع إلى أغاني مسجّله الصغير. وعندما بدأت الشمس تنكسر نحو المغيب، نزع كلّ وثائقه من جيبه ووضعها جانبًا، شهادة إقامة مؤقّتة، بعض النقود وكارت تليفونيّة ووثيقة التطبيب المجّاني التي منحتها له البلديّة. خطّط على ورقة كلماته الأخيرة: أرجو أن لا يُكتبَ اسمي على قبري ولا اسم أرضي. ثمّ تقدّم خطوتين وهو يحمل إناء البنزين وبكلّ هدوء كبّه على جسده كهنديّ يستحمّ أمام الملأ ثم أشعل النار في نفسه. الذين كانوا بالقرب من المشهد قالوا

إنّه بسرعة احترق كالحطبة اليابسة ولم تمهله النار الحارقة حتّى فرصة إخراج صرخة واحدة. عندما أرادوا جمعه، تفتّت في أيديهم. ولهذا قبره صغير مثلما ترى. هؤلاء متواضعون حتّى في موتهم، لا يأخذون من الأرض إلاّ الشبر الذي يسترهم. مصائر الناس البسطاء تكاد تكون متشابهة في البؤس. يهربون من موت قاس ليسقطوا فيما هو أكثر قساوة.

– ما اسمه؟

– سمعت الذين كانوا هنا ينادونه عبد الرحمن.

تمتم سيد الشيخ الذي كان غائبًا عن المشهد:

– هذا على الأقلّ ترك وراءه علامة، أوراقه بكلّ تأكيد عند رجال الأمن لأنّه لم يحرقها معه. كنت متألّمًا لكلّ هؤلاء المساكين الذين ماتوا في النسيان ولكن من منّا يضمن موته؟ أمام الموت نصير أنانيين. كانت عيناي تترقّبان قبر تينا الوهرانيّة الذي بدا لي أنّ الوصول إليه قد استغرق وقتًا غير محدود. في داخلي كنت مهيّأً لرؤية شيء أنا نفسي لا أعرف ملامحه مع أنّي كنت أحسّ به بقوّة. إحساس آخر لا يشبه ما انتابني وأنا أضع النرجس على قبر أمّ كليمونس. شيء غامض مثل هؤلاء الناس الذين لم يكن معظمهم، قبل شهور من نزولهم على هذه الأرض، يدري أنّ نهايتهم ستكون بهذا الحجم من الوحدة والعزلة والفجاعة.

عندما وصل بالقرب من قبر ملتصق بالسياج، على الحافّة الفاصلة بين الداخل والخارج. توقّف قليلاً وبدأ يمسح بعينيه بقيّة المكان.

– أعتقد هذا هو.

ثمّ بدأ يبعد الحشائش العالية التي غطّت القبر بكامله كمن

يبحث عن أعشاش الحجل.

– تعرفون، منذ أن دُفِنتْ ههنا لم يسأل عنها أحد. المكان بارد ويحتاج إلى من يسأل بشكل دائم ومن يهتمّ بالقبر. أنا لا أنقّي إلاّ القبور التي أؤمر بتنقيتها.

فهمت بسرعة قصده. وفهمني من خزرتي وخزرة سيد الشيخ. وضعت في كفّه بركة القبر. هو يعيش بهذه الصدقات. جاء بمنجل كان موضوعًا على أحد القبور وبدلو من الماء وقطعة كتّان وحصد كلّ الحشائش العالية حتى بدا القبر واضحًا. وضع قليلاً من الماء على الرخامة ثم بدأ في تنظيفها من سواد الرّطوبة الذي لحق بها. حتّى برز الاسم كاملاً وبقايا صورة وجه امّحت بعض تفاصيله ولم تبق إلاّ العينان. عينان قاسيتان مثل هذه القبور الباردة، لم أجد فيهما ما يوحي أنّها فتنة ولا ما ينفيه. بريقهما قويّ. قرأت: باسم الله الرحمن الرحيم. هنا تنام السيّدة تينا الوهرانيّة. ماتت وعمرها قرابة الخمسين سنة. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

تساءلت موجّهًا كلامي إلى سيد الشيخ:

– لم أفهم يا سيد الشيخ، يهوديّة وعلى قبرها ما يوحي أنّها مسلمة؟

– أنا لم أقل هذا. قلتُ ما قاله الناس عنها. الرخامة جاء بها الرّجل الثريّ الذي استلم الولد. قد يكون قريبًا لها واستحى أن يعرَف باسمه. قد يكون والد الصبيّ، كان ينتظر موتها ليستلم ابنه. من يدري؟ الله وحده هو العالم. في مثل هذه الحالات لا نسأل كثيرًا حتى لا نُحرج الناس.

واصل عبد الباقي كلام سيّدنا الشيخ.

– هذا الرجل عاد مرّة واحدة منذ سنوات عديدة وطلب منّي أن

أهتمّ بالقبر ومن يومها لم أره. بكى قليلاً وعندما سألته هل هي قريبته لم يردّ وعندما أصررت قال: دلاّل خير. ثمّ أضاف، قرأتُ تمتمته. هذه المهنة علّمتنا كيف نقرأ كلام الناس الداخليّ. الإنسان أمام المأساة لا يملك اللغة العاديّة: لم أستطع تنفيذ الوصيّة ولكن على الأقلّ جزءًا منها. لا أدري إذا كان يتحدّث عن وصيّة المرأة أم عن وصيّته هو.

– كان لوحده؟

– المرأة التي كانت تصحبه بقيت في السيّارة. أولادي هم الذين رأوها. أنا كنت داخل المقبرة برفقة الرجل.

تمنّيت أن يكون القبر للمهبولة لأشفى من غيابها. أبكي عليها ثمّ أحاول أن أنساها دفعة واحدة. الآن أنا عاجز حتّى عن البكاء. هل هذا القبر المنسيّ هو قبر المرأة العالية التي سلّمتني لحافّة البحر وأذاقتني وحشة المكان وخوف المنفى؟ يبدو أنّ قدرنا قد خُتم بالشمع الأحمر: أن نبحث عن الموت ونحن نُقْدِم على الحياة.

لا نشفى من حبّ امرأة إلاّ لنصاب بداء يشبهه. يبدو أنّ الموت والمنفى متلازمان.

مرّة أخرى أخذ الحارس منجله وفأسه ونقّى أطرافًا محاذية لقبر تينا الوهرانيّة، لتبدو فجأة بقعة محفورة قليلاً ومهيّأة لاستقبال ميت آخر. قرأ الحيرة في عينيّ وتنبّه لتساؤلاتي الدفينة:

– ما تشغلش بالك. أنا هكذا، كلّ ما يكون عندي وقت أجهّز مساحة لزائر جديد. سيأتي صاحب الحظّ. المنسيّون في هذه الدنيا كثيرون. هناك العديد من الحفر التي رُدمت بفعل الأمطار ولكن إعادة حفرها لا يكلّفني الكثير. كلّما سمعت بقصّة شابّ دخل إلى هذه الأرض بالوسائل المضنية التي يدخلون بها، رأيته مسجّى

هنا، في هذا المكان البارد الذي لا يحمل اسمًا.

في لحظة من اللّحظات فكّرت تفكيرًا أسود. رأيت نفسي بجانب تينا الوهرانيّة، ممدودًا، جسدًا باردًا بدون روح. شعرت بانقباض كبير وبقلبي يتقلّص مثل المطّاط المحروق. وضعت شفتيّ اليابستين على الرخامة الباردة وزرعتُ باقة النرجس على الضريح بكامله وخرجت بسرعة من المقبرة. عندما التفتّ ورائي، بدا لي المكان موحشًا وبدأت أبحث بعينيّ المتعبتين عن مكاني بين القبور المجهولة.

لا أدري كيف عدتُ إلى الكنال هاوس، ولكنّي عدت.

كانت ملامح اللّيل قد بدأت تنزل على المدينة. اللّيل في هذه المدن الباردة يأتي مبكرًا. سألتني راشيل، مضيفة النزل الأمريكيّة إذا ما كنت أريد أن أحضر السهرة فالحافلة المُعدّة لضيوف المؤتمر ستذهب بعد ربع ساعة. صعدت بسرعة إلى الغرفة. وجدت على السّرير الدعوة لسهرة الميوزيكثياتر، غسلت وجهي وغيّرت لباسي ثمّ نزلت بسرعة. كان قلبي قد بدأ يضيق. تذكّرت الموت بالسكتة القلبيّة التي تتهدّدني. قلت في خاطري: طز، ماذا تساوي حياتي أمام ناس مقبرة البحر المنسيّ؟

وصلت بالضبط مع بداية إطفاء الأنوار. وأنا أقطع ممرّات الكراسي رأيت فيلهام، مدير المؤتمر، وهو يلوّح بيده نحوي، محيّيًا إيّاي فرددت على إشارته ثمّ سرت نحو الزاوية الأكثر ظلامًا، تسبقني إحدى المنظّمات.

كانت القاعة غاصّة بالحاضرين.

عندما بدأ العزف، عرفت من أنين الكمان أن الكونسرتو كان لموزارت. فتركتُني أنحدر نحو أعمق نقطة فيّ. نقطة الصفاء التي

تندثر فيها كلّ التفاصيل ولا يبقى فيها إلاّ ما هو جوهريّ وناصع البياض مثل النور، أسترجع الجنون الذي كنت أعيشه وموعدي الغريب مع مقابر المدينة. لست أدري ما الذي ذكّرني بكلام فتنة قبل أن تدخل البحر: نحن هكذا، لا نترك وطنًا إلاّ لنتزوّج قبرًا في المنفى.

الفصل السابع

حُقُولُ فَانْ غُوخْ اليَتِيمَة

-١-

قضيت الفترة الصباحيّة مصطولاً. أُصدّق ولا أصدّق الغرابة التي كنت أعيشها. حتّى القهوة الصباحيّة التي شربتها في الكنال هاوس مع أنطونيو شواريس لم تكن كافية لإخراجي من دهشتي وشططي. فقد ألحَّ عليَّ بطيبته المعهودة، على ضرورة المشاركة في ملتقى لشبونة للحديث عن النحت الإفريقيّ وطبيعة المادّة التي تدخل في تكوينه. فقد كان مسحورًا بالتربة التي تُصنع منها المنحوتات المختلفة.

– الغريب في الناس الذين يشتغلون على النحت، أنّ الكثير منهم ينسى بسرعة مادّته الأصليّة التي جاء منها ويبحث عمّا ليس منه وله. نستطيع أن نظلّ كبارًا بالمادّة الطبيعيّة بل لا يمكن أن نكون كبارًا في غياب هذه المادّة. يعجبني عنوان ندوة اليوم: الفنّ الحديث ومادّته. والأجمل من كلّ هذا، التفكير في عقد هذه الندوة في متحف فان غوخ الذي قتله التفتيش عن مادّته الفنيّة.

الرّجل كان يشمّ الألوان وأينما شعر بها ذهب نحوها. فان غوخ كان فنانًا كبيرًا. هذا هو القدر الطبيعيّ للفنّان. عندما يغمس يده في ألوان الشمس والتربة وفي الطّين والرمل ويتلمّس قصب الوديان، يكون قد ساهم في صنع قدر استثنائيّ للأشياء.

ضحكات فريديريكو، البرازيليّ المهبول الذي ظلّ مأخوذًا بالمرأة ذات الرأس المقطوع مخلّطًا في ملاحظاته بين الجدّ والهزل، لم تزدني إلاّ انكماشًا في قوقعتي.

– العالم عندما يخلو من السخرية يشيخ بسرعة ويختنق. أجدادنا الهنود الأوائل، كانوا دائمًا يجدون فسحة للضحك حتى في أكثر اللحظات قساوة.

يغرق في كأس القهوة، يتأمّل قليلاً كلام أنطونيو سواريش، يكرع رشفات متتالية ثم يواصل:

– في الكثير من أنحاء العالم نُرمى بالتخلّف. أنا بالفعل سعيد بهذا التخلّف الذي يوفّر لي فرصة ورؤية من أحبّ بالمنطق الأقلّ نفعًا والأكثر إنسانيّة. من يتجرّأ اليوم ويقول إنّ الطريق الذي سلكته الإنسانيّة هو الطريق الأسلم؟. لا يوجد خارج المنظومات العامّة المهيمنة. الفنّان اليوم ينتمي إلى منظومات لا يعرفها. يعتنقها مثل الأديان عن طريق الأفراد أو عن وسائل الاتّصال الحديثة. الفنّان يرمّم الروح. ويرقع بقوّة ما تحدثه الحداثة في جسد النفس. ما تزال القبيلة التي أنتمي إليها في أغوار البرازيل، وإلى اليوم، تحتفل كلّما أنجزتُ عملاً نحتيًا كبيرًا وتتساءل إذا لم يكن يستحقّ أن يُعبد. منظومات اليوم تجبرك على عبادة أدواتها القاسية التي تضعها تحت تصرّفك وتجعلك تشبه الآخرين.

– لهذا أنا أتصوّر أنّ الأعمال الناجحة هي التي تشبهنا بدون أن

تكون نسخًا مكرورة عنّا. أشعر أنّ العالم الذي نعيشه يحتاج إلى إعادة نظر عميقة.

حتّى عبث الطفل الأندلسيّ، بيدرو، الذي يصرّ دائمًا على التأويل المباشر لكلّ ما يراه وعيناه زائغتان على راشيل، لا يترك فرصة إلاّ ويذهب ليجادلها في الصغيرة والكبيرة، لم تغيّر من حالتي المنكسرة. كنت في أعماقي أشعر بظلم كبير. الدنيا غير عادلة.

– للأسف، عقَّب سواريش، الإنسانيّة هكذا، لا تحتفظ في رحلتها القاسية إلاّ بما تراه بعين المهيمن، أحيانًا تصيب وفي أغلب الأوقات تخطئ في حسابها.

كنت عاريًا أمام سيل الأسئلة التي داهمتني. كنت داخل فقّاعة من الألوان والأشكال المتشابكة واللاّمتناهية. عندما انسحبت تينا الوهرانيّة ورماد عبد الرحمن والآخرون الذين لا تحمل قبورهم أسماء، رأيت وجه فان غوخ الملتبس والحزين. في لحظة من لحظات القلق، تساءلت عن جدوى اختيار الفعاليّات في متحفه. ملامحه المنكسرة تثير كلّ المكامن اليائسة فينا وتفتّتها بحيث يصبح من المستحيل لملمتها. عندما نُسحر بشيء، جزء منّا، ربّما الأكثر حساسيّة، يُشلّ تمامًا. حتّى التدخّلات الصباحيّة القيّمة، التي استمعت إلى بعضها فيما بعد، حول الفنّ الحديث وأدواته لم تثر فضولي كثيرًا. أعرف أنّه كثيرًا ما نلتقي لنقول ما قلناه قبل عشر سنوات. على الرّغم من تواضع الناس في هذه المدينة. فقد ظللت مشدودًا إلى الصدفة التي أكلت الذين نحبّهم. فقد رأيت في القفر الذي كنت فيه عمّي غلام الله وهو يقرأ نصّه العالي وينسخ أخباره الكثيرة وشاهدت، بسبب شجار تافه بين سائق القطار ومدير

المحطّة، عزيز وهو يهوي كورقة خريفيّة قبل أن ينطفىء على حافّة المحطّة وهو مندهش أمام مدينة الأطياف التي بناها غيرنا، في كلّ بلدان العالم وفشلنا نحن في أن نجد مجنونًا قادرًا على الحلم.

عندما خطوت الخطوات الأولى في متحف فان غوخ، لم أُفاجأ بضخامته ولا ببناياته. كلّ شيء فيه كان عاديًا. ربّما كان أقلّ المتاحف اتّساعًا. مع ذلك، شعرت في لحظة من اللحظات برعشة تشبه رعشة الموت التي انتابت زليخة في ذلك اليوم الكئيب قبل أن أتداعى داخل الألوان. عند المدخل لم أر الباب ولكنّي رأيت رجلاً ملتبسًا بوجه فتنة وهو ينزف أمام أناس كانوا فاشلين في مساعدته. حتى الذين حاولوا، صدّهم. مددت له يدي. لم يقل شيئًا ولكنّي شعرت بيده باردة. عندما حاول أن يقوم رأيت بركة الدم من تحته. صرخت ولا أدري إذا كان الناس قد سمعوا صرختي. لا أعتقد لأنّي حينما التفتُّ، رأيتهم سائرين نحو الطابق الأوّل من المتحف بنظام واستقامة: ماذا فعلتَ يا فان غوخ في نفسك وفينا؟ سمعت صوته يتسرّب من بين شفتيه المكزوزتين ألمًا:

– لا شيء. لم تعد الدنيا كما أشتهيها. لو خرجت من هذا الدم حيًا سأعاود الكرّة.

– ماذا فعلتَ في نفسك.

– لا شيء. سوى أنّي أتمنّى أن أجد إنسانًا يأخذ أصابعي ويرسمني وأنا في هذه الحالة.

ماذا فعلتَ يا فان غوخ؟

شممت بعدها رائحة غريبة تشبه رائحة النباتات بعد فجر ممطر ورائحة الحبر الطفوليّ وعبّاد الشمس وحقول القمح التي تمتدّ

على مرمى البصر.

شعرت بنفسي طفلاً يهتزّ لأشياء هو وحده كان يعرف قوّتها. حتّى الماء. للماء رائحة عند فانسون فان غوخ.

جزء من غرابة هذا الفضاء أنّه يشعرك بالوحدة والحنين إلى الطفولة البعيدة. دائمًا ينتابنا هذا الشعور تجاه الذين نحبّهم، نتقاطع معهم ونتشابه مع أحزانهم. لقد عاش وحيدًا واختار أن يموت وحيدًا. الحبّ وحده قادر على قتلنا بهذه الطريقة. رأيته، أشهد أنّي رأيته، وأنا أعبر ساحة المتحف وهو يرفع مسدّسه ويوجّهه نحو صدره لا على التعيين. يلتفت، يملأ عينيه بحقول قمح أوفير Auvers الواسعة، ليس بعيدًا عن القصر. ثمّ يضغط على الزناد. يسقط من شدّة الألم ثمّ ينهض ثانية. يتأمّل قليلاً الحقول من جديد ثم يدخل منكسرًا إلى ظلمة أُويزِج رافو.

عندما فتحت عينيّ على همهمات الناس، كنت في عمق المتحف.

في الطابق الأرضيّ توقّفت عند اللّوحات التي أحبّها فان غوخ. لوحات فيطُوريو ماتيو كوركوس، جون طوروب، سينياك، كوربي ودولاكروا وغيرهم. في كلّ اللوحات شيء متكرّر يشبه فان غوخ، كنت عاجزًا عن تحديده. عندما وصلت إلى الطابق الأوّل، بدأتْ هرولتي تزداد قوّة، ليس بسبب الوقت الضيّق ولكنّي كنت بصدد البحث عن شيء محدّد لم أكن أنا نفسي أعرفه. ربّما الإحساس بموعد ما مع هذا الظلّ الذي اسمه فانسون فان غوخ. من أوّل نظرة عرفت أنّها مرحلة نُوينين Nuenen التي امتدّت سنة، من ١٨٨٤ إلى ١٨٨٥، لوحات عن الحياة الفلاحيّة. خشنة مثل الحياة في برابون. دكنة وسواد وغياب كلّي للشمس واللون.

جلت بعينيّ حتّى رسوت على اللّوحة التي أملك نسخة منها وكنت أرى من خلالها الجزائريّين وهم يتسترّون تحت غلالة الرفاه الكاذب ويأكلون البطاطا ويتنافخون بغيرها: آكلو البطاطا. ثم مرحلة باريس التي لم تشدّني كثيرًا حتى وصلت إلى مرحلة آرل Arles التي أعطته الضوء وفتحت أمامه شهيّة الموت مثل الفراشة. استقرّت عيناي على الدار الصفراء التي جلب إليها صديقه غوغان Gauguin قبل أن ينزع أذنه احتجاجًا على غطرسته: عبّاد الشمس وغصن شجرة اللّوز في كأس. وجدتني بعدها في الطابق الثاني عندما كان صوت المنظّمين في المكبّر يدعو الضيوف والجمهور إلى ضرورة الالتحاق بالقاعة لأنّ المحاضرات ستنطلق بعد ربع ساعة. عشرات اللوحات الصغيرة القريبة من الشرق. رائحة التفاصيل البيانيّة الدقيقة. كان يحلم أن يذهب نحو الشرق فجاءه الشرق على خيط من الضوء. عندما وصلت إلى الطابق الثالث تمنّيت أن ألزم مكاني أطول مدّة. رأيت اليد التي كانت ترتعش كلّما بدأت في كتابة رسالة. شعرت بهشاشة فانسون وأنا أتأمّل مراسلاته مع أخيه ثيودور، التي لا تُعرض إلاّ بالمناسبات لأنّها لا تتحمّل الضوء مثل صاحبها الذي أحبّ النور حتّى قتله. رأيت الخطوط المنكسرة للاثنين وحالة التعالق بينهما التي قادتهما إلى الموت في وقت متقارب. لم يستطع ثيودور تحمّل غياب فانسون أكثر من ستّة أشهر فتبعه بلا تردّد. مات بموت أخيه.

-٢-

الميوزيكثياتر يقع في عمق الحيّ اليهوديّ الجودنبورت Jodenburt. أغلبيّة يهود هذا الحيّ جاؤوا في نهاية القرن

الخامس عشر وبداية السادس عشر، عندما طردتهم محاكم التفتيش المقدّس من الأندلس والبرتغال مع المسلمين. يسكنون الجهة الجنوبيّة – الشرقيّة للمدينة. لم تكن لهم صفة المواطن وإن ظلّوا يمارسون شعائرهم وصناعاتهم الحرفيّة بدون إزعاج من الهولنديّين. خصوصًا صناعة الماس. مع الزمن انفتح الحيّ على كلّ المغضوب عليهم من طرف الكنيسة اللوثيريّة والكاثوليك المطرودين بعد انتصار البروتستنت. في الأربعينيّات، مع الزحف النازيّ على هولندا، اندثر في محتشدات أوشفيتز وغيره، أكثر من ثمانين بالمئة من يهود هذا الحيّ.

يبدو الميوزيكثياتر، وسط تفاصيل ماتزال تعيش بتوقيتات وترتيبات قديمة، معلمًا نشازًا. لكنّ ضفاف الأمستيل الحيّة تعطيه خصوصيّة لا تتمتّع بها جميع معالم المدينة. عندما بُنِي أثار جدلاً لم ينته. بعضهم رأى فيه اعتداء على الخصوصيّة وأوبرا خالية من كلّ ملمس حضاريّ هولنديّ. وآخرون راهنوا على قدرته على إرجاع العهد الذهبيّ الذي كانت فيه هولندا سيّدة الفنون. بين هؤلاء وأولئك، كان الجمهور المولع بالموسيقى والأوبرا والباليه، يتزاحم في كلّ عرض أمام الأبواب العملاقة، للحصول على مكان له.

عندما اهتزّت قاعة الأوبرا بالتصفيق على صوت ماريتا وهي تعلن عن التكريمات والأسماء الفائزة، تعالت الرؤوس فجأة مصحوبة ببعض الهمهمات المتلاحقة. لم أسمع اسمي إلاّ على الهامش منكسرًا على إيقاع الموسيقى الناعمة التي كانت تنبعث من زاوية مجهولة داخل هذه القاعة الواسعة التي تشبه إحدى صالات قصر لويس الرابع عشر، الغاصّة بالحاضرين، ومعها لمسات

كليمونس بأناملها السحريّة الرقيقة. كليمونس كانت جميلة، بلباسها الأسود والأحمر. من حين لآخر تشعّ ابتساماتها تحت الضوء الخافت الذي كان ينبعث من الزوايا الأربع للصالة. رأيت فتنة وهي ترتّب أناملها بحيث تصبح مستقيمة مع ذراع الكمان. أقسم أن في خزرتها شيئًا من نظرة فتنة عندما تصيبها الدهشة من حالة جميلة. داخل هذه الغيمة الهاربة تناهت إلى مسمعي بعض كلمات ماريتا ممزّقة ومنكسرة ومملوءة بالبياضات التي مرّت جانبًا، عن الطين الذي منه صنع الإنسان ومنه تصنع الحياة، ليست حياة الصدفة ولكن الحياة التي تقاوم المجّانيّة والأشواق المكسورة حتّى عندما يكون مقابل ذلك موت حتميّ أو منفى قاسٍ. هل يعرف الذين يتحدّثون عن المنفى قساوته التي تدفع بالنّاس إلى الحرق والتحوّل إلى مجرّد رماد ونثار تعبث به الحياة؟ أم أنّ الحالة ليست أكثر من مجرّد فانتازيّة للمثقّفين الذين يحتاجون باستمرار لموضوعات تعطيهم مبرّرًا لوجودهم القلق والمقلق؟ شيئًا فشيئًا يصير صوت ماريتا الهادئ أكثر وضوحًا وصفاء. تشكر الميوزيكثياتر وطاقمه الذي استقبل المشروع وتحمّس له، ثمّ قائمة الأسماء التي كُرِّمت وبنفس الإيقاع تعتذر للخزرات الطفوليّة لبقيّة الفنّانين الذين ظلّت عيونهم معلّقة على شفاه ماريتا.

– هذه ليست جوائز ولكنّها اعترافات بالمجهودات الإنسانيّة التي قدّمها بعض الكتّاب والفنّانين. إعتبروها مجرّد لفتات رمزيّة يبادر بها هذا المؤتمر من خلالكم لهؤلاء الناس الاستثنائيّين...

كانت القاعة تهتزّ كلّما ذُكر اسم من أسماء المكرّمين. مرّة واحدة، عندما ذُكر اسم الفائز بجائزة الفنون التشكيليّة، بقيت القاعة واجمة ولم تُسمع إلاّ بعض الهمهمات هنا وهناك معلنة عن

عدم رضاها. في كلّ المناسبات هناك خديعات صغيرة يمارسها المنظّمون لا تروق دائمًا للحاضرين.

كنت أعيش على توقيت البلاد البعيدة التي كلّما تسرّب الزمن أكثر، تضاءلت حظوظ العودة إليها. لم تبرحني عيون تينا الوهرانيّة التي كنت أراها تارة مشابهة لعينيّ فتنة أو كليمونس وتارة تبدو بعيدة عنهما، أقول في خاطري، ربّما كانت الأيّام القاسية هي التي سحبت منهما الإشعاع الطفوليّ. ثمّ عبثيّة الشرطيّ الذي خادع الموت المؤكّد مرّتين، بجروح أقلّ لينتهي بنزيف دماغيّ لم يكن ينتظره مطلقًا. ثم رأيت البوذيّ الوطنيّ الذي أحرق نفسه على الملأ وهو يتمتم بصوت أبحّ: ليست بلادًا تلك التي تستخسر في مواطنها قبرًا.

النّاس هنا يأتون لسماع الشعر مثل الذي يذهب إلى سهرة. أزواج بألبسة شيّقة ومريحة. أحيانًا تأخذني الغيرة الطفوليّة والحسد. لماذا أوطاننا تصرّ على الموت والرّماد والدم؟ لماذا تحرم نساؤنا من أن يكنّ جميلات وعاشقات؟ لماذا يصرّ رجالنا على ذكورة هم أوّل من يدرك سخافتها؟ أهو التوحّش الذي لم نخرج منه أم علامات مرض قديم لا نشفى منه إلاّ لتلد إخفاقاتنا مرضًا آخر مشابهًا له وأكثر تدميرًا منه؟ حنين لم تكن على المنصّة. خمّنتُ أن تكون منغمسة في تحضير الأمسية الختاميّة مع بعض الشعراء المدعوّين للمؤتمر. الوحيدة التي كانت ظاهرة للعيان هي كليمونس بإشراقها الدّائم وعازفة البيانو. عندما نودي .لاسمي، رأيت كليمونس تترك الكمان ينزل من على كتفها اليسرى قليلاً وتتقدّم خطوات صوبي وأنا أحاول أن لا أرتبك على المنصّة. قبّلتها على جبهتها. كانت حمراء مثل الكرزة. ثم مددت يدي إلى

ماريتا وإلى عازفة البيانو قبل أن أتركها تتزحلق على ملامسه. ثم عدت إلى مكاني بعدما استلمت الغلاف وشعار المؤتمر، تحت عاصفة التصفيقات الحادّة.

أحيانًا أتساءل ألم يكونوا يصفّقون لشخص آخر غيري موجود فيهم، يحبّون أن يروه في الواجهات الكبرى؟ ألم يكن ما حدث هو مجرّد صدفة كان يمكن أن لا تكون أو أن تحدث لغيري الذي كان من المفترض أن يأخذ مسلكًا معيّنًا أخطأه في المنعطف الذي كان يجب أن لا يخطئه فيه؟ الخطأ الصغير يصير مع الزمن هوّة كبيرة بحيث لا يمكن عبورها وكلّما حاولنا ذلك، ازددنا بعدًا عن الهدف. الصدفة هكذا، ابنة كلب أجرب، تبدأ بدهشة ثم تتحوّل إلى انتظار ويقين من طرف الآخرين ثم تعبث بك نحو قدر آخر أنت آخر من يتوقّع حدوثه. هكذا تُصنع الأسماء الكبيرة في سماء الشهرة وهكذا تنطفئ في المقابر الباردة والمعزولة.

عندما انتهت التوسيمات، تقدّمت ماريتا مرّة أخرى لتحيل الكلمة إلى فيلهام، مدير المؤتمر ليختتم اللقاء. لم يقل شيئًا كبيرًا. شكر كلّ الحاضرين وتمنّى للفائزين مزيدًا من الإنجازات ولغيرهم مزيدًا من الحظّ ثم ضرب موعدًا للحضور، في نفس المكان، بعد أربع سنوات.

– خير ما نأخذه معنا هو الشعر. سلاحنا المتبقّي لتحمّل الحياة. نريد أن يظلّ صوت المرأة هو آخر صوت ننام عليه، وحده قادر أن يزرع فينا الحبّ وكثيرًا من الأمل في عالم لم يعد يحفل كثيرًا بالإنسان. أتركَكم مع ماريتا لتقدّم شعراء الأمسية. فهي تتقن ذلك أحسن منّي. أشكر الجميع وأعتذر عن كلّ تقصير.

انتابتني حالة صحو كبيرة وأنا أنتظر أن تنطق ماريتا اسم حنين

مع كوكبة من الشعراء من إسبانيا والشيلي والهند وأستراليا. مرّت الأسماء في فمها دافئة هادئة. مرّة أخرى استقامت كليمونس في وقفتها بجانب عازفة البيانو التي بادلتها ابتسامة متواطئة. ثم نزلت الستائر السوداء من كلّ الجهات. وحدهم الشعراء كانوا يلبسون الألوان. خفت الضوء قليلاً وأصبح موجّهًا أكثر باتجاه بياض الصفحات التي كانت بيد الشعراء ويدي كليمونس والجزء العلويّ من جسد عازفة البيانو. أضواء أخرى، أكثر دفئًا وامّحاء كالأزرق الهامشيّ والآجوريّ البارد، كانت تتزحلق على الخرقة البيضاء في شكل أبجديّة متسرّبة من تحت إلى فوق. انكتب عنوان الأمسية بلغات متعدّدة بما فيها العربيّة "لن يموت صوت النساء" ثم الترجمة الهولنديّة لكلّ القصائد التي كانت تقرأ على مسامع الحاضرين. عشّاق الشعر، الذين يدخلونه مثل الذي يدخل مقامًا مقدّسًا كانوا يتهيّأون مثل الذي يحضّر نفسه لموعد عشقيّ. الشعر هكذا، لا يتدفّق إلاّ في لغة واحدة لأنّه الأكثر رهافة وقابليّة للعطب السريع. لم أجد حاجة ماسّة لوضع سمّاعة الترجمة في أذني، فقد كانت الأحاسيس العميقة تصلني مثلما أشتهي. قد أكون أكثر تخيّلاً من الحقيقة ولكن أليس الشعر إلاّ هذه الحالة من الحلم والتوهان بعيدًا عن الحقائق المربعة؟ كانت الأصوات تصلني في مختلف تلوّناتها، دافئة وحميميّة، من الزوايا الأربع لهذه الصالة الواسعة التي تشبه مدرّجًا جامعيًا أنيقًا وجميلاً وبسيطًا. كلّما تغيّرت شاعرة، تغيّرت معها الإضاءة وكأنّنا في عمل تراجيديّ، الأبطال يتهيّأون فيه لأداء أدوار تشبه الأقدار المسطّرة سلفًا. كانت حنين هي آخر شاعرة في الأمسية. كان الناس من كثرة انشدادهم وصمتهم، يشبهون الأصنام. لا يصفّقون إلاّ عندما يشقّ الشاعر

الأستار السوداء ويدخل المنصّة أو عندما يهمّ بمغادرة المكان. عندما أطلّت حنين تمنّيت أن أظلّ أصفّق ولا أتوقّف أبدًا. في صوتها شيء من شطط النرجس وعسل النحل البرّيّ.

استسلمت لصمت الأغليّة.

عندما استحمّت بالأضواء الخافتة، شعرت بملامحها تزداد اتّساعًا وبحفرة الخدّ الأيسر تزداد توغّلاً. لباسها الأبيض المطرّز بكلّ الألوان البربريّة الناريّة والمعشّق بالذهب والأحزمة المحلّيّة، يشعُّ من بعيد. الشال الأسود المرقّط بنجوم صغيرة كلّما لامسها الضوء ازدادت إشراقًا ولمعانًا، يذكّر بالأندلسيّات العريقات عندما كنّ ينزلن إلى باحة دار العرس يستمعن إلى الشعر والموسيقى ويتركن العين تزوغ قليلاً نحو المعشوق المنزوي في الظلّ. هي تشتهي أن تكون جميلة ولا تقبل بأنصاف الإعجابات.

بعد لحظة صمت، تركت صوتها يتدفّق كالمياه العذبة:

– إعذروني أن أتحدّث بهذه اللّغة، إنّها المرّة الأولى وقد تكون الأخيرة. عندما أدخل إلى مكان جماهيريّ عذب مثل هذا، لا أستطيع أن أكون حياديّة، ورائي وطن أدافع عنه ولهذا أريد دائمًا أن أشعر بأنّي أستحقّه. أحلم أن أرى عشّاقنا يغيّرون وجهة أبصارهم وينظرون بالقرب منهم، أحيانًا الأشياء الجميلة هي تلك نمرّ عليها يوميًّا بدون أن نعيرها انتباهًا هي جديرة به إلاّ عندما يسرقها منّا الآخرون.

مدّدتْ كليمونس يدها اليمنى عبر ذراع الكمان. ثبّتَتْه جيّدًا على كتفها. ثمّ سحبت في المرّة الأولى على الأوتار بحركة خفيفة، ثمّ مرّة ثانية ثمّ... بدأت الأصوات تتوالى وعلى الإيقاع نفسه. كانت عازفة البيانو تقتفي خطواتها. عرفت الإيقاع الإسبانيّ. أرانخويس.

رودريكو. امتلأت حتّى ضاق نَفَسي وكدت أصرخ بأعلى صوتي: الرحمة. الرحمة. إنّي أموت. هذه الموسيقى تقتلني بعدما قتلت طفولتي. إنّها منّي. شعرت بالدوار وبالقلب يتضخّم مثل كرة تكاد تنفجر. حاولت عبثًا أن أقاوم الدموع. لا يمكن أن يكون الذي يحدث لي الآن هو مجرّد صدفة؟ لم أعد غائبًا عن المكان، فقد صار فيَّ. فيَّ أنا الطفل الذي لم ينه بعد العشر سنوات. طفل الأحرف الأولى والإنشاءات المسروقة. وعندما تفوّهت حنين بأولى الكلمات الشعريّة، زممت فمي حتى لا تباغتني الصرخة. يكفي. نرجس، حنين؟

ضغطت بقوّة على صدري خوفًا أن يتخلّى قلبي عنّي وواصلت الاستماع والارتعاش.

ثم ماذا بعد؟

كلّما جئتك، ولّيتَ وجهك نحو البحر؟

ونسيت أنّ حبّك مثل الحياة،

يستهلكنا قبل أن ندمنه

قلّلْ من خطايا الصمت وتعالَ،

كلّ شيء في غيابك صار يشبه الفراغ.

ثمّ صمتت قليلاً. التفتتْ نحو كليمونس. واصلت كليمونس عزف أرانخويس لرودريغو جواكين بشكل هادئ أكثر. ثمّ التفتت نحو عازفة البيانو، فخفّفت من حدّة الإيقاعات حتّى صارت مواكبة تمامًا لكليمونس. كنت أظنّ أنّ حنين ستواصل قراءة الشعر ولكنّها ذهبت نحو شيء آخر زاد من ارتعاشاتي:

– جميل أن نعشق رجلاً. جميل أن نحبّ وطنًا. والأجمل من كلّ هذا أن نحسّ أنّنا صرنا موضوعًا للعشق لأناس لم تجمعنا بهم

إلاّ صدفة الأبجديّات الضائعة. تفكيري اليوم يذهب نحوكم جميعًا ولكن اسمحوا لي أن أكون أنانيّة، نحو رجل واحد. رجل عندما وصل إلى هذه الأرض لم يفتّش عن وجاهة ولكنّه ذهب ليضع وردًا على قبر ظنّه لامرأة كان يحبّها ووعدها ذات زمن أنّه إذا مرّ على هذه الأرض سيزورها إذا كانت حيّة أو يضع على قبرها وردًا إذا كانت ميّتة. حين وضع النرجس على القبر، وضع ذاكرته التي كانت تتّقد أمامه بحرائق الخوف والعزلة والحبّ لوطن يُجرح كلّ يوم وكلّ يوم يعيد رتق نزيفه بالريق والكلمات. تصوّروا رجلاً لا يطلب شيئًا من مدينة يزورها للمرّة الأولى سوى أن يلتقي بالنّاس البسطاء الذين كانوا جمر هذه المنافي القاسية وبامرأة منحته أوّل ليلة حبّ في حياته وقبل أن تنسحب من يديه، ذكّرته بأنّها أينما التقت به على واجهة هذه الكرة الأرضيّة ستمارس معه نفس الحماقة وبكلّ التفاصيل الأولى. رجل كتب ألف رسالة وهو في العاشرة من عمره لامرأة هو لا يعرفها. كتب لصوتها الذي رافقه سنوات في الراديو. ليس عبثًا. في الحبّ لا يوجد عبث. أصدق ما نكتبه هو ما ننجزه ونحن أطفال متشبثّون بالوهم الكبير. عندما نبدأ نتخلّص من الوهم تدخلنا الشيخوخة ونكفّ عن أن نكون أدباء ولهذا، الشعراء أطفال دائمًا. أنتم لا تعرفونه جيّدًا والذي عرفه للحظة اشتهى لقاءه أكثر. فهو من فرط تواضعه، يفضّل أن يظلّ يمشي في الزوايا المظلّلة بمحاذاة الحيطان الخلفيّة للمدينة. هذا الرّجل جعل من هذه المدينة معبره الحتميّ ومن هذا البحر المحاذي لنا مقامه الكبير.

أغمضت عينيّ قليلاً وتركتني أزرع في نفسي اليقين بأنّي كنت أحلم. صمتَتْ حنين قليلاً، ثمّ شردت بعينيها داخل القاعة لكنّ

الضوء الذي كان مسلّطًا عليها لم يسعفها. كنت بعيدًا، في الزاوية الأكثر ظلامًا.

تنهّدت عميقًا ثمّ واصلت تدحرجها نحو الكلمات التي نحتتها مثل الذي يشتغل على طين قاسٍ.

– قصائدي هذا المساء تذهب نحو هذا الرّجل، إلى الفنّان ياسين، الذي عندما خرج الجميع بقي هو أمام الموت لا لشجاعة فيه كما يقول ولكن لأنّه لا يعرف كيف يعيش خارج أرضه. وخرج عندما بايع الجميع القتلة وقال ببساطة هذه الأرض لا أعرفها وليست في حاجة إليّ. أنا بحاجة إلى النسيان ولا نسيان في هذا البلد، حتى أستطيع أن أغفر للّذين قتلوا أحبابي ومسحوا النّور من وجوههم. اليوم هو لا يتوانى عن البحث عن وهمه الجميل الذي تركه قبل عشرين سنة.

هل هي نرجس؟ كلّ كلامها يقول إنّها هي. لن تكون إلاّ هي. كيف بقيتُ صامتة تلك الليلة وأنا أحكي لها عن حماقاتي الطفوليّة؟ كم أشتهي الآن أن أبكي بصوت عالٍ حتّى يسمعني القاصي والداني وأعلن للملأ أنّ امرأة أبكتني من قلبي. إحساس غريب ينتابني للمرّة الأولى بهذا الشكل، ربّما لأنّي شربت كثيرًا أو ربّما لأنّي شعرت بنفسي مقهورًا حتّى العظم وأسلحتي ضعيفة أمام هذا القدر اللامتناهي من الحبّ والصدف الغريبة. لم أكن أعرف أنّ مدينة لا تربطني بها أيّة علاقة روحيّة تنتظرني في منتصف الطريق لتكشف لي عن قدر حماقة الجهل التي فيّ. هل كانت في حاجة إلى كلّ ذلك لتقنعني بضعفي؟

التفتت مرّة أخرى نحو عازفة البيانو وكليمونس وبدأ الحنين يحفر شيئًا فشيئًا أخدوده على سوناتة لموزارت والكمان يتلوّى

عميقًا. تركتني أنحدر نحو الأعماق المغلقة على تاريخها وأستمع إلى كلمات حنين التي كانت تتقطّع كالأنين.

من قال إنّك راشد عندما تعلن عن حبّك للغير؟
كلّ المحبّين أطفال عندما يكذبون.
ها أَنَذِي كما صادفتني لأوّل مرّة في بهو المدرسة الابتدائيّة،
من المنفى أبني بيتًا من زجاج، عسى أن يمرّ طفل من هنا
ويرميه بجحر.
ومن رخامة القبر المنسيّ، بيتًا للأسماء والنعوت الصغيرة،
كلّما هبّت ريح أو نزلت أمطار استحمّ بمياهها...

نرجس، حنين؟ ما الذي قادها إلى هذا الغياب المؤذي وموسيقى أرانخويس إذا لم تكن هي نرجس؟ من أين جاءت بتلك الكلمات البعيدة التي لم تعلّمني الأيّام إلاّ نقشها في الذاكرة بنار العزلة والخوف. لم أنس الصوت الذي قادني نحو دروب اللغة وعلّمني كيف أكتب وكيف أحبّ وكيف أتألّم بالصمت وكيف أحلم بامرأة.

كنت أشعر بالرّعشة التي تسبق عادة الموت أو الحبّ الأوّل أو أقصى درجات الخوف. ثقتي في قلبي لم تكن متينة، فأنا أعرف جيّدًا أنّه يمكن أن يتخلّى عنّي في كلّ لحظة. القلب ليس مثل صاحبه، فهو عندما يتعب يتوقّف نهائيًا ليرتاح مرّة واحدة وإلى الأبد.

عندما تحبّ لا تحبّ بكلّك وإلاّ ستموت مغبونًا، خلّ دايمًا شويه ليك حتى تقدر توقف على رجليك.

آه يا زليخة العزيزة. أنا غير قادر على الوقوف على قدميّ، ربّما لأنّي الآن في حالة حبّ كلّيّة ولم أترك شيئًا قليلاً لي حتّى أستطيع

أن أقف على رجليّ. الحبّ كُلّيّ ولا يقبل التجزئة. ألم يكن موتك حبًّا وحزنًا دليلاً على هذه الاستحالة؟ إنّ الفضاءات التي أعبرها الآن صافية كالماء وحلوة كشهد العسل. ليست مظلمة ولكنّها مضاءة بآلاف الفوانيس الملوّنة والنيليّة. لست أدري لماذا اللون النيليّ أو الحامض كما تسمّيه فتنة وناس القرية؟ وحده كان يملأ ذاكرتي. للألوان، في أرضنا، رائحة وذوق مثلما للذاكرة. إنّي أنحدر نحو طفولة لست مهيّأً لها. وحنين تبدو لي وسط هذا الفضاء الملوّن، نقطة صغيرة في أفق كلّما اقتربت منه، ازداد بعدًا وضيقًا مثل ممرّات القيامة. تختلط ملامحها بملامح زليخة وهي تسخر من عبقريّتي التي حوّلتني، بقدرة قادر، إلى منشئ متميّز. منكفئ على بطني، أستمع إلى صوت نرجس الذي كان يأتي من بعيد، وهي تكتم ضحكتها الطفوليّة وتتمتم في أعماقها: آه يا ولد يمّا لو كان تفيف بك المعلّمة؟ أيّ سحر يختبئ وراء ذلك؟ وإذا أجبرتك على تعميم موهبتك على كلّ الكسالى الذين يشبهونك، فماذا ستقول لها؟ أنّك مولع بصوت نرجس؟ سترميك من النافذة بعد أن تبشّشَك.

ثمّ تنزاح ملامح حنين نحو المهبولة مرّة أخرى. أراها وهي تبحث عن أدقّ خيط في الكمان لتنحت سوناتا جديدة من القطعة الخشبيّة التي بين يديها، تغمض عينيها تاركة نفسها تندفن وسط أشكال وألوان وحدها كانت تراها ثمّ، في النهاية، تصوّب خزرتها نحو المقبرة المظلمة:

– الآن أوقظ ناس المدينة. هم أكثر حاجة إليّ من الأحياء. يسمعون ثمّ يتوسّدون ترابهم. اليوم هدأوا جميعًا، لم يعودوا يطالبون بحقّهم الذي انتزعه منهم القتلة الأحياء. لا بدّ أن يكون

الله الذي استغرق في صنعهم وقتًا طويلاً ليكونوا بكلّ هذا السخاء، قد نسيهم هم كذلك. لسنا الوحيدين في هذا القفر.

كانت حنين منغمسة في غيمة بنفسجيّة وهي تقرأ. كانت وهي تتلوّى وتتألّم داخل اللغة مثل الذي يمارس غواية ويتهيّأ في الوقت نفسه لطقس دينيّ. تبدو خلفها الترجمة الضوئيّة للقصائد كالأبجديّات المنقرضة وهي تعبر هاربة وكأنّها قادمة من زمن آخر غير الزمن الذي نحن فيه.

لا أدري كم طال الزمن لكنّه كان كافيًا لأن يجعلني أختلّ تمامًا. أردت القيام، فلم أستطع. وجدت نفسي غير قادر على فعل أيّة حركة. عندما حاولت أن أصيح مثل الذئب، سدّت الغصّة حلقي. لم تبرحني مطلقًا رغبة البكاء. أحاول أن أداهن قلبي حتّى لا يتوقّف في هذه اللّحظة، ما زلت في حاجة ماسّة إليه. ليوصلني إلى مرفأ الحقيقة وليندثر بعدها إذا شاء. بيننا ميثاق العشاق المهابيل: أن لا يفاجئني وأنا في عزّ اللّحظات الجميلة. عندما يريد أن ينسحب، فليفعل ذلك في لحظة النوم حتّى ننسى بعضنا بعضًا بسرعة ونفترق بأقلّ خسارة ممكنة.

لم أستفق من الدوّامة إلاّ على حدّة التصفيقات المتتالية التي استمرّت طويلاً.

عندما كان الحاضرون يضعون الورود عند أقدام الشاعرات، كنت أنا أحاول أن أقوم من مكاني للهرب بأقصى سرعة ممكنة خارج المكان، لأتنفس هواء آخر ولأتأكّد أنّ ما حصل لم يكن إلاّ حالة من حالات هذياناتي المستمرّة.

– تفضّل أستاذ ياسين.

عندما رفعت رأسي، كانت كليمونس تنظر إليّ بعينين بريئتين

كعينيّ عصفور. كنت أختنق من فرط سعادة كانت أكبر منّي. استجمعت كلّ قواي وقمت من مكاني حتّى لا أبدو مشلولاً.

– متعب؟

قالتها وهي تكتشف على وجهي علامات الإنهاك والمكابدة.

– قليلاً. ما حدث مذهل. هزّني في عمقي. أيعقل أن تكون الصدفة بهذا القدر من الكرم والعنف؟

– الفكرة لحنين.

ماذا هيّأت لي هذه المدينة؟ إنّها تقتلني حبًّا، تضعني في كفّها الخشنة ثمّ تضغط بأقصى قوّة ممكنة ثمّ تفتحها شيئًا فشيئًا وبأنفاس دافئة تخفّف عنّي قساوة الألم. من المقابر إلى نور الطفولة المغروسة في القلب كالصفصافة، إلى فضاء ما يزال فيه الناس قادرين على الحياة.

– حنين أصرّت أن تفاجئك بكلّ ذلك. منذ أن تيقّنتْ من قصّتك، ظلّت تردّد جملتها المعتادة: جميل أن نصادف طفولتنا في مدينة لا نعرفها. المدن التي تبقى في القلب هي التي تفاجئنا بأجمل الأشياء التي لا نتوقّع حدوثها أبدًا.

أخذتني كليمونس من يدي وسحبتني باتجاه ممرّ الفنّانين. كانت حنين تعطيني بظهرها، ما تزال ملتفتة نحو الجمهور، بحيث أراها ولا تراني. عندما نزلت الستائر والتفتتْ وراءها، التصقت عيناها بعينيّ. تمالكت نفسي قليلاً ثمّ تهالكت على صدرها. كانت رجلاي ترتعشان وتردحان مثل عصفور مذبوح وشيء في داخلي ينضغط ويصغر وينكمش حتّى يتحوّل إلى ورقة في يد خشنة. سمعت في لحظة من اللحظات قلبها وهو يدقّ بنفس السرعة التي كان يدقّ بها قلبي.

همستُ:

– نرجس؟

– حنين. أنت أمام امرأة أخرى، بمتاعب ليست مشابهة لمتاعب نرجس. سعيدة أنّك شرّفتني بجزء من ذاكرتك. لأوّل مرّة يحصل معي هذا. نسيت أنّي كنت كلّ مساء أُسعِد الناس وأُدخِلهم غمرة الشعر والأشواق في وطن كان مهيّأ للحرب أكثر من استقبال الشعر.

نظرت إلى وجهها التي بانت كلّ قسماته الجميلة، ثمّ تمتمت وأنا أحاول أن أجد لغتي التي ضاعت منّي.

–واش درتِ فيّ يا يمّاك؟ نكّلتِ بي. قتلتِني. ما خلّيتِ فيَّ والو. وعلاش ما قلتليش واش في قلبك؟

– قصّة طويلة. كنت أريد ان أسمعك. وأن أبتعد قليلاً عن أنانيّتي. وعندما استمعت إليك نسيت أنّي موجودة. رجل يحبّ وهمًا رائعًا، هذا أجمل ما يمكن أن يحصل لامرئ. أنت لا تدري كم تهزّني هذه الأشياء الصغيرة، التي تمرّ عاديّة ولكنّها تحفر في فجوات لا يملأها إلاّ وهمٌ آخر اسمه الكتابة.

فجأة امتلأ الممرّ الخاصّ بالفنّانين والمنظّمين. لم أسمع إلاّ صوت ماريتا وهي تلحّ على المدعوّين أن ينزلوا إلى مطعم الأوبرا، فهناك عشاء على شرفهم.

التفتت حنين إليّ وهي تحاول أن تجد طريقًا للخروج:

– إسمع. خلّيني أتصرّف. أريد أن أعتقلك اللّيلة ما دمت مصرًّا على الذهاب غدًا باكرًا.

ثمّ تمتمت في أذن ماريتا التي جاءت نحوي هي وفيلهام.

– نتمنّى أن تكون قد سعدت بإقامتك ونراك قريبًا. نعذرك هذه

المرّة لكن في المرّات القادمة سنصرّ على أن تعطينا لحظة. السيّارة ستصلك غدًا صباحًا لتأخذك إلى المطار. إذا وقع أيّ إشكال، الكارت الخاصّ معك، اتّصل بي أو بفيلهام. لا تتردّد، تلفن. لا تَنْسَنا في لوس أنجلس. أمريكا مغرية وتنسينا الذين نحبّهم.

– لا أبدًا. لا أعرف ماذا أقول ولكنّي ممتنّ جدًّا. فقد أصبح لي في هذه المدينة أصدقاء رائعون، كلّما فكّرت في هذه المدينة، ستكونون أوّل من يملأ قلبي وذاكرتي.

ثمّ ترجمت ماريتا للمدير الذي هزّ رأسه بكلّ ودّ.

ودّعنا الجميع وخرجنا. كانت حنين ملتصقة بذراعي.

فجأة، وأنا أقطع البهو المؤدّي إلى خارج الميوزيكثياتر، وسط التوقّفات وضوضاء الذين كانوا ينزلون نحو المطعم، سحبتني من الوراء يدّ شعرت بنعومتها ودفئها. التفتُّ. كليمونس.

- Alors? ça y est! on oublie vite ses amis, on part sans un petit au revoir?

- Mais non ma petite Clémence. Qui peut oublier un ange comme toi? Ta place restera intacte. Je suis seulement bouleversé par ce qui m’arrive. Tu sais Clémence, je suis trop fragile pour supporter tout ça. Notre histoire ne fait que commencer, je t’écrirai quand j’aurais récupéré toutes mes forces.

ثمّ وضعتُ في كفّها عنواني الذي كتبته بسرعة. كنت أريد أن أخرج مخافة السقوط على وجهي. رجلاي كانتا تحملانني بصعوبة.

عند بوّابة الأوبرا، تمتمتْ حنين:

– شفت كفاش يحبّوا بلادهم وتاريخهم؟

–ما زلنا بعيدين عن هذا الحظّ.

قطعنا معابر متعدّدة. الطرق في أمستردام مثل الأشواق، متداخلة وملتوية دائمًا. دارت حنين دورة سريعة بسيّارتها في ساحة واترلو المحاذية للأوبرا ثم انطلقت عبر الطريق المحاذي للأمستيل قبل أن أوقفها في سوق الورد. بسرعة اشتريت باقة نرجس وعدت. ثم صعدنا نحو الميناء. عندما حاذينا قناة الأمير قالت:

– ما رأيك لو نتدحرج قليلاً نحو أحد المقاهي الرماديّة، نشرب شيئًا ثمّ نواصل نحو الميناء. أحبّ هذا الجوّ. لم أتخلّص بعد من رومانسيّتي وطفولتي. الله غالب. هذا المساء أنت مع طفلة.

– وماذا يطلب الغرقان؟ Que demande le peuple سأتبعك حافي القدمين حتّى التهلكة.

كنت أريد أن أتحدّث عن الأمسيّة لكن ما كان ينصهر بقلبي كان أكبر من مجرّد أمسية. مشينا قليلاً على امتداد قناة الأمير Le Prinsengracht الذي يعود اسمه إلى أمير أورانج، بطل الثورة ضدّ الإسبان في القرن السادس عشر. تركنا وراءنا دار آن فرانك وتوغّلنا نحو الميناء. كانت حركة المرور قد خفّت كثيرًا. نسمة من البرد الشماليّ تدخل إلى العظم ولكنّها كانت كافية لإيقاظي من دهشتي وإخراجي من ذلك الشيء الذي يحدث نادرًا والذي يقع على الحافّة الفاصلة بين الحلم والواقع.

تنفّست بعمق. أدركت فجأة كم كنت في حاجة ماسّة إلى التنفس وإخراج حمم الضيق التي كانت تخنقني بقوّة. ما زلت مثلما نزلت لأوّل مرّة على هذه المدينة البريئة كما سمّاها فيلهام، رجلاً عندما يشعر بضيق فهذا يعني أنّ بداخله شيئًا كبيرًا يتآكل. لملمت نفسي داخل معطفي. مناخ هذه المدن متقلّب كحالة الشعراء. كانت ندف الثلج قد بدأت تتدحرج في الفضاء مثل مخدّة

قطنيّة فرفطها الأطفال. سحبتني حنين من يدي نحو بار البابنيلايند Papeneiland وطلبت كأسيْ ويسكي. الرشفة الأولى أدخلت حرارة كبيرة على كلّ جسدي.

– الآن أفضل؟

–بكثير. لا أدري ماذا أقول لك أو للصدفة؟

–أنت لست في حاجة لتقول شيئًا، وجهك يخدعك وأحاسيسك الطفوليّة تكشف أسرارك البعيدة. لا يهمّ. جميل أن نصادف طفولتنا في مدينة لا نعرفها. المدن التي تبقى في القلب هي التي تفاجئنا بأجمل الأشياء التي لا نتوقّع حدوثها أبدًا. في عذابك، أنت أكثرنا حظًّا.

– مرهق جدًّا كمن خرج من حرب قهرته مسبقًا لأنّه لا يملك أيّ سلاح للمواجهة وأيّ استعداد لتلقّي الضربات الصاعقة.

–عندما نستعدّ لاستقبال حبّ، نخسر سحر المفاجأة. وحدها المفاجأة تهزّنا، ما عداها، يظلّ فعلاً عاديًّا.

كنت منهمكًا في وجهها، في شفتيها، في لباسها، كمن يكتشف الغرابة لأوّل مرّة. الويسكي والتصاقها بي خفّفا من حدّة البرد الذي كان يخترق المسامات كالإبر الحادّة. لكنّي في أعماقي، أعتقد أنّي كنت في تلك اللحظة أسعد إنسان في الدنيا ولم أكن في حاجة إلى الشيء الكثير لتوديع الدنيا بدون ندم كبير.

– أنا جوعانة. سآخذك إلى مطعم البحر المواجه لتمثال كنزة، زوجة الأمير الهولنديّ الحزين. الحالة باردة ولكنّ الجوّ هناك دافئ وحميميّ.

– وماذا يطلب الضائع من دليله؟

– أن يدلّه.

كانت تحاول جاهدة أن تخبّئ سعادة ضامرة.

لم أضف شيئًا لكلام حنين ولكنّي بقيت مثبّتًا في عينيها الزائغتين وفي غمّازة الخدّ وفي اشتعالات الحرائق التي كانت تملأ ذاكرتها. غادرنا البار بعدما تدفّأنا من البرد القارس. خرجنا من الباب الثانية المؤدّية للنفق الصغير الذي يمرّ تحت الماء فوجدنا نفسينا من الجهة الثانية من قناة الأمير.

– أحبّ هذا البار لاسمه وتاريخه. وهذا المعبر الصغير أنقذ الكثير من الكاثوليك من موت محتوم في القرن السادس عشر. ولهذا سُمّي باسمهم. هو واحد من أهمّ المقاهي الرماديّة Les cafés bruns العشرة القديمة في أمستردام.

عند المعبر نظرتُ من الجهتين. بدا الضوء الأخضر واضحًا. نسيت للحظة أنّ الضوء الأخضر في بلداننا لا يكفي لضمان السلامة. علينا أن نمسح المكان جيّدًا أوّلاً بأعيننا بالتفاتة دائريّة في منأى عن عيون الناس ثمّ نعبر بسرعة. شعرت بدفء يدها ونحن نقطع صوب الجهة المقابلة. نرجس؟ تمتمتُ في أعماقي، أو ربّما تكلّمت بصوت منخفض. ممكن: يحصل هذا عادة في الكتب ولكن في الحياة نحتاج إلى قدر كبير من التسامح والصدفة والجنون لحدوثه.

ركبنا سيّارتها من جديد وواصلنا صعودنا نحو أعالي الميناء، دائمًا بمحاذاة قناة الأمير.

-٣-

كانت مدينة أمستردام تمرّ بسرعة على وقع الأمطار الموسميّة

الباردة. الثلوج التي ازدادت كثافة، كانت تنكسر على زجاج السيّارة ثمّ تتسرّب بهدوء على الإسفلت الذي بدأ يبيضّ شيئًا فشيئًا. الأضواء الملتهبة، تتقاطع، تتجاذب ثمّ تنكسر في شكل خطوط صفراء وبيضاء وحمراء، على الطريق والواجهات الزجاجيّة وعلى الحيطان الآجوريّة القديمة وعلى القنوات البحريّة المتعدّدة التي تجعل من أمستردام بحيرة عائمة.

ابتسمت حنين، رأيت نرجس تكتم عبثًا سعادتها وهي تعثر على قصيدة لشاعر مغمور.

–أنا استوليتُ عليك ولم أسألك إذا كنتَ تريد أن تبقى معي.

– هاه؟ بدأنا ندخل في الرسميّات. جئتُ معك لأنّي تحت وقع هزّتك العنيفة ولأنّي أشتهي البقاء معك وإلاّ كنت قلت لك بكلّ بساطة عذرًا.

– طيّب. عندك حقّ. إذن من الأفضل أن نمرّ إلى الكنال هاوس. نأخذ أغراضك وبعدها نصير أحرارًا. فأنا أقرب منك إلى المطار. أوصيت ماريتا أن تبعث سيارة المؤتمر إلى بيتي، فذلك أضمن. تصرّفت، كعادتي مع الذين أحبّهم، بدون أن أسألك.

– أنت لا تدركين قدر السعادة التي أنا فيها. أنا الآن طفل عمره أقلّ من عشر سنوات ويمكنك أن تفعلي بي ما تشائين.

ضحكت. كانت السيّارة تمرّ عبر المعابر الصغيرة لتندفن من جديد في زوايا تملأها السيّارات والإنارات المتداخلة. كنت أتلذّذ بصوت تمزّق البرك المائيّة تحت العجلات وأتساءل ماذا لو حكيت هذه القصّة لصديقي العشّي ماذا سيقول؟ كيف سيكون ردّ فعله؟ أنت تهذي. الصدفة لا يمكن أن تكون طيّبة إلى هذا الحدّ. التقيتَ بنرجس وأنت تبحث عن فتنة، يكفي من التخريف. أنت

هبلتُ. ومع ذلك يا صديقي العشّي، يمكن أن تجنّ الصدفة وتتيح فرصة للمستحيل.

صعدتُ بسرعة إلى النزل. الزمن كان يطاردني. لم آخذ نفسًا حتّى فتحت الغرفة. حقيبة متواضعة لا شيء فيها سوى قدر من شتات الذاكرة كافٍ لأن يجعلني أعيش على وقع البلاد البعيدة وألف رسالة حبّ مبعثرة وخيبات متتالية، لم تبعث أبدًا، وبعض زجاجات العطر الفارغة التي لم أتجرّأ على رميها ربّما... حمّلتها بعض الرسائل والأبجديات المبهمة على الرّغم من أنّي وعدت عزيز بالتوقّف حتّى أتلقّى ردًّا من فتنة أو من أيّ مجنون يعثر عليها.

بعدها، انعطفت السيّارة الصغيرة باتجاه الميناء القديم، على حافّة البحر، داخل المطعم المواجه لكنزة، زوجة الأمير الهولنديّ الحزين. هناك جلسنا، نتأمّل التمثال والثلج ونسمع تكسّرات الموجات القادمة من بعيد ونحاول أن نلملم ذاكرة متعبة. من حين لآخر تتقاطع نظراتنا. لا أستطيع أن أكفّ عن التساؤل إذا كانت حقيقة هذه المرأة هي نرجس التي عشقتها آلاف المرّات ولعنت ربّها آلاف المرّات لأنّها ملك لأشخاص آخرين في آخر الدنيا ولا أحد يعرفهم ولأنّها لم تردّ على رسائلي. واش حاسبة روحها؟ أم هي حنين الطيّبة والدافئة.

– تعرف يا ياسين، الأقدار غريبة جدًّا. في هذا البحر الساكن الآن، تنام عازفة البيانو. يبدو لي أنّ الفنّان من الأنانيّة والنرجسيّة بحيث لا يموت إلاّ ليدخل قلوب الناس أبدًا. ورياح الصدفة تأتي دائمًا لتكشف قدرًا ظلّ مدّة طويلة مخبوءًا. لولا الصدفة لما عرفتُ سرّ هذا التمثال الذي أمرّ عليه يوميًّا عشرات المرّات بدون التوقّف عنده. شطط الدنيا يحرمنا من متعة التأمل. وحتى عندما أتوقّف

لأقرأ فقط كلمات اللّوحة النحاسيّة التي كُتب عليها: [على هذه الحافّة تنام عازفة البيانو كنزة، زوجة الأمير الهولنديّ الحزين] تركت الحياة عشقًا فيه. قصص تقع يوميًّا مئات المرّات.

– ولكن لماذا سكتِّ طوال تلك الليلة؟ نرجس؟ ثم حنين؟ مخّي ملخبط لا أدري ماذا أقول.

–القصّة طويلة. الرّجال يعتقدون جازمين أنّهم هم من يخطو الخطوة الأولى باتّجاه المرأة التي يحبّون، هذا صحيح، لكنّ الخطوة الحاسمة تقوم بها دائمًا المرأة. قلتُ لك كنت أشتهي أن أسمعك لا أن أسكتك بأنانيتي. أنا عندما أتحدّث أصير أنانيّة فأعتقل محدّثي حتّى النهاية. بكلمة أخشن، روحي. ثرثارة. لو قلت لك ما كان في قلبي لصمتَّ ولأغلقتُ عليك أبواب ذاكرتك. هكذا أحسن. تعلّمتُ أنّ كلّ شيء يسبق وقته يأتي باردًا. أردت من صدفتنا أن تكون فوق لقاء عابر، لأنّها ليست كذلك.

– كان يمكنك أن تتكلّمي مثلما تشائين. هذه الصدفة كان يُحتمل أن تقتلني ولكنّها لم تفعل.

– أنتَ تقول هذا الآن، لكنّي كنت في حالتي الخاصّة. أشمُّ فيك رائحة كانت تأتيني من بعيد. أنصت إليك ومن خلالك إلى أنيني المتلاشي. أهلي؟ وطني؟ لا أدري. كنت أخاف البتر المؤذي لكلامك. أنا كذلك لا أريد أن أموت هنا، في هذه العزلة ولكنّي أعرف مسبقًا أنّي سأدفن كأيّ رقم وأُنسى بعد ساعات. الذين يتذكّروننا ماتوا أو حالهم أسوأ من حالنا. الناس عندنا لم ينتظروا الإرهاب ليندفنوا خلف الشبابيك الحديديّة، فقد فعلوا ذلك في وقت مبكّر. حياتهم تنتهي عند عتبات بيوتهم، الزبالة التي تملأ مداخل الدور لا تعنيهم في أيّ شيء. لا أدري من أين جاءتنا هذه

الأنانيّة ولكنّها بكلّ تأكيد لم تردنا من السماء. مدننا تشبهنا في كلّ شيء حتّى في أمزجتها المتبدّلة باستمرار. طرقاتها تُحفر اليوم وتُخسر الملايين لتحويلها إلى ممرّات جميلة للمشاة، ثمّ فجأة يتغيّر مظهرها مع مجيء الوالي الجديد فتصبح مسلكًا للسيّارات مرّة أخرى. يمكنك بكلّ بساطة أن تمرّ في طريق في الصباح وفي المساء تُبهدل بمخالفة لأنّ المرور ممنوع وكان عليك أن ترفع رأسك قليلاً لتقرأ التحوّلات. يشتمك الشرطيّ وهو يعطيك درسًا في المدنيّة: يا أخي واش بك؟ أنت مثقّف وترتكب هذه الأخطاء التي يستحي من ارتكابها الأمّيّ؟ شوف شويه قدّامك. تعلّم تقرأ الإشارات. الطريق ليست ملكًا لك حتّى تعبرها كما تشاء. قوانين الجمهوريّة يجب أن تُحترم. تلملم غيظك وتشكره على الدرس. ينتفخ قليلاً: هذه المرّة راني سامحتك لكن في المرّات القادمة ما عندي ما ندير. ويتركك تعبر. نحن في حالة العبث وأيّ نقاش لا يوصل إلاّ إلى مزيد من المزالق التي لم نعد قادرين على تحمّلها.

– الشرطيّ مثل الآخرين، عليه أن يُشهر سلطته، مهما كانت صغيرة، ليُشعر الآخرين بهيبته.

– تصوّر. كلّما عبرت شوارع العاصمة راجلة زاد ضيقي ويأسي. البلاد إذا استمرّت على هذه السيرة لن تطوّل كثيرًا. سيتآكل سكّانها كالجرذان. يا الله كيف سيكون غدنا؟ لا نغادر أرضًا كبرنا عليها، هكذا. أنا يائسة ومريضة بها. الغاشي في كلّ مكان، جيوش العاطلين يقبضون على الحيطان خوف سقوطها وينتظرون الفرج من سماء شحّت وصارت مثلنا. سيأتي زمن لن يجد هذا الجيش حلاً سوى الانتحار وحرق ما تبقّى من معالم المدينة. لقد خرجتُ تاركة ورائي الدار والدوار ولم أجرؤ على الالتفات. حتّى والدي

تركته وهو يلوك جملته المنهكة من كثرة ترددها: مش هذه هي البلاد اللي حلمنا بها. لا. وأمّي المريضة بالسكّر والتي عندما تذهب إلى المستشفى لا تجد دواءها، وتعثر عليه في السوق السوداء بالكمّيّات التي تريد وبأسعار خياليّة. هناك أدوية تدخل إلى المستشفيات ثم تخرج باتجاه المجهول قبل أن تُفتح الحاويات والكراتين. ورفيق، أخي الصغير، عزلته تعذّبني. لقد فقد علاقته بالمحيط نهائيًا. كان دافئًا وحسّاسًا كطفل وفجأة تغيّر. كان في سنته الأخيرة حقوق، عندما واجهته دوريّة شرطة وهو عائد إبّان أحداث أكتوبر ١٩٨٨. كان برفقة صديقته إلهام التي اختارت التدريس على مواصلة الدراسة. عاشقان في قمّة التماهي والسخاء. عندما رموه بالقرب من الدار، كان غائبًا عن وعيه. وعندما استيقظ أوّل شيء فعله، منَعَني ومنع نصيرة، أخته الثانية من الخروج من البيت. لم يعد يثق في أيّ شيء.

– إلى هذه الدرجة؟

– وأكثر. كلّما تحرّكت رافقني والدي حتّى يطمئن أخي. صدمته هي التي مرّضت أمّي بداء السكّر. بدأ يكبر ولا شيء في فمه إلاّ خطيبته إلهام التي تزوّجت سنة بعد الحادثة وهو إلى اليوم لا يعلم الحقيقة. في كلّ مرّة عندما يكون على ديدنه يسألني: إلهام لم تعد تأتي إلى البيت. هل أغضبها أحد؟ وأؤكّد له أنّها منشغلة فقط ووالدها صعب. في مرّة من المرّات، كانت أمّي قلقة ومتعبة وذكر أمامها قصّة إلهام، ردّت عليه بعنف، ندمت على فعلها فيما بعد: واش بك أنت؟ ولّيت مهبول؟ هي في فراش عريسها وأنت مازلت ضايع؟ تألّمتُ كثيرًا عندما رأيته يبكي كطفل يتيم لا يملك لغة مشتركة مع الآخرين. منذ ذلك اليوم اندفن داخل الصمت ولم يعد

يسأل أبدًا. يخرج في الصباح الباكر ويذهب إلى الثانويّة التي كانت تدرّس فيها. يقف النهار كلّه في انتظار مجيئها وعندما ينزل الليل يعود إلى البيت منكسرًا. ينام على بكائه. وفي الصباح الموالي يقوم بالشيء نفسه. من يعوّضني في أخي؟ ذهبت حياته مع الريح. قتلوه بدون أن يكون له الحقّ في معرفة وجه قاتله. لقد سرقت البلاد طفولته ونعومته. واش تحب ندير؟ حتى والدي المريض من قلبه احتجّ لدى أصدقائه المجاهدين القدماء الذين تأسّفوا على الحدث ثمّ نسوه مع أوّل عشاء رسميّ عُزموا عليه. أبي كان كلّما رآه، اشتعل من الداخل كالحطبة اليابسة. قبل أن تأخذه غصّة أخي، كنت أتمنّى أن أفرح بعيده الثمانين ولكنّه ذهب قبل ذلك. اشتريت له الشموع والعطور التي كان يحبّها والألبسة التي كان يتشوّق إليها لكنّه ترك كلّ شيء وانسحب على رؤوس أصابعه حتّى لا يوقظ أحدًا. اغتيال الرئيس بوضياف على مرأى الجميع آذاه كثيرًا وزاد من حزنه. فقد كان صديقه أيّام الثورة. منذ ذلك اليوم لم يعد للجزائر أسرارها. فقد تعرّت للمرّة الأخيرة وتحتاج إلى زمن طويل لتتدارك فقدانها. كان يقول لي لحظات نشوته: تعرفين يا نادية لماذا سمّيتك حنين؟ أقول نادية لأنّ هذا اسمك الحقيقيّ ولكنّي عندما وصلت إلى البلديّة خادعت الجميع بمن فيهم أمّك. وسمّيتك حنينNostalgie . في الكلمة كنت أقرأ بعض الوفاء للذين ماتوا بدون أن يروا أبناءهم الذين وُلِدوا بعدهم. ستكبرين يا حنين وتعرفين كم أنّ الذين ماتوا كانوا أفضلنا جميعًا. ستذهبين إلى الجامعة وتسكنين العمارات النظيفة وسيكبر أطفالك في حضنك وتفرحين بهم وأنت تودّعينهم كلّ صباح وهم يتوجّهون إلى المدارس. عملك محفوظ في بلد آمن. الناس فيه يتقاسمون

المحبّة والمودّة وحتّى عندما يتخاصمون يتسابقون إلى الصلح وكلّ واحد يريد أن يكون هو الأوّل. عندما كان والدي في عزّ اليوطوبيا كان لا يتوقّف إلاّ إذا سكر بأحلامه. ثمّ عندما فوجئ بالبلاد تحترق، وبالذين حرّروا البلاد يتقاسمون دمها وحليبها المرّ، انكمش على نفسه ولم يعد يتحدّث إلى أحد ونسي الحلم نهائيًّا قبل أن تأخذه الخديعة القلبيّة. كنت أحسّ، كلّما تأمّلته، بالموت يدخله من عينيه اللتين ذبلتا بسرعة. وعندما أسمعه يكرّر جملته الحزينة: مش هذه هي البلاد التي حلمنا بها. أخرج حتّى لا أزيد من ألمه الحارق. عندما أصيب بالوعكة القلبيّة الأولى، كنت بأرض المنفى المرّ، قلت له:

– بابا واش راك. انجي نشوفك ونرجع.

ردّ عليّ بكلّ هدوء. كدت أصرخ لأنّي لم أعد أعرف والدي:

– لا. لا. يا نادية. خلّيك في مكانك. زلزلة وتفوت. لسانك طويل وقلبك حارّ ولو جئتِ إلى هنا ستقتلين في اليوم الثاني. إذا تحبّيني، ما تجيش الله يحفظك. البلاد تغيّرت كثيرًا.

هذا الرّجل الذي إذا تأخّرت دقيقة، خرج ورائي بعصاه يقتفي خطاي، ينصحني بالبقاء. كلّ هذا كان يعني أنّ البلاد تغيّرت بالفعل كثيرًا.

– الذي كان يحدّثك، ليس والدك الذي تعرفينه ولكن الرّجل الذي خسر وهم اليوتوبيا.

– حتّى مرضي الذي كان قد بدأ ينهش صدري خبّأته عنه حتّى لا أزيد في حزنه. وعندما مات لم أره. اكتفيت بأن سلّمت على قبره وبكيت ثمّ اعتذرت له على ضعفي هو الذي كان يريدني قويّة دائمًا. هل تريد حزنًا أكثر من هذا. لا أدري لماذا أفسد عليك

أشواقك التي جئت بها؟ الجزائريّ وطنيّ من طراز غريب. نحن هكذا في هذه البلاد، نقتل أرضنا ونخرج إلى الشارع ننشد القسم الوطنيّ ونتقاسم قهوة المساء. نتحدّث عن الذين خرّبوا البلاد وعن العشريّة السوداء ولم أسمع إلى اليوم مسؤولاً واحدًا من المنتقدين يعترف أمام الملأ بخطئه. الواقف يمسح الموسى في الطّايح. وكلّهم لا يختلفون عن بعضهم البعض إلاّ قليلاً.

– بل ويقتل وهو على يقين أنّه لم يفعل إلاّ ما كان يجب فعله. لا يتردّد حتّى في قتل نفسه. حالة انتحاريّة لا أدري من أين أتت ولكنّ المؤكّد أنّها ثقافة انغرست فينا بدءًا من البيت والمدرسة وانتهاء بالشارع.

– بوف. كم أتمنّى أن لا أتكلّم أبدًا عن هذه الأحزان وأن أستمتع معك باللحظة التي بين أيدينا لكن عندما نُصاب بداء المنفى تتضاعف قدراتنا على الكلام أو الصمت، بحسب الناس الذين معنا. أشعر بالضيق في الأماكن المغلقة وكلّما فتحت النوافذ شعرت باتّساع الدنيا.

أزحت تلقائيًا الستار، قليلاً، بالقدر الذي يجعلني أرى تمثال عازفة البيانو كاملاً، في بهائه وفي تأمّله وحنوّه إلى الموجات الهاربة باتجاه وجهة غير معروفة. كنت أقف على حافّة الشوق والقلق. أتساءل أحيانًا ألسنا ساديين؟ نتلذّذ للألم الذي ننشئه من قصصنا وحكايانا؟ ألم يكن من الأفضل السكوت على كلّ هذه الآلام التي نقضي العمر في تقصّيها وعندما تستيقظ فينا دفعة واحدة لا نستطيع تحمّلها؟ ألم يكن من الأجدى أن نتمرّن أكثر، نحن الذين نبتنا في الخوف، على محاولة الاستمتاع كبقيّة الخلق باللحظة التي لا تتجدّد بسهولة؟

– أنتَ قلتَ لي في تلك اللّيلة أنّك تخاف من قلبك أن يتخلّى عنك في أكثر اللّحظات سعادة، وأنّك عقدت ميثاقًا معه، أن يتعامل معك مثلما كان يفعل أجدادنا عندما يسافرون لمدّة طويلة، ينسحبون ليلاً حتّى لا يوقظوا فضول الناس وحزن الأقربين، وحتّى يستطيع الجميع تحمّل قساوة الفراق ويبكي من يريد أن يبكي بدون أن يراه الآخرون. أنا لست مثلك. لا أملك هذا الحظّ السعيد. أنا امرأة تنتظر مرور الخمس سنوات لتتأكّد أنّ الحياة مُنحت لها من جديد. أحسب مرور الأيّام لأخلص نهائيًا من هذا السرطان، إمّا أن يأخذني مرّة واحدة أو يتركني وشأني أعيش وأموت كما أشتهي. وأنسى أنّ العمر يمضي بسرعة ونحن في حالة ترقّب.

– عفوًا...؟

لم أجد كلماتي عندما سمعت كلمة سرطان. ننسى دائمًا أنّ الناس الذين نحبّهم أو نشتهيهم لا يمرضون أبدًا، وهم مثلنا جميعًا معرّضون لكلّ المخاطر والزلازل العنيفة.

تمتمت وأنا أتمنّى أن لا تكون حنين قد سمعتني:

– وهل زرتِ طبيبًا مختصًّا؟ تعرفين أنّ السرطان لم يعد مرضًا مستعصيًا.

– قصّة طويلة. كلّ شيء بدأ بدملة صغيرة على الجانب التحتيّ للثدي. لا أحبّ كلمة ثدي، تذكّرني بأمّي وبمرضعات الحيّ ذوات الأثداء الكبيرة المتدلّية. المرأة لا تحمل ضرعًا ولكن جزءًا يوقظ الأمومة ويوقظ حاسّة الحبّ. كلمة نهد حسّيّة أكثر وجميلة، لأنّنا قد نعثر على ضرع آخر في الحليب الاصطناعيّ لكنّ النهد عندما ينسحب قد يسمح لنا بالحياة ولكن بدون لذّة كبيرة ونحتاج

إلى قدر كبير من الشجاعة وقبول الذات لندرك أنّنا ما زلنا قادرين أن نحبّ.

– بعد الدّملة، رأيتِ طبيبًا؟

– تصلّبت الدّملة مع الزمن وصارت تؤلمني. عندما سألت الطبيب أوّل مرّة. قال لي حتى الآن لا يوجد خطر عليك ولكن إذا كبرت وتصلّبت وصارت تؤلمك، تعالي. وبدأت تكبر وتؤلمني وبيّنت التحاليل هذه المرّة أنّ الخطر الذي كان احتمالاً صار فيَّ وأنّ البتر الجزئيّ، ثمّ الكلّي للنهد الأيسر، صار ضرورة. قلت أفضّل الموت على أن يُبْتَر جسدي. في الليل صرخت وصرخت ولم يسمعني أحد: يا ربّي وعلاش أنا بالذات وعندما كرّرت نفس الكلام على الطبيب النفسانيّ الذي بعثني عنده طبيبي الخاصّ قال كلمة بسيطة، كنت عمياء عن الإحساس بها: ولماذا الآخرون دائمًا؟ نعم لماذا الآخرون فقط؟ من أكون أنا حتّى أُستثنى؟ كلّ واحد يشعر بنفسه أنّه المستهدف الوحيد. فكّرت في الانتحار لأنّي كنت أرفض أن أكون امرأة ناقصة. امرأة كاملة أو لا شيء. الفريق الهولنديّ الذي استقبلك والذي أشرف على تنظيم هذا الملتقى، كان سندي الكبير وإلاّ لكنت اليوم داخل هذا البحر وربّما إلى الأبد ولن تعثر على من يعرّفك على نرجس، هناك بعض الأسرار تُدفن أبدًا مع أصحابها.

بحركة لاشعوريّة، انزلقت عيناي إلى صدرها. رأيت نهدين ناضجين ينامان تحت هذا اللباس القطنيّ الأحمر واستقامة جسديّة أصغر من العمر الفعليّ لحنين. كانت تتكلّم بحرقة وبهدوء يندر أن يوجد عند من ينتظر الموت.

– كلّ مساء عندما أقف أمام المرآة أرى المشرط الحادّ وهو

يستأصل النهد. أتحسّس لحمي برؤوس أصابعي. أحس ببرودة جسدي على غير العادة. أنزف مثل المقتول. أقسم لك إنّي كنت كلّما فعلت ذلك أشعر بالآلام الحادّة لدرجة الصراخ ثمّ أُفاجأ بنفسي أقف وحدي أمام المرآة كالمجنونة. تعرف ما الذي آلمني أكثر؟

تصمت قليلاً، تمسح دمعة انكسرت عند طرفي العين اليمنى.

– أنّي لم أُرضع أحدًا. الأمومة إحساس غريب. تستطيع أن تضحك عليّ ولكنّي كم اشتهيت أن أفعل ذلك. أن آخذ طفلي بين يديّ وأحسّ بأصابعي وهي تضع النهد المضغوط في فمه ثمّ وهو يتحسّس الحلمة بين شفتيه الرخوتين اللتين تولّدان إحساسًا باللذّة والألم. تصوّر؟ وصلت بي الحالة أن صرت أرى نفسي بشعة وغير مرغوب فيها. امرأة ناقصة.

– حالة القلق والوحدة.

– أكثر من ذلك كلّه. أشعر أحيانًا أن الله نفسه متواطئ ضدّنا ويستهدفنا في أجمل ما أعطاه لنا. أصل الغواية نهد وليست تفّاحة. لا أرى آدم يذهب نحو حوّاء بسبب تفّاحة وإلاّ سيكون غبيًّا بالفعل. المنفى والهمّ لكحل. أحيانًا أشتم غبائي ورشيد، زوجي، وأقول إنّ همّه هو الذي قادني إلى هذه المنافي وهذا الموت البئيس وفي أحيان أخرى أعذره. هو كذلك كان مريضًا بطريقته بتلك الأرض. ربّما يكون اليوم قد مات أو قد قُتِل ولا أريد أن أتحمّل ذنب دمِّه. مأساتي تكفيني.

كانت تتكلّم وكأنّها حفظت كلّ التفاصيل عن ظهر قلب. بينما كانت الكلمات تهرب منّي. في لحظة من اللحظات عندما انعكس ضوء إحدى السفن على تمثال عازفة البيانو رأيتها تشيح بوجهها

عن البحر قليلاً وتلتفت نحونا للإصغاء إلى آلام حنين. حنين تعتقد أنّ الدنيا لم تمنحها كثيرًا من الحبّ ولكنّها تتحمّل كلّ اختياراتها. كان يمكن أن تظلّ امرأة عاديّة تطبخ وتسوّي سرير زوجها وتنام في أحضانه عارية وتنجب له ما تعشقه العين ويحبّه الخاطر، من البنين والبنات ولكنّها اختارت مسلكًا كانت تعرف صعوبته. الماضي لم يترك لها صورة واحدة قابلة لأن تتذكّرها بحبّ وتعيش عليها بقيّة العمر.

– وحياتك لم يترك شيئًا مهمًّا نبكي عليه في لحظات العزلة. اليوم الذي اكتشفت فيه نفسي امرأة بدون نهد تأكّدت للمرّة الأخيرة أنّي لم أكن إلاّ رقمًا ضئيلاً في حسابات الله. لقد سرق منّي الحقّ الأوّل في الغواية. تعرف يا ياسين، مرض القلب يعطي لصاحبه فرصة التعويض. تعايشه ويعايشك وعندما يتعب يذهب دفعة واحدة ولكنه لا يتركك، فهو يظلّ فيك. لكنّ السرطان هو الصورة العليا للساديّة الإلهيّة. يعذّبك ويشوّهك قبل أن يجهز عليك. سنة وأنا كلّ يوم أتلمّس صدري الممسوح وأكتشفه كلّ صباح في المرآة، أبكي وأنتظر مثلما كان يقال لنا ونحن أطفال إنّ الله سيُنبت لنا نهودًا مثل التفّاح ونحن غافلون، تنهض النبتة في شكل فولة ثمّ تتحوّل إلى جوزة ثمّ برتقالة وبعدها تتصلّب لتصير بمتانة واستدارة التفّاحة وجمالها. لا أدري لماذا يعود لنا هذا الإحساس الطفوليّ ونحن نحاول يائسين خوض الحرب القلقة ضدّ اليأس. سنة بكاملها، وأنا أنتظر يوميًّا أن أستيقظ صباحًا وأجد أنّ نهدًا آخر قد نبت لي مثلما يحدث مع الأشجار التي تقطع منها بعض فروعها وأغصانها. ثم اقتنعت بعدها أنّ الدنيا لن تغيّر مجراه، إمّا أن أقبل بنفسي كما أنا أو أنتحر. حمدت الله، الذي

أغضب منه من حين لآخر، أنَّ صدري لم يُمسح كلّيّة ولم أُفرغ من أحشائي كالدجاجة كما حدث للكثيرات. وتشعنقت بالكتابة حتى لا أسلّم نفسي للموت هكذا بكلّ بلادة. الكتابة منحتنى الفرصة ليس للحياة ولكن على الأقلّ لتحمّل شططها. لأنّك لا تعرف الحياة حقيقة إلاّ عندما تخسرها أو تخسر جزءًا منها. كلّ شيء يمرّ عليك عاديًا ولكنّك عندما تتعرّض للبتر والفقدان، تعرف كيف يحسّ الذي تصادفه يوميًّا عند مدخل سوق ما أو في منعطف زاوية مهملة وهو يجرّ رجلاً واحدة أو وهو يحني رأسه يصبّح عليك ثم يمضي لكي لا ترى أنّه لا يملك إلاّ عينًا واحدة. أو وهو يصافحك واضعًا كمّ اليد الثانية في جيبه وأنت تعلم أنّها مقطوعة... أنت لا تعرف سرّ الضبابة التي تملأ قلوبهم وتمسح أحيانًا ملامح وجوههم إلاّ عندما تسلك هذا الطريق المضني.

– عذرًا أيقظت فيك حزنًا أنتِ بدأت تنسينه.

تمتمت بهذه الكلمات بدون قناعة كبيرة. ما كنت أسمعه كان أكبر من هذه الملاحظة الباردة. قاموسي كان مثل البركة الناشفة، جافًّا. لم أكن أمام نرجس التي تقرأ الشعر والكلمات العاشقة وتدحرج الناس نحو عوالم لغويّة من السحر بها غابات جميلة وخلجان ومياه وعشّاق يستحمّون كلّ مساء بأشعّة الشمس ولكن أمام امرأة تستعجل الأيّام لتعرف للمرّة الأخيرة، هل أُجّلَ موعدها مع الموت أم أنّه آن ولم يعد ممكنًا زحزحته دقيقة واحدة.

– أنتَ مثلاً، منذ عشرين سنة وأنتَ تركض وراء حزنك بحثًا عن عزاء، فهل نسيتَ شيئًا؟ لا ننسى أبدًا ولكن نغمض أعيننا قليلاً لكي نستطيع أن نعيش. أعذرني. فقد نغّصت عليكَ أمسيتك الأخيرة. قبل قليل، قبل أن تُسدلَ ستائر الميوزيكشياتر، كنتَ طفلاً

من شدّة الدهشة وأنتَ تكتشف أنّ ما اعتقدتَه ميّتًا، ما يزال فيك بنفس الأحاسيس ونفس اللّذّة، وها أنذي أسحبك بعنف نحو شيخوخة مقلقة. لا أدري فأنت الرّجل الأوّل الذي أحسّ أمامه برغبة في الكلام حتّى أن تروي لي قصّتك مع نرجس. الإنسان عندما يضيّع ثقته في نفسه يضيّع كذلك ثقته في النّاس. أجد فيك ما لا أجده في الرّجال الذين أصادفهم يوميًا. أكلّمك بصراحة، فأنا قد وصلت إلى سنّ الكذب يصير فيها مكشوفًا ونعبث إذ نظنّ أنّ أسرارنا صارت محفوظة. يا حبيبي هذا عين الوهم، فعيوننا مرايانا. صحيح أنّي أؤجّل موعدي مع الموت كلّ يوم ولكن صحيح كذلك أنّ موعدي مع الحياة لن أخلفه. هل تعرف مقدار هذا الشطط اليوميّ وأنت تحاول أن تقنع نفسك كلّ ثانية، كلّ دقيقة وكلّ ساعة، أنّ ما حدث لك حدث للآخرين وبدرجات أسوأ، أنتَ على الأقلّ أمامك فرصة الحياة أو بعض منها فلا تخطئ حيث الخطأ غير مسموح. جميل أن تستيقظ ذات صباح وأنت تكتشف فجأة أنّ الدنيا ليست مغلقة وأن الذين أعطيتهم شعرًا ذات ليلة يهدونك اليوم أجمل هديّة في الحياة: الرّغبة في العيش. أنا مثلك تمامًا. أريد أن أنسى أنّي هنا وأنّي كنت هناك. أرض الكاتب لغته ليس إلاّ. الحياة استحقاق كما كنتَ تقول، وأنتَ لا تُمنح هذا الحقّ إلاّ إذا عرفتَ قيمته.

– الذين يحبّونك كثُر، لا يمكن أن تصير فجأة ذاكرة البشر مثل السطل الفارغ. أنتِ أعطيت للنّاس فرصًا للهرب نحو اللغة والشعر، من حقّك اليوم أن تستيقظي وتجدي على أطراف سريرك من يقبّلك على جبهتك، يترك لك باقة ورد ويشكرك ثمّ يمضي بدون أن يطالبك بمقابل.

– الأصدقاء؟ يكثّر خير ناس هذه البلاد الطيّبة. لا أحد يسأل عنك، حتّى الذين يعرفونك يتحاشونك تفاديًا للإحراجات. أنت تعرف، كلّ شيء يُخبّأ إلاّ المرض والموت. حتّى سعادتك المفرطة تستطيع أن تلجمها لكن شقاءك أنتَ لا تملك حياله شيئًا، عليك أن تواجهه وحدك والناس يعلمون أنّك وحيد في المحنة. لا شيء يعوّض شيئًا. الأشياء تزاحم بعضها البعض ولكلّ واحدة مكانها فينا. وحتّى نقهر أنانيّتنا نحتاج إلى قدر متعاظم من الحزن لندرك كم أنّ النّاس كذلك يحزنون مثلنا أو أكثر. لم أكن هاوية للمنافي ولكن خياراتي كانت ضيّقة وكان عليّ فوق كلّ هذا أن أتحمّل كلّ التبعات. حاولت أن أغمض عينيّ عمّا كان يدور من حولي ولكنّي لم أستطع. المَخْرج الوحيد الذي كان أمامي ولم يكن أمام عازفة البيانو هو أنّي كرهت زوجي. إمّا أن أبقى معه أو أنتحر وأسهّل له مهمّة العيش بدون عقدة ضمير. وصمّمت أن أخرج من يديه للمرّة الأخيرة. وعندما نفتح هذا الباب لن ينغلق حتّى في حالة الصلح المتكرّر. لمّا أخبرته بنيّتي، ضرب رأسه على الحائط حتّى شعرت به ينفجر ويتشلأ مزقًا. لا أعرف من أين تأتي كلّ هذه الساديّة التي تدفع بصاحبها إلى عمل انتحاريّ غير محسوب العواقب. ثمّ جلس على الأرض وبدأ يبكي كطفل صغير ويشتم نفسه وأهله الذين ربّوه معقّدًا. يبدو أنّنا في وطننا لا نعرف معنى الحياة مع النّاس الذين نحبّهم. لا نعرف قيمة الأشياء إلاّ عندما نفقدها. وعندما يكون بين أيدينا، لا نعرف كيف نحافظ عليه لأنّنا نظنّه مكتسبًا إلى الأبد ولا نرتاح إلاّ عندما ندمّر جزءًا مهمًّا من أنفسنا. الحبّ كأيّ شيء ثمين، نادر وطارئ في الحياة، علينا أن نرعاه باستمرار ونحفظ هشاشته من التلف السريع. وعندما

ألتفت نحوه وأراه وحيدًا ومنكسرًا، أعود إليه وأنسى بسرعة أذاه. ثمّ يتغوّل عليَّ من جديد وينسى أنّه انكفأ وبكى عند قدميّ وأنا لم أطلب منه يومًا أن يفعل ذلك. في المرّة الأخيرة كان قراري حاسمًا لأنّي لم أعد قادرة على التحمُّل. لا أدري من أين جاءتني كلّ تلك الشجاعة أنا الهشَّة تجاه حزن الآخرين. ربّما لأنّي، في ذلك اليوم تحديدًا، تذكّرت كلّ سيّئاته دفعة واحدة. وكلّما وجدت له شيئًا جميلاً محوته بعكسه. ثمّ اكتشفت فجأة أنّ هذا الرّجل الذي قتل فيَّ الشعر كان هو نفسه من علّمني الكراهيّة.

السكّير الذي دخل المطعم بشكل فجائيّ، قطع علينا الحديث. ولمّا رأى عينيّ حنين الحمراوين، لم يقل شيئًا ولكنّه نظر مليًّا إلى وجهينا. ثمّ تمتم بكلمات مفكّكة ولكنّها كانت واضحة.

– مساء الخير أيّها الغرباء. أنتما لستما من هذه المدينة؟

– نعم. ردّت حنين. غريبان يبحثان عن قليل من الدفء وسط هذا الصقيع.

ابتسم ومنح الوردة التي كانت بيده إلى حنين وخرج ونسي أن يطلب ثمنها. نادته حنين وهي تضحك.

- Monsieur! votre argent ? vous ne distribuez pas les fleurs comme ça!

- Non. C'est pour vous éviter les peines de la vie. Profitez de cette nuit, il est encore temps, étrangers.

وهو يخرج، زاغت عيناي مرّة أخرى نحو البحر. بحثت عن عازفة البيانو، كانت قد اختبأت نهائيًّا تحت ضبابة ثلجيّة كثيفة. لاحظتْ حنين التفاتتي الخاطفة وبحثي اليائس عن العازفة على حافّة البحر. ضاعت مثلما تضيع نجمة البحار وسط هول الموج.

– شفتْ؟ سكاراهم على الأقلّ يهدونك ورودًا. أصحّاؤنا لا

يرتاحون إلاّ إذا أهدوك قبرًا. أتعبتُك.

– أبدًا. تعرفين أنّنا عندما نرحل لا نأخذ معنا إلاّ قصصنا اليتيمة التي نصارع بها الأقدار الصعبة.

– كنتُ صغيرة. طفلة بأتمّ معنى الكلمة.عشقي للعمل في الإذاعة منعني من رُؤية النّاس على حقيقتهم. النّاس كانوا بالنّسبة لي لغة أصنعها كلّ مساء وأشكّلها كما أشتهي. الخيبة هي التي قادتني إلى الإذاعة. كنت أعيش مع صديق كان يجدني شابّة متحدّية وشجاعة. عيبي أنّي كلّما رأيت رجلاً جميلاً، كلّمته لأقول له إنّه بكلّ بساطة جميل. وذات مرّة سألني إذا كنت أشتهي الذين أحدّثهم. ضحكت من غبائه. قلت له إذا كان الأمر كذلك، عليَّ من الآن أن أبحث كيف أورّث ابنتي، فالقائمة طويلة وعمرٌ واحد لا يكفيها. كنت أمزح طبعًا وكان يأخذ كلّ شيء مأخذ الجدّ. وذات صيف اكترينا خيمة وقضينا عطلة الأسبوع في البحر. لأوّل مرّة نجد نفسينا في سرير واحد. في صباح اليوم الثاني كنت قد فقدت بكارتي. بكيت ولكنّه طمأنني أنّ المسألة سخيفة ما دمنا سنتزوّج. بعد شهر بالضبط جاءني بكلام ليتني ما سمعته وأنّ أمّه اختارت له ابنة خالته. احتفظت بغصّتي في القلب ونسيت بسرعة أنّي عرفت رجلاً يشبهه. أقسم لك أنّي لا أتذكّر اسمه ولا أجهد نفسي لفعل ذلك. وجدت منفذي في الإذاعة. كنت في حاجة إلى شيء يهزّني وينسيني الوقاحة المتعاظمة. ودخلت اللغة في وقت مبكّر حتّى أتطهّر من بؤسهم وظلامهم. خمس سنوات كانت كافية لأغسل فيها مخّي من كلّ الشطط. للأسف، المنعطف الذي لم أعرف كيف أتفاداه جعلني ألتقي بالرّجل الذي سيصير فيما بعد زوجي. رشيد. كنت صغيرة وهشّة وكان صحفيًّا متميّزًا وشجاعًا.

الوحيد الذي تخرّج حقيقة من الصحافة داخل تلك المؤسسة المملوءة بالموظّفين المستعاشين وقليل من الفنّانين الذين يحبّون عملهم. كان يوميًّا يجد لذّة في الاستماع إلى تخاريفي وقصصي التي لا تنتهي. حتّى تجربتي الصغيرة مع الرجل الذي نسيته بسرعة، أخذها بمأخذ السخرية. قال جيد أنّك نسيت كلّ شيء. الجرح لكي يُشفى نحتاج أوّلاً إلى نسيانه. عندما اقترح عليَّ الزواج لم أكفّ بدوري عن الضحك. لكنّ رشيد كان جادًّا ولم يكن يحلم. عندما فاتحت أمّي لم تمانع. وسألت أبي، قال لي: عندما أردت أن أتزوّج بأمّك، سألتها ولم أسأل أحدًا غيرها. وتزوّجنا. قلت الفسحة الوحيدة للشعر، معه أستطيع على الأقلّ أن أكون أنا. كانت علاقاته واسعة ويفتخر بي عندما يدغدغ الناس أنانيّتي الصغيرة وهم يتحدّثون عن برنامجي: آخر الليل. حتّى صار الناس الذين يقدّمني لهم يهتمّون بي وينسونه هو. بدأت الغيرة تشعله من الداخل وكأنّنا في حرب لا تنتهي. في البداية منعني من المشاركة في اللقاءات الثقافيّة خارج العاصمة بحجّة أنّها فاسدة وأنّ لي اسمًا إذاعيًّا عليّ أن أُحافظ عليه. لم أقتنع كثيرًا ولكنّي تنازلت لرغبته ونسيت أنّ المرء عندما يتنازل مرّة واحدة سيُطالب بتنازلات أخرى. فالسابقة خطيرة. بدأت أشعر أنّي تحوّلت إلى جزء من الأثاث العامّ للبيت. ثمّ حدث ما كنت أتخوّف منه. حاول أن يقنعني بضرورة التخلّص من العمل الإذاعيّ. المرّة الوحيدة، بعد سلسلة التنازلات، التي أوقفته فيها. أبدًا. كلمة واحدة كانت كفيلة بأن تجعله يقاطعني شهرًا بكامله قبل أن يعود من تلقاء نفسه. كنت أذهب إلى الإذاعة ليس كالمرّات السابقة. أدخل الأستوديو وفي رأسي رغبة في الحديث عمّا يملأ قلبي الصغير. تخيّل امرأة يظنّها

الناس تحكي أدبًا وهي تضع كلّ حميميّاتها بين أيديهم. لم يعد يزعجني ولكنّه كان في كلّ مساء يأتي بأصدقائه، يقول عنهم إنّهم أصحاب الحلّ والرّبط في هذه البلاد، بينما كنت أراهم مجموعة من اللصوص والبقّارين. صحيح أنّه لم يكن يشبههم ولكنّه كان يسير على هديهم. البقّار لا يولد بقّارًا ولكنّه يتعلّم حتّى يصبح كذلك. في لحظات صفائه، كان يقول عنهم إنّهم سخيفون وإنّ ذكاءهم ينحصر فقط في خصياتهم وذكورهم ولكنّهم ملاّك المدينة وإنّ أيّ مشروع صحيح يمرّ عبر رضاهم. بقّارون، ضبّاط متقاعدون، ملاّك أراضٍ، مسؤولون في الولايات والبلديّات، محامون وقضاة. هؤلاء هم من يفكّر في مصير بلاد على حافّة القبر؟ تعبت. قال إنّه يتحمّلهم من أجلي. ألم أكن أحلم بمجلّة عن المرأة؟ وذات مرّة صرخت في وجهه بأعلى ما أملك من قوّة: ولكن ما قلتلكش نحّي سروالك أمام جهلة. يرحم والديك إنسَ حكاية المجلّة. أنا مليحة كما راني في الإذاعة. أموالهم تبيّضهم وتعلّي شأنهم أمّا أنت فلا تساوي شيئًا بدون قلمك وشجاعتك. إحذر، عندما يستهلكونك يتركونك تموت. لم أعد قادرة على تحمّل فظاظتهم. كانوا يتقاسمون البلاد وأموال العباد في الفيلاّت المغلقة التي امتلكوها بالقرارات الوطنيّة الكبرى والدينار الرمزيّ، يعيشون بين المطارات الدوليّة والموانئ، التي عندما حُرِّرت التجارة الخارجيّة، كانوا أوّل من استولى عليها وأصبحوا يستوردون ما تحتاجه السوق الوطنيّة. لقد صاروا يستأجرون سفنًا بكاملها ويحتكرون استيراد السكّر والزيت والأدوية ومواد البناء والإسمنت والعقارات وقتلوا كلّ المصانع الوطنيّة. كلّ من سار في خطاهم هو حبيبهم وكلّ من خالفهم قتل بكلّ بساطة. أتذكّر الآن

جارنا سيّد علي، في حمأة الاستيراد، فكّر أن يستثمر تركة والده، فاستأجر سفينة واستقدمها للجزائر بعدما ملأها سكّرًا، في عزّ الأزمة. السفينة لم تدخل الميناء. أُجبِرت على البقاء بعيدة بحجّة أنّ السكّر الذي كان بها مدوّد وغير صالح للاستهلاك. بعد شهر من الانتظار، اضطرّ إلى رميه في البحر والانتحار بنفس الطريقة، أو على الأقلّ هكذا كانت تقول الرواية قبل معرفة الحقيقة من فم رشيد نفسه. الناس صاروا يعرفون قصّته، كلّما ورد اسمه، قيل إيه... هذاك المهبول اللي رمى نفسه في البحر. كلّما مرّت الأيام، كان رشيد يشعر بأنّ النّار كانت تقترب منه وأنّ هؤلاء الناس لا يتراجعون أمام أيّ شيء. القتل بالنسبة لهم مجرّد لحظة وبعدها يعمّ الصفاء وكأنّ شيئًا لم يكن. وعندما قال لي في ذلك المساء الذي صار اليوم بعيدًا، وكان وجهه أصفر مثل وجه الميت، لنغادر هذه البلاد، أرض الله واسعة وعندي من الإرث العائليّ ما يعطيني فرصًا أخرى للحياة، شعرت به لأوّل مرّة صادقًا فيما كان يقوله. في المساء نفسه أخبرني بأسرار كثيرة وفي كلّ مرّة يكرّر كلمته المعتادة: أرجو أن يبقى هذا الكلام بيني وبينك. كان الخوف يخرج من عينيه. في لحظة من اللحظات، أشعرني بأنّي كنت أمام الشاب الذي التقيت به لأوّل مرّة عند مدخل الإذاعة وهو يتحدّث لي عن الحياة وعن الأمل وعن الخيبات: تعرفين يا حنين، هذه أخطبوط، ستأكل الأخضر واليابس قبل أن تندثر. أكثر من المافيا. للمافيا تقاليدها، وهذه لا لغة لها إلاّ القتل والصفقات. يكفي أن يُشكّ فيك لتُمحى نهائيًا. البلاد صارت بلدانًا وجزرًا، تقاسموها. حدّثني عن السّوق الوطنيّة التي أصبحت بين أيديهم، عن مدير الجمارك الذي اغتيل لأنّه كان يملك حقائق كبيرة ورفض أن

يدخل معهم في لعبة الإغراءات، عن جارنا سيّد علي، مستورد السكّر الذي لم ينتحر ولكنّه عندما رفض الخيارات التي وضعوها بين يديه، إعادة السلعة إلى مرسيليا أو بيعها لهم، رُمِي في البحر الجميع ولم يحرّك أحد ساكنًا. كم تغيّرت تلك الأرض؟! الناس في بلادنا تواطأوا مع الشرّ ولم يعد أحد يسأل عن أحد، وعندما يتواطأ المواطن مع الشر، فلا حلّ لك. فإمّا أن تُقتَل أو تَتَسخ أو تهاجر. ونحن هاجرنا. كلّما جئت إلى هذا الميناء القديم، أشعر برغبة لا تُحدّ للحديث والندب لأنّه في كلّ يوم يتأكّد لي أنّي سأموت غريبة على هذه الأرض، بعيدة عن كلّ ما يذكّرني بطفولتي وحماقاتي الأولى. وستأكلني تربة أنا غريبة عنها مع أنّ لحمي معجون داخل هواء آخر. حسنًا فعل، عبد الرحمن، الفنّان الذي حدّثتني عنه عندما تحوّل إلى كمشة رماد دُفِنتْ على حافّة البحر المنسيّ. لقد عرف كيف يحمي نفسه من الدّود.

– حالة عبد الرحمن تلخّص يأس الجزائريّ بامتياز. كيف صنعوا منّا أشكالاً قادرة على تدمير نفسها لحظة الخيبة. لم يجد عبد الرحمن أمامه شيئًا آخر سوى الاندثار.

– لا. الحياة تقترح علينا دائمًا البدائل المتعدّدة ولكنّنا نحن الذين نختار الموت الذي نشاء. أنا على يقين أنّ عبد الرحمن قبل أن يقدم على إنهاء حياته بهذه الطريقة البوذيّة مرّت أمام عينيه الكثير من الحلول ولكنّه اختار أكثرها قساوة.

– واش تحبّي. هكذا نحن، مزاجنا متطرّف جدًّا وهذا ما يجعلنا نميل للحلول الأكثر جنونًا عندما تزداد المسافة الفاصلة بين الحياة والموت ضيقًا.

– على كلّ، الأكل برد. حذّرتك من البداية، عندما أبدأ الكلام

أصير مثل الرحى. لا أتوقف أبدًا. تعرف يا ياسين، عندما نكون صغارًا نكون سعداء بالأبجديّات المهبولة ونظنّ أنّ الدنيا تسير مثلما ما نشتهي وعندما نصاب بالخيبات الأولى ندرك بألم كم كنّا على هامش الحياة. عندما تساءلت لأوّل مرّة بيأس، ما الذي قادني إلى هذا الرّجل؟ كنت قد تورّطت معه بالحمل. عندما أخبرته بذلك، لم يكن سعيدًا. عندما همهم وغمغم قرأت في عينيه رغبة ما للتنكُّر لنطفته. لم يكن يهمّني ردّ فعله كثيرًا. تعرف يا ياسين، هذا ربّما قد يزعجك، الجزائريّ من منظور المرأة غير أهل للثقة، فهو أقلّ من الذئب في وفائه. يشتهي المتعة ولا يعرف كيف يتحمّل مسؤوليّة اللحظة. جميل أن تتلذّذ بجسد امرأة تعشقها والأجمل أن تجدك هذه المرأة لحظة تحتاج إليك حقيقة. للمرّة الأولى أشعر أنّ الله كان في صفّي. فقد سقط الجنين في شهره الرابع. ولا أدري من كان أكثرنا سعادة؟ فجأة صرنا دافئين مع بعضنا البعض. منذ ذلك اليوم صار كلّ الأجنة الذين أحملهم لا يتجاوزون الشهر الرابع.

– ألم يكن من الأجدى تركه في وقت مبكر؟

– ربّما كانت انتهازيّتي الصغيرة هي السبب. خرجنا من البلاد تحت التهديد والخوف، وفي باريس ربطنا علاقتنا بوطن كان كلّ يوم يزداد بعدًا. أخرجنا الأعداد الأولى من المجلّة ثمّ أفلسنا. فقد راهنّا على سوق عربيّة كانت منشغلة بشيء آخر غير القراءة. رشيد ظلّ مشدودًا إلى الأرض التي تركها. لم تكن الجزائر بالنسبة له إلاّ تلك البقرة الحلوب. أفلسنا وزادت حياتنا سوءًا. وعندما صمّم على العودة النهائيّة إلى البلد، كنت قد قرّرت الذهاب بعيدًا حيث لا أرى أحدًا من معارفنا السابقين الذين كانت باريس تتجشّأ بهم.

فأرحته وأراحني. وفي ليلتنا الأخيرة مع بعض، أخرج كل أحقاده. حمّلني كلّ الخسارات التي حصلت له. قلت له عد إلى أصدقائك فأنت ما زلتَ تحنّ إليهم. وهنا اندفع كالبركان واصفًا إيايّ بكلّ النعوت وكيف سترني من البهدلة أمام الناس. الرّجل عندنا، كلّ حبّه ديْن مؤجّل لا تعرف متى يطالبك به. الحبّ عندما يتضاءل بين شخصين يحتاج إلى شيئين حادّين، إمّا هزّة عنيفة تعيد له وهجه الكبير أو إلى بتر شجاع للعلاقة يقبل فيها الطرف الأكثر حساسيّة التنحّي من المشهد وتحمّل القدر الأكبر من الخسارة. عندما تركني وعاد إلى أرض الوطن سافرت أنا مع صديقة فنّانة كانت تسكن في هارلم، ليس بعيدًا عن أمستردام، وهي التي عرّفتني بهؤلاء الناس الرائعين. شعرت في البداية بالهدوء غير العاديّ ثمّ تعوّدت على هذه السكينة شيئًا فشيئًا حتّى صارت جزءًا منّي. وعندما اندلعت حرائق الحرب الوطنيّة الثانية عدت لأدفن من جديد في الشعر والأبجديّات الغامضة. من حين لآخر أقول لنفسي: ماذا كان يحصل لو تفاديت منعطف رشيد؟ أنتَ أحسننا جميعًا، عندما خرجتَ فعلتَ ذلك بدون ضجيج، فاخترت أن تكون فنّانًا. حقيبتك ذاكرتك.

– الأمر ليس هيّنًا يا حنين. عندما تختار أن تترك بلدًا عليك أن تتعلّم من جديد وفي سنّ متأخّرة كيف تعيش وكيف تدفع فاتورة الأشياء الصعبة لوحدك. عبرتي تعلّمتها من أمّي. عندما أحرقت الحرب الوطنيّة الأولى والدي، تخلّى جميع الأهل عنا لأنّ أمّي رفضت أن تعاود زواجها فقد ظلّت مشدودة إلى الرّجل الأوّل الذي أوصاها في ليلته الأخيرة أن تضع أبناءه في عينيها. رفضت كلّ شيء. اشتغلت في الطّين عمرًا كاملاً ولم تُحنِ رأسها لأحد.

وعندما صارت تتقاضى منحة الشهداء، أصبح كلّ الأهل يحبّوننا. سبحان مغيّر الأحوال. الحياة يا حنين هكذا. أنا الآن أتعلّم منك. ليس من الهيّن أن يقاوم الإنسان الذاكرة المعطوبة والمرض القاسي دفعة واحدة، أحيانًا علينا أن نفصل بينهما لنتمكّن من تحمّل الدنيا.

– الحياة تعلّمنا وتلجمنا كثيرًا. اليوم تغيّرت أشياء كثيرة فيَّ. أصبحتُ كلّما دعيت إلى أمسية، لا أقول شيئًا سوى جرحي الصغير وشططي. المنفى علّمني أنّنا عندما نلتصق باللغة ونحبّها، يمكنها أن تنقذنا من هلاك أكيد.

– كأسك. ألا تريدين النسيان؟

– من قال إنّ النسيان ممكن؟ هل وصلت إلى كأس الحافة كما تقول. الكأس السابعة، الكأس الفاصلة بين الزهو والضلال؟

– أنتِ في الكأس الخامسة فقط.

– ومع ذلك بدأتُ أضيع. بعد قليل ستضطرّ إلى حملي إلى البيت.

ثمّ تمتمتْ وهي ترشق عينيها باستقامة فيَّ:

– كم الساعة الآن؟ أنت ستسافر غدًا. ولا أدري لماذا تصرّ على السفر غدًا.

– تعرفين يا حنين أنّ السفر المؤجّل مثل الحبّ المؤجّل، يمكن أن نخسره ببساطة بحساب ضيّق وصغير. وقد نخسر منعطف حياتنا بكاملها. منذ أن تخطّيت الحدود تقلّصت كلّ خياراتي. أنا مشروط بآخرين ولم أعد سيّد نفسي.

– أمريكا. لوس أنجلس. اثنتا عشرة ساعة طيران. هبال؟ ليكن. أنت تريد أن تنسى دفعة واحدة ولهذا اخترتَ أقصى نقطة في الدنيا

لتمارس غيّك ولتجد كلّ المبرّرات لكبح حنينك المتزايد.

– ومع ذلك، عندما نحبّ، تتقلّص كلّ المسافات وتنفتح أمامنا كلّ المعابر الضيّقة التي من المستحيل المرور عبرها في الحالات العاديّة.

– كأسك، أليست هي السادسة؟

– لا. هي الكأس التي تسبق السابعة. الكأس الفاصلة بين الزهو والضلال.

الفصل الثامن

حَدائِقُ عَبَّادِ الشَّمْسِ

-١-

الساعة الضوئيّة تحاذي الثالثة صباحًا.

لقد توقّف الثلج عن السقوط.

كانت الأنوار تنزلق على الماء خطوطًا متقاطعة ملوّنة مثل رسم مرتبك. من نافذة البيت المطلّة على الميناء القديم تبدو أمستردام مستكينة أمام البحر وأمام القنوات المائيّة التي تزيّن صدر المدينة كعاشقة صغيرة تتصيّد رضى عشّاقها. لقد اندفنت كنزة، زوجة الأمير الهولنديّ الحزين بين ظلال البنايات الآجوريّة القديمة وكتل الثلج العالية.

- أنا كذلك أريد أن أنسى. كلّنا على حافّة بحر منسيّ مثل فتنة وكنزة والأخريات. الفرق الوحيد بيننا هو أنّ بعضنا ماتوا بينما الآخرون ما يزالون في قائمة الانتظار.

قالت حنين بارتباك وهي تخرج من الحمّام ملفوفة داخل غلالة وفوطة تركتها تسقط مثلما فعلت في ذلك الصباح البارد فتنة. سحبت الستائر للمرّة الأخيرة على المرفأ القديم حيث انسحب

صوت السكارى وندب الأمير الهولنديّ ولم تترك إلاّ الفجوة الصغيرة التي كنت أقف فيها حيث كلّ شيء كان يبدو هادئًا على الواجهة. السفن المضاءة. البحر الذي لم يفقد زرقته رغم الثلج الذي سقط طوال الليل. وتمثال كنزة، عازفة البيانو، الذي نقّته الأمطار التي كانت قد بدأت تسقط عندما غادرنا المطعم، وجعلت الأضواء تنكسر على سطحه الرخاميّ الأملس بانعكاسات ملوّنة. لا أدري إذا كان التعب هو السبب أم رغبة باطنيّة مدفونة في الأعماق ولكنّي سمعت إيقاعات بيانو حقيقية تنبعث من مكان ما. تمنّيت لو كان معي الكمان. هذا هو الوقت الذي كانت تقوم فيه فتنة لإيقاظ الأحياء.

أحرقتُ السجائر الأخيرة. المنفضة امتلأت.

– تعال. ارتحْ قليلاً. أمامك رحلة شاقّة.

ودّعت المدينة الممطرة بعينيّ وجلست على الأريكة الجلدية القديمة.

– أرأيتِ، أنتِ محظوظة في هذه المدينة.

– المدن مثل الحلوى، نصنعها مثلما نشتهي ثمّ نأكلها. أنت الآن تراها بعين خاصّة لأنّ كلّ ما يحيط بك يدفع بك حتمًا نحو هذا الحبّ، وغدًا عندما تتآكل لحظات الدهشة، ستراها حتمًا بعين أخرى.

– هناك مدن توفّر لنا فرصة التمادي والتخيّل وأخرى تقمعنا منذ اللحظة الأولى وأسترادام من الصنف الأوّل. هي بالفعل تعطي الإحساس بالبراءة والوداعة.

– يبدو لي أنّنا في نهاية المطاف لا نحمل معنا إلاّ الذاكرة التي نشتهي وأجزاء المدن التي نريد ونهمل الباقي. ونحن في حاجة

ماسّة لفعل ذلك حتّى نستطيع أن نحيا وإلاّ سنختنق. المدينة التي تراها الآن هي المدينة التي فيك وليست المدينة الحقيقيّة.

انحنت على الصوفة قليلاً ثمّ التفتت نحوي. لمعت عيناها ببريق جميل. واصلتْ.

– أحبابي يتحمّلون ضيق المكان. إفتح معي هذه الصوفة لنوهم أنفسنا للحظة على الأقلّ أنّنا في مكان واسع. إذا كنت تريد النوم سأترك لك المكان وأنسحب نحو غرفتي، لا أريد أن أثقل عليك.

– ألم أقل لك، لنا كلّ الموت لننام.

– يا الله، تعالَ، ساعدني. لقد أسدلتُ كلّ الستائر ولم تبق إلاّ الصوفة.

كان لباسها الخفيف يعطي لجسدها كلّ استداراته وغواياته وأحزانه. كنّا على حافّة كأس الجنون. لم أر في أيّة لحظة من اللحظات نرجس ولكنّي رأيت حنين، بعفويّتها وقلبها الطيّب ورغبتها في الحياة إلى درجات الهبل. تذكّرت ما قالته لي ونحن نترك المطعم ونذهب صوب تمثال كنزة: أحيانًا عندما نسدل الستائر لا لكي لا يرانا الآخرون ولكنّنا نفعل ذلك لكي نشعر بأنفسنا أنّ لنا حياة غير التي نتقاسمها مع جميع البشر. ياه يا ياسين، لو تعرف. كم أحلم، عندما أموت، أن أجد رجلاً يضع جسدي بهدوء في البحر مثلما فعلت كنزة، وكلّما مرّ العشّاق على المكان يرشقونني بالنوار أملاً في حياة جميلة. وإذا استحال الاندفان في الماء، أتمنّى من نفس الرّجل أن يضعني على منصّة من خشب الصنوبر الكريم، يحيطها بالورود الملوّنة ويتركني أحترق مثلما فعل عبد الرحمن. أوصيه فقط بأن يُرمى رمادي بجانب عازفة البيانو والقليل منه يُدفن في مقبرة الذين لا أرض

لهم، على حافة البحر المنسيّ. أنا لا أستطيع أن أكون قدّيسة ولكنّي بالمقابل قادرة على أن أشتعل من أجل رجل أعشقه. عندما نعثر على وجه فقدناه في زحمة الدنيا نتشبّث به كالكنز الثمين بينما يتكفّل المنفى بإتمام البقيّة. قلتُ لها ونحن في المصعد عندما عدنا من سهرة الميناء، أعتقد أنكِ وراء كلّ ما حدث لي من أشياء رائعة وبالتالي، فأنتِ وراء كل هذه الحيرة الصعبة. الصدفة أحيانًا تصنع الأقدار الغريبة. نتواعد مع قدر ونفاجأ بقدر آخر لا نستطيع تخيّله حتّى في المنام. كنتُ أتهيّأ لاستقبال أشواق امرأة لم أكن أعرف منها سوى أنّها أحبّتني لليلة بكاملها ثمّ وضعت على رأس لساني نبتة اللّذة وسحر ماء الزعفران، وإذا بأمطار الطفولة الأولى تأتيني دفعة واحدة مثلما يحدث عادة في الأحلام. أكبر عذاب نعيشه هو أن نذوق سحر امرأة تغادرنا ونحن لم نشبع منها. ليلة واحدة كانت كافية لأن توقظ فيَّ أشواق الركض وراء وَهْم مستحيل.

سمعت تمتمات حنين ووشوشاتها تأتيني من بعيد مصحوبة بنغمة حزينة لهايدن:

– هايدن؟

– هايدن. هذا النغم الحزين الذي يأتي من بعيد يجعلني فيك. أيّها الهامل مثلي كم أشتهيك. ها أنذي أمامك، أساعدك على قتل نرجس والاحتفاظ بحنين فقط.

– في القلب متّسع للاحتفاظ بالاثنتين. يبدو لي أحيانًا أنّي لم أتوقّف أبدًا عن حبّك وكلّ ما فعلته في حياتي هو أنّي كنت طوال هذا الزمن أتمرّن على نسيانك، وها أنتِ الآن تستيقظين فيَّ بعنف كالبركان.

– أنا كذلك أحبّك لكن يحدث معي أن أغرق في الأسئلة التي

لا تفضي إلى أيّ شيء مهمّ. ربّما إلى تهديم كلّ ما هو جميل واستثنائيّ. أحيانًا نظنّ أنفسنا أنّنا بالفعل نحبّ بل ونعشق بصدق ولكنّنا فجأة، بفعل الخيبات المتكرّرة، ندرك أنّنا نتمرّن على تحمّل شيء مجهول فينا، فنقضي العمر أو الجزء الأهمّ منه في التفتيش في دواخلنا المزدحمة عن مكان صغير نخبّئ فيه الذين نحبّهم في متحف القلب المفتوح أبدًا. نمضي وقتًا لا يُستهان به في البحث عن أرقى السبل للحفاظ على الإطار والصورة. لأنّنا عندما ندخل بالصدفة متحف القلب نجد أشكالاً متعدّدة من الأطر، التي مايزال أصحابها يشعُّون فينا، ونجد الأطر المشروخة والأطر الفارغة تمامًا والمتشابهة لأناس جرحونا وانسحبوا، فخرجوا من تلقاء أنفسهم. نحاول عبثًا أن نسترجع صورهم لكنّ البياض قاسٍ وننسى فجأة أنّ القلب مثل الذاكرة، حقود، لا يحتفظ إلاّ بصور الذين لهم مكان فينا أمّا الذين جرحوه فيحوّلهم إلى بياض ثمّ يمحوهم نهائيًا ويحرمهم حتّى من مصير اللوحات المسروقة التي تجد مع الزمن من يشتريها ويعيدها إلى مكانها الأصليّ. أحبّك ولا أدري ماذا تخبّئ لنا الأيّام القادمة وهذا المتحف القاسي.

هايدن. نظرتُ إلى وجهها مرّة أخرى. ياه، ما تزال هي هي. لم تفقد شيئًا من ألقها ودفئها رغم السنوات. دخلت من اتّساع عينيها الصافيتين، الفاتحتيّ اللون. مراكب مضلّلة للعابرين الباحثين عن مرفأ للنجاة. خزرة هادئة وحادّة، تنسحب بسرعة كغيمة حاملة معها أسرارها. بين اتّساع العينين، على الجبهة الواسعة رأيت مرفأ بمعبرين متوازيين، يزدادان عمقًا كلّما ركّزت على شيء أو تساءلت. في نهاية انحدار الأنف المستقيم، المستعدّ للافتتان،

شفتان لا تبطنان إلاّ الغواية بامتلائهما وسحرهما. بابان لقصر أندلسيّ مغلق على أسراره. من حين لآخر تتسرّب منهما ابتسامة ساخرة سرعان ما تنطفئ قبل أن يُكشف باطنها العميق. ثمّ... هذا الصدر الواسع كطحطاحة خيالة لا يوقف جموحها إلاّ البارود والكبرياء. القلب الذهبيّ الذي يتدلّى من عنقها والمختوم بأربعة مربّعات من الألماز والسفير واللؤلؤ والأحجار الكريمة الأخرى، يتوغّل أكثر فأكثر نحو النهد الأيمن ويختلط جزء منه مع شعر أسود خبّأت شمس السواحل فيه كلّ عناصر الشيب وفعل السنّ.
هذه المرأة، كانت تسير نحو الخمسين برشاقة. عندما لامس وجهها خدّي وهي تحاول أن تضغط على زرّ قنديل الهالوجين، شعرت بحرارة تشبه حرارة فتنة عندما كانت تقف ورائي لتعلّمني كيفيّة القبض على الكمان.

خفّتَتِ النور حتّى صارت تبدو لي كظلّ كان ينزلق من يدي كلّما حاولت لمسه. رأيت حركات أصابعها وهي تفتّش عن شفتيّ ثمّ عينيّ ثمّ صدري. أزحلق يدي إلى صدرها. أتحسّس الندوب الخفيفة. أتذكّر ما قالته لي حنين. أحاول أن أنسى. أشعر بقلبها يزداد عنفًا. قلبها كان قريبًا من أصابعي. لم يكن بيني وبينه إلاّ لمسة. أقرأ الخوف في عينيها الواسعتين ورغبة قصوى للنسيان. أتلمّس تفاصيل الجرح الذي كان يتفتّق عميقًا في داخلي. الحياة ظالمة، كدت أصرخ ولكنّي قاومت شطط الروح ثمّ استسلمت عندما تدحرجت يدي وشفتي إلى حلمة النهد الذي لم تقتله الأيّام ولا السنوات الصعبة. رضعت الحلمة، شعرت بالحليب يتدفق. ها هو ذا؟ تخطئين إذ تظنّين أنّك صرتِ جافّة؟ ما زلتِ امرأة كاملة، تشتهيها ملامس اليد وعنفوان القلب ورغبة الأصابع. ها هي ذي

المهبولة تجلس على قبر الوليّ الصالح، تتلوّى، تفتح فخذيها الممتلئين وتخبّئني بينهما: إحذر يا ولد الناس عندما تكون مع امرأة، إمّا أن تسعدها وإمّا روح تلعب على راسك لأنّها ستبحث عن غيرك حتّى عندما تكون متعلّقة بك. للرجل لذّة واحدة مكمّلة للتسعة والتسعين التي تملكها المرأة... وعليه أن يبحث عنها وقد لا يجدها وقد يجدها بسرعة وينتهي بدون أن يصل إلى عصب اللّذّة التي ينشدها لنفسه ولها. الرّجل الصحيح هو الذي يسعى لأن يكون مشابهًا للمرأة في سعيها.
كان الجسد المجروح ينشأ من الرماد. والوجد الغامض يأتي دفعة واحدة، جميلاً ومؤذيًا. أتحسّس كلّ التفاصيل، الشعر الذي يتدحرج فوق الوسادة كالأمواج الهاربة، الذي ورث بعض تلوّناته من السواحل الرومانيّة المهجورة، العينين الفاتحتين المفتوحتين على أحزان الدنيا وأشواقها، الشفتين اللتين مايزال بهما بقايا الشّعر ورغوة الطفولة الأولى. أتحسّس برأس اللسان الحلمة التي ما تزال على جنباتها حلاوات سنّ المراهقة. أترك رأسي يميل قليلاً نحو الصدر، تغيب الندوب ولا أسمع إلاّ دقات القلب المتسارعة. آخذ ماء الزعفران، أملأ فمي وأتركه ينزلق قطرة قطرة في فمها. أسمع صوتها القادم من بعيد. بي عطش القفار، لا تتوقّف أرجوك. أمْلأُ سرّتها وأشرب. تمتزج الملوحة برائحة قصب السكّر وآخر صابون مسّها ثمّ أندفن في الجسد المنتشي باللّغة ومزيج من عطر L'air du temps وتشوّقات الحبّ البوهالي. عندما اندفنتْ يداي بين الساقين، تأوّهتْ. عضّتْ على صدري وعلى ذراعي ثمّ أطبقت شفتيها تلثم كمن يداوي جرحًا غائرًا. رغم خفوت النور كنت أراها في اكتمالها. وعندما انقلبتْ على صدري، وصار خصرها بين

يديَّ وغطّى شعرها وجهي رأيتُ امرأة ممتلئة بالحياة. بينما كنتُ أتهاوى كورقة بلاطان في حدائق تلمسان، كانت تتعالى كغيمة مع ما تبقى من سانفونيّة هايدن.

تحسّستُ حرارة الدمعة التي سقطت على الصدر ثمّ تبخرتْ. تمتمتُ:

– حنين، تبكين؟

– لا تهتمّ. أحبُّك.

حاولت عبثًا أن أعثر على لغتي الضائعة. يبدو لي أنّ الصمت هو اللغة المتفرّدة للعزلة.

السامفونيّة تغيب ومعها يزداد وهج الرّعشة وتقطّعات حنين.

– هل تسمعني الآن؟

– أسمعك.

– هل تتحسّس جرحي؟

– إنه فيَّ.

– ما الذي تشتهيه إذن؟

أن أحبّك أكثر لكي لا أنساك أبدًا.

– أنت الآن تحاول أن تنسى امرأة عشقتك قبْلي.

– أنا الآن أمام امرأة قضيت العمر كلّه أشكّلها كما أشتهي. المنفى يعوّدنا على النسيان. ألم تقولي هذا؟

لم تقل شيئًا. كان جسدها يزداد استدارة وارتعاشًا كلّما لمسته. ندى العرق وماء الزعفران يزيدان من إحساسي أنّي كنت أمام جسد كنت أرمّمه بقصب الوديان وأشكّله من طين أمّي ورهافة أصابع زليخا. الأصابع تنزلق بسهولة. الخمسون سنة لم تفعل فيها الشيء الكثير سوى الإيقاظ المستمرّ لحواس الحبّ والزوغان داخل

اللّذّة. أضغط أكثر على الخصر أسحبها لتصير أكثر قربًا إلى فمي. تتدفّق فيَّ كالهواء الساخن. أضغط على الطين في الزوايا حتّى يصير الجسد كاملاً ومتوازنًا. لم أتألّم عندما شقّت أظافرها جلدة الظهر وتوغّلت أكثر في عمق اللحم الحيّ. ترتعش. أمدُّ ذراعي بكلّ انفتاحهما. أشبكهما على الظهر ثمّ أسحبها لتدخل للمرّة الأخيرة في صدري. تغيب شيئًا فشيئًا ولا أسمع إلاّ صوتها وهي تتأوّه. تشهق حنين للمرّة الأخيرة ثمّ تتحوّل إلى غيمة متلاشية داخل آلاف الألوان المتزاحمة.

-٢-

سكن هايدن وتوقّفت الموسيقى نهائيًا وعمَّ الصمت والخفوت.

لا أدري كم من الوقت مرّ. عندما فتحت عيني على الغيمة البنفسجيّة كانت الظلمة في جزئها الأخير. رأيت قبالتي الساعة الضوئيّة. تجاوزت الخامسة. حنين ما تزال نائمة، رأسها على ذراعي اليسرى، قريبًا إلى دقّات القلب التي كانت تنتظم بهدوء. جزء من شعرها يغطّيني والجزء الآخر يغطّي جرح صدرها. أرجلنا متداخلة وكأنّها تمنعني من الهرب إلى المنافي البعيدة.

قبل أن تغيب داخل متاعب النوم، قالت:

– هكذا أربطك بشعري ورجلي حتى لا تهرب منّي حينما تأخذني إغفاءات النّوم.

– سأفعل شيئًا آخر. سأهرب بك.

– شيش. إفعل. لن أقول لك لا.

– وسأقاوم هذا المنفى.

- إفعل ولكن احذر. المنفى هكذا، يبدأ بمزحة ثمّ بليلة رومانسيّة نتذكّرها طويلاً قبل أن نتهاوى كالورق اليابس في العزلة القاسية وينتهي بمحنة تشبه محنة عبد الرحمن.

كنّا في نفس الوضعيّة الطفوليّة. لم نغيّر شيئًا وكأنّنا طوال الساعات التي نمنا فيها لم نتحرّك مطلقًا. عندما سمعت كلاكسون سيّارة المؤتمر، تسلّلتُ بهدوء حتى لا أوقظ حنين مثلما كان يفعل الأجداد البربر عندما يرحلون بعيدًا. سحبت رجلي اليمنى ثمّ اليسرى، ثمّ لملمت شعرها خصلة خصلة ووضعته على صدرها العاري. حرّكت بهدوء يدي الثانية وفتحت الكفّ التي كانت تحتضن أصابعها الصغيرة ثمّ انزلقت بهدوء لاثمًا شفتيها اليابستين. أحسست ببرودة وأنا أترك دفء جسدها. سمعت غمغمتها للمرّة الأخيرة لا أدري إذا كانت واعية أم قالتها وهي بين الحلم واليقظة:

- أرجوك... إبق قليلاً... لا تذهب الآن.

لم تقل بعدها شيئًا ولكنّها دخلت في سكينة من جديد.

انسحبت على رؤوس أصابعي.

أزحت الستار جزئيًّا ومسحت الزجاج قليلاً. لأوّل مرّة أرى أمستردام فجرًا تمامًا كما وصفها فنانوها الكبار. كان الميناء القديم يزداد توهّجًا تحت انعكاسات حبّات المطر المختلطة بالثلج الذي عاد إلى السقوط من جديد. أشرتُ للسائق أنّي نازل. فتحتُ الحقيبة. أخرجتُ الملف الذي كانت تنام فيه قرابة ألف رسالة أحجمتُ عن بعثها لنرجس. ربما كانت ألف إنشاء ولكنّها أنا. لا أملك شيئًا أثمن من هذا. عندما تستيقظ حنين ستجد جزءًا من طفولتي مدفونًا داخل هذه الوريقات وستعرف على الأقلّ كم كنت أحبّها.

وضعت الملفّ على مكتبها وكتبتُ عليه هذه الكلمات المبعثرة كما جاءتني:

أيّتها المهبولة، في كلّ الوجوه أنتِ،
إليكِ وحدك في صفائك وبهائك.
إغلقي أوّلاً هذا الباب العاري، سدّي النوافذ القلقة،
ثمّ... قلّلي من خطايا الكلام واستمعي إليّ قليلاً.
لقد تعبتُ.
شكرًا لهبلك وغرورك فقد منحاني شهوة لا تعوّض للكتابة ووهمًا جميلاً اسمه الحبّ.
مثلك اليوم أشتهي أن أكتب داخل الصمت والعزلة،
لأشفى منك بأدنى قدر ممكن من الخسارة.

أتمنّى أن تجدي بعض العزاء في هذا الكلام. الكتابة هنا ليست مفردات ولكنّها موعد غراميّ فيه الكثير من الأفراح والخيبات. يوميًا كنت كلّما جلست أكتب أجدني وحيدًا في ألمي وصادقًا مثل طفل. أفكّر في شيء وكثيرًا ما أكتب عن غيره ولكنّي في كلّ الحالات كنت أسعد إنسان على هذه الأرض التي لم أطلب منها الشيء الكثير سوى أن لا تقتل عفويّتي وأن لا تفتتن بمن أحبّ فتسبقني إليه. أشكر الصدفة الجميلة مرّتين، الأولى عندما فتحت الراديو في ذلك الشتاء قبل أكثر من ثلاثين سنة وأشكرها كذلك لأنّها لم تبخل عليّ بأنْ وضعتنا هذه المرّة في نفس المعبر باتجاهين معاكسين بحيث لا يستطيع أحدنا أن يمرّ دون أن يرى الآخر.

أحيانًا أشعر أنّه من فرط حبّنا للحياة نتركها تنسحب من أيدينا

كحبّات الرمل. متشعنقين بشغف بين لحظتين محكوم عليهما قسرًا بالموت الأكيد. اللّحظة الأولى عندما نلتقي ويكون للحبّ سحر الاكتشاف والإحساس بالديمومة، فيأتي العشق حارًا، واللحظة الثانية عندما نهمّ بالافتراق والإحساس بالخسران. لليلة الأخيرة دائمًا مذاق الفقدان، مثل الأولى تمامًا. الهوّة التي تعقب ذلك، كثيرًا ما يصعبُ ترميمها. نلتصق بكلّ التفاصيل الصغيرة لحفظها وفي الصباح عندما نستيقظ، وقبل أن نتحسّس سعادتنا الطارئة، تكون مدارج المطارات قد سحبتنا نحوها ومكبّرات الصوت في المطارات تختصر علينا همَّ التفكير. يبدو أنّنا نمضي العمر بين لحظتين تتكرّران باستمرار، صرخة الولادة وشهقة الموت وعيوننا ما تزال مفتوحة على الدهشة. لماذا يحدث هذا لنا نحن فقط؟

- Je ne cesse de te répéter que la vie est une chance qu'il ne faut jamais rater. C'est la plus belle invention et le plus beau risque à vivre pleinement. N'oublie jamais qu'on ne vit qu'une seule fois et quand on meurt c'est pour de bon.
- Je la vis pleinement dans mon art.
- l'art n'est pas tout dans la vie d'un être.
- Mais il demeure son équilibre inévitable.

– ربّما.

– مؤكّد لبستُ بسرعة وعندما التفتُّ بيعنيّ نحو حنين، كانت نائمة في غفوة طفوليّة. لم أر جسدًا عاريًا تتكسر عليه أضواء قناديل الميناء القديم والسفن الراحلة المتسرّبة عبر الفجوة الصغيرة للستار الذي فتحته ولكنّي رأيت يدين تعجنان تربة القرية الصلصاليّة ثمّ رأيت نحتًا دقيقًا لامرأة نائمة. تمتمت في خاطري: المرأة النائمة؟ ولمَ لا؟ وضعت الإزار على جسدها العاري بهدوء

خوف إيقاظها. لثمت شفتيها. اشتهيت مرّة أخرى أن أنام بجانبها وأن لا أستيقظ أبدًا وأقول لقلبي الآن صرتُ مستعدًا لاستقبال خديعتك بحبّ، لكنّ الإحساس ببداية المنفى كان قد دخل إلى العظم بقوّة.

قبل أن أغلق الباب للمرّة الأخيرة رأيتها.

تذكّرت كلماتها في مطعم الميناء:

– عندما نختار الذهاب نحو المقابر باستمرار، هذا يعني أنّ سنوات المنفى لم تعد على الأبواب ولكنّها بدأت بالفعل. نحن هكذا دائمًا، لا نترك وطنًا إلاّ لنتزوّج قبرًا في المنفى.

أنا لا أعرف كيف أعرّف هذا المرض الذي اسمه المنفى ما دمنا نحمل معنا، ونحن نضع الأقدام على العتبات الباردة للمرّة الأخيرة، كلّ تفاصيلنا الصغيرة التي نراها نحن ولا يراها الآخرون ونراهن عليها. أعتقد أنّنا اليوم صرنا على قاب قوسين أو أدنى من الموت، أنا محكوم عليّ بالخديعة القلبيّة كما تسمّينها وأنتِ بسرطان يختصر أيّامك. لم يعد هناك ما يخيف. وعندما يسقط الخوف تصبح الحياة ممكنة. وينك يا عمّي غلام الله، كنت سيّد كلّ المواقف. الحياة بالنسبة لك لغة لا أكثر. كنتَ الوحيد الذي ملك القدرة على إيجاد الأجوبة لأكثر اللحظات ضيقًا وكآبة. في المواقف العسيرة، كان عمّي غلام الله يُغنّي قرآنه الذي أودى به إلى الموت، من تفاصيل الحرب الغامضة ومن جبن النّاس وشجاعتهم.

طوال الليل لم أر في عينيها سوى رغبة قصوى للحياة وحقول عبّاد الشمس، تمامًا كما تركها فان غوخ للمرّة الأخيرة، قبل أن يضغط على زناد سلاحه وينسحب نهائيًا، وطعم الليلة الأولى

للمنفى والمساحة المتبقّية بجانب عبد الرحمن على حافّة البحر المنسيّ. ثمّ كلمات حنين الأخيرة وهي تحذّرني من مغبّة المخاطرة: المنفى هكذا، يبدأ بمزحة ثم بليلة رومانسيّة نتذكّرها طويلاً قبل أن نتهاوى كالورق اليابس في العزلة التامّة.

وأنا أغلق الباب للمرّة الأخيرة، غامت الدنيا في عينيّ المنكسرتين، ارتعشت ساقاي ولم أسمع إلاّ زليخة وهي تهمس في أذني بحنان مخافة إزعاجي:

- ياسِينْ، يا خُويا العَزِيز، لاَزِمْ تتعلَّم. عندمَا تُحِبّ، لا تُحِب بكُلِّك وإلاّ ستَموتُ مَغْبونًا، خلِّ دايْمًا شْويَه ليكْ حتى تَقْدرْ تُوقَفْ على رجليكْ.